الــصــحــيــح

من سيرة الإمام علي عليه السلام

(المرتضى من سيرة المرتضى)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ. ـ ٢٠٠٩م.

المركز الإسلامي للدراسات

الــصــحــيــح

من سيرة الإمام علي عليه السلام

(المرتضى من سيرة المرتضى)

السيد جعفر مرتضى العاملي

الجزء الواحد والعشرون

المركز الإسلامي للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع:

تاريخ علي عليه السلام بلسان علي..

الفصل الأول:

المرحلة السابقة بنظر علي عليه السلام..

الخطبة الشقشقية:

قال الشيخ المفيد «رحمه الله»:

روى جماعة من أهل النقل، من طرق مختلفة عن ابن عباس، قال: كنت عند أمير المؤمنين «عليه السلام» بالرحبة، فذكرت الخلافة، وتقديم من تقدم عليه، فتنفس الصعداء، ثم قال[(١)] والنص لنهج البلاغة:

أما والله، لقد تقمصها فلان [ابن أبي قحافة]، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى. ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير. فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً. وطفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير. ويشيب فيها الصغير. ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه. فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى. فصبرت وفي العين قذى. وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا حتى مضى الأول لسبيله،

---

(١) راجع: الإرشاد للمفيد ص١٣٥ و (ط دار المفيد) ج١ ص٢٨٧ والإحتجاج للطبرسي ج١ ص٢٨١ وبحار الأنوار ج٢٩ ص٥٠٥ و ٥٠٦ ومناقب علي بن أبي طالب لابن مردويه الأصفهاني ص١٣٤ وعلل الشرائع ج١ ص١٥٠.

فأدلى بها إلى فلان بعده.

ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر

فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشد ما تشطرا ضرعيها، فصيرها في حوزة خشناء. يغلظ كلامها [كلمها] ويخشن مسها. ويكثر العثار فيها. والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم. وإن أسلس لها تقحم.

فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس، وتلون واعتراض.

فصبرت على طول المدة وشدة المحنة.

حتى إذا مضى لسبيله. جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله وللشورى، متى اعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر. لكني أسففت إذ أسفوا، وطرت إذ طاروا.

فصغى رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هن وهن. إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه، بين نثيله ومعتلفه. وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة [خضم] الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته.

فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إليَّ، ينثالون علي من كل جانب. حتى لقد وطئ الحسنان. وشق عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم.

فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ**

لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

بلى والله لقد سمعوها ووعوها. ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها.

أما والذي فلق الحبة. وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر. وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها. ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز.

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه.

قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين، لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت.

فقال: هيهات يا ابن عباس، تلك شقشقة هدرت ثم قرت.

قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام أن لا يكون أمير المؤمنين «عليه السلام» بلغ منه حيث أراد.

قوله: «كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم». يريد: أنه إذا شدد عليها في جذب الزمام وهي تنازعه رأسها خرم أنفها، وإن أرخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها.

يقال: «أشنق الناقة» إذا جذب رأسها بالزمام فرفعه، وشنقها أيضاً،

---

(١) الآية ٨٣ من سورة القصص.

ذكر ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق .

وإنما قال: أشنق لها، ولم يقل: أشنقها، لأنه جعله في مقابلة قوله: أسلس لها، فكأنه «عليه السلام» قال: إن رفع لها رأسها بمعنى أمسكه عليها»(١).

(١) راجع: نهج البلاغة (بشرح عبده) ج١ ص٣٠ الخطبة رقم٣ وعلل الشرائع ج١ ص١٥٠ ـ ١٥١ ومصادر نهج البلاغة ج١ ص٣٠٩ ـ ٣٢٤ عن كتاب الإنصاف لابن قبة، وأبي القاسم البلخي، وأبي أحمد العسكري، ومعاني الأخبار للصدوق ص٣٤٣ و ٣٤٤ و (ط جماعة المدرسين) ٣٦٠ ـ ٣٦٢ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي، ونقلها في بحار الأنوار ج٢٩ ص٤٩٧ و (ط حجرية) ج٨ ص١٦٠ وعن ابن الجوزي في مناقبه، وأبي علي الجبائي في كتابه، وابن الخشاب في درسه، والحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، وابن عبد ربه في الجزء الرابع من العقد الفريد، وعن الطرائف والفرقة الناجية للقطيفي، والإرشاد للمفيد ص١٣٥ و (ط دار المفيد) ج١ ص٢٨٧ ـ ٢٨٩ وفي المغني لعبد الجبار شروح لبعض فقراتها، والغدير ج٧ ص٨١ وكما في الشافي للسيد المرتضى (ط حجرية) ص٢١٢ و ٣٠٣ و ٣٠٤ ونثر الدر للآبي، وكتاب نزهة الأديب للآبي أيضاً، والأمالي للطوسي ج١ ص٣٩٢ وقطب الدين الراوندي في شرح نهج البلاغة، والإحتجاج للطبرسي ج١ ص٩٥ و (ط دار النعمان) ج١ ص٢٨١ ومناقب آل أبي طالب ج٢ ص٤٨ والطرائف لابن طاووس ص٤١٩ وتذكرة الخواص، وقد شرح الكثير من ألفاظها مع ذكر فقرات منها في مجمع الأمثال للميداني ج١

ونقول:

إننا قبل أن نذكر بعض ما يرتبط بهذه الخطبة نشير إلى المسائل التي قدمها الإعرابي إليه، فمنعته «عليه السلام» من مواصلة خطبته، فلاحظ ما يلي:

هذه هي مسائل الأعرابي:

قال ابن ميثم:

«قال أبو الحسن الكيدري «رحمه الله»: وجدت في الكتب القديمة: أن الكتاب الذي دفعه الرجل إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» كان فيه عدة مسائل:

أحدها: ما الحيوان الذي خرج من بطن حيوان آخر، وليس بينهما نسب؟!

فأجاب «عليه السلام»: بأنه يونس بن متى «عليه السلام»، خرج من بطن الحوت.

الثانية: ما الشيء الذي قليله مباح، وكثيره حرام؟!

ص٣٦٩ وفي نهاية ابن الأثير فقرات كثيرة وراجع ج٢ ص٢٩٤ ولسان العرب، والقاموس للفيروزآبادي، وكتاب الأربعين للشيرازي ص١٦٧ ومناقب أهل البيت «عليهم السلام» للشيرواني ص٤٥٧ ومناقب علي بن أبي طالب لابن مردويه الأصفهاني ص١٣٤.

فقال «عليه السلام»: هو نهر طالوت، لقوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**﴾(١).

الثالثة: ما العبادة التي لو فعلها واحد استحق العقوبة، وإن لم يفعلها استحق أيضاً العقوبة؟!

فأجاب «عليه السلام»: بأنها صلاة السكارى.

الرابعة: ما الطائر الذي لا فرخ له، ولا فرع، ولا أصل؟!

فقال: هو طائر عيسى «عليه السلام»، في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي**﴾(٢).

الخامسة: رجل عليه من الدين ألف درهم، وله في كيسه ألف درهم، فضمنه ضامن بألف درهم، فحال عليه الحول، فالزكاة على أي المالين تجب؟!

فقال: إن ضمن الضامن بإجازة من عليه الدين، فلا يكون عليه. وإن ضمنه من غير إذنه فالزكاة مفروضة في ماله.

السادسة: حج جماعة، ونزلوا في دار من دور مكة، وأغلق واحد منهم باب الدار، وفيها حمام، فمتن من العطش قبل عودتهم إلى الدار، فالجزاء على أيهم يجب؟!

فقال «عليه السلام»: على الذي أغلق الباب، ولم يخرجهن، ولم يضع

(١) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١١٠ من سورة المائدة.

لهن الماء.

السابعة: شهد شهداء أربعة على محضر [الصحيح: محصن] بالزنا، فأمرهم الإمام برجمه، فرجمه واحد منهم دون الثلاثة الباقين، ووافقهم قوم أجانب في الرجم، فرجع من رجمه عن شهادتهم، والمرجوم لم يمت ثم مات، فرجع الآخرون عن شهادته عليه بعد موته، فعلى من يجب ديته؟!

فأجاب: يجب على من رجمه من الشهود، ومن وافقه.

الثامنة: شهد شاهدان من اليهود على يهودي أنه أسلم، فهل تقبل شهادتهما أم لا؟!

فقال: لا تقبل شهادتهما، لأنهما يجوزان تغيير كلام الله، وشهادة الزور.

التاسعة: شهد شاهدان من النصارى على نصراني، أو مجوسي، أو يهودي أنه أسلم؟

فقال: تقبل شهادتهما لقول الله سبحانه: ﴿**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾(١).. ومن لا يستكبر عن عبادة الله لا يشهد الزور.

العاشرة: قطع إنسان يد آخر، فحضر أربعة شهود عند الإمام، وشهدوا على قطع يده، وأنه زنى وهو محصن، فأراد الإمام أن يرجمه فمات قبل الرجم.

فقال: على من قطع يده دية يد، حسب. ولو شهدوا أنه سرق نصاباً لم

---

(١) الآية ٨٢ من سورة المائدة.

يجب دية يده على قاطعها»[١].

هل الأعرابي غبي أم منافق؟!:

قال السيد عبد الزهراء الخطيب:

الرجل السوادي الذي ناول أمير المؤمنين «عليه السلام» الكتاب هو أحد رجلين:

إما أن يكون منافقاً ماكراً، أراد أن يقطع عليه كلامه، في حيلة لم يستطع أن يدبر غيرها.

وإما أن يكون بليداً مغفلاً، قليل المعرفة، سيء الأدب، حداه جهله على (إلى) التسرع في مناولة الكتاب، ولم يمهل حتى يبلغ الإمام قصده.

أما الكتاب فيحتوي على مسائل غير مهمة بالنسبة للغرض الذي فوته على أمير المؤمنين «عليه السلام» مما دعا ابن عباس (إلى) أن يأسف لذلك أشد الأسف[٢].

وهناك احتمال آخر: وهو أنه قد وصل إلى ذلك الجمع لتوه، فبادر إلى إعطائه الأسئلة دون أن يعلم بواقع الحال..

أو أن المطلوب هو بيان هذا المقدار، لأن الزائد على ذلك قد يثير أموراً، أو يؤسس لأمور لا تحمد عقباها. ولعل الله سبحانه هو الذي أرسل هذا الأعرابي بذلك الكتاب.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ج١ ص٢٦٩ و ٢٧٠.

(٢) مصادر نهج البلاغة ج١ ص٣١٧ و ٣١٨.

مضامين الشقشقية:

ولسنا بحاجة إلى التذكير بأن مضامين الشقشقية ليست غريبة عن كلمات ومواقف أمير المؤمنين «عليه السلام».. فإن هذه المضامين كثيرة جداً في كلماته «عليه السلام» في المناسبات المختلفة. وفي نهج البلاغة نفسه العدد الوفير منها فضلاً عما عداه مما هو مبثوث في عشرات، بل مئات المصادر التي ألفها العلماء على اختلاف أذواقهم ومشاربهم، ونحلهم ومذاهبهم.

فمحاولة التشكيك بنهج البلاغة، لأجل الخطبة الشقشقية لا تجدي لأن عليهم أن يسقطوا معظم الكتب المعتمدة عند المسلمين عن الإعتبار أيضاً.

توضيح للمسألة العاشرة:

المراد بالمسألة العاشرة من أسئلة الأعرابي: أنه لو قطع إنسان يد آخر، ثم شهدوا عليه بأنه سرق نصاباً. ثم مات فلا تؤخذ له من قاطعها ديتها، بل تحتسب هي حد السرقة. إذ لو أعطوه دية يده التي قطعت، فلا بد من قطع يده الأخرى لأجل السرقة.

أما لو شهدوا عليه بالزنا وهو محصن، فلا بد من دفع دية يده له ثم رجمه، فإن مات قبل ذلك سقط الرجم.

هل بقي شيء لم يقله؟!:

قال المعتزلي: «حدثني شيخي أبو الخير مصدق بن شبيب الواسطي في سنة ثلاث وست مئة، قال: قرأت على الشيخ أبي أحمد عبد الله بن أحمد،

المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فلما انتهيت إلى هذا الموضع (يعني قول ابن عباس: ما أسفت..) قال لي: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له:

وهل بقي في نفس ابن عمك أمر لم يبلغه في هذه الخطبة، لتتأسف أن لا يكون بلغ من كلامه ما أراد؟! والله، ما رجع عن الأولين، ولا عن الآخرين، ولا بقي في نفسه أحد لم يذكره إلا رسول الله «صلى الله عليه وآله».

قال مصدق: وكان ابن الخشاب صاحب دعابة وهزل.

قال: فقلت: أتقول: إنها منحولة؟!

فقال: لا والله، وإني لأعلم أنها كلامه كما أعلم أنك مصدق.

فقلت له: إن كثيراً من الناس يقولون: إنها من كلام الرضي «رحمه الله» تعالى.

فقال: أنى للرضي، ولغير الرضي هذا النفس، وهذا الأسلوب. فقد وقفنا على رسائل الرضي، وعرفنا طريقته وفنه في الكلام المنثور. وما يقع في هذا الكلام في خلٍ ولا في خمر.

ثم قال: والله، لقد وقفت على هذه الخطبة في كتب صنفت قبل أن يخلق الرضي بمائتي سنة. ولقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها. وأعرف خطوط من هو من العلماء، وأهل الأدب، قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضي»(١).

وقال المعتزلي معقباً أيضاً: «قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١ ص٢٠٥.

الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي إمام البغداديين من المعتزلة. وكان في دولة المقتدر، قبل أن يخلق الرضي بمدة طويلة.

وقال أيضاً: وجدت كثيراً منها في كتاب أبي جعفر ابن قبة، أحد متكلمي الإمامية، وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب الإنصاف. وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبي القاسم البلخي «رحمه الله» تعالى. ومات في ذلك العصر، قبل أن يكون الرضي «رحمه الله» موجوداً»[١].

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١ ص٢٠٦.

الفصل الثاني:

تاريخ علي عليه السلام في حوار مع رأس اليهود..

بداية توضيحية:

إننا نذكر هنا حواراً جرى بين أمير المؤمنين «عليه السلام» ورأس اليهود. وهذا الحوار وإن كان قد حصل ـ حسبما ورد في الرواية ـ بعد حرب النهروان، أي في أواخر حياة الإمام أمير المؤمنين «عليه السلام»..

ولكننا أحببنا أن نورده هنا، لأنه يعطي لمحة واسعة، وتصوراً شاملاً لما عاناه «عليه السلام» في حياته الرسالية والنضالية.. ويتضمن أموراً تحتاج إلى بعض التوضيح والبيان..

وقد أفردنا النص هنا في فصل مستقل، ثم عقبناه بفصل آخر للتوضيح والبيان، وقد دعانا إلى ذلك أمران:

أحدهما: أننا أحببنا أن نمكن القارئ الكريم من اختلاس استراحة، تعطيه المزيد من النشاط لمتابعة البحث..

الثاني: أن يكون في حل من متابعة قراءة البيانات والإيضاحات التي نوردها في الفصل الآتي بعد هذه النصوص إذا رأى أنه في غنى عنها..

نص الحوار لرواية الصدوق:

ونقرأ معاً النص الذي هو محط النظر في الصفحات التالية:

حدثنا أبي ومحمد بن الحسن رضي الله عنهما قالا: حدثنا سعد بن عبد الله قال: حدثنا أحمد بن الحسين بن سعيد قال: حدثني جعفر بن محمد النوفلي، عن يعقوب بن يزيد قال: قال أبو عبد الله جعفر بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال: حدثنا يعقوب بن عبد الله الكوفي قال: حدثنا موسى بن عبيدة، عن عمرو بن أبي المقدام، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن محمد بن الحنفية «رضي الله عنه»، وعمرو بن أبي المقدام، عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر قال:

أتى رأس اليهود علي بن أبي طالب «عليه السلام» عند منصرفه عن وقعة النهروان، وهو جالس في مسجد الكوفة، فقال:

يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أسألك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي أو وصي نبي.

قال: سل عما بدا لك يا أخا اليهود؟!

قال: إنّا نجد في الكتاب: أن الله عز وجل إذا بعث نبياً أوحى إليه أن يتخذ من أهل بيته من يقوم بأمر أمته من بعده، وأن يعهد إليهم فيه عهداً يحتذى عليه، ويعمل به في أمته من بعده.

وأن الله عز وجل يمتحن الأوصياء في حياة الأنبياء، ويمتحنهم بعد وفاتهم. فأخبرني كم يمتحن الله الأوصياء في حياة الأنبياء؟! وكم يمتحنهم بعد وفاتهم من مرة؟!

وإلى ما يصير آخر أمر الأوصياء إذا رضي محنتهم؟!

فقال له علي «عليه السلام»: والله الذي لا إله غيره، الذي فلق البحر

لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى «عليه السلام»، لئن أخبرتك بحق عما تسأل عنه لتقرن به؟!

قال: نعم.

قال: والذي فلق البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى «عليه السلام» لئن أجبتك لتسلمن؟!

قال: نعم.

فقال له علي «عليه السلام»: إن الله عز وجل يمتحن الأوصياء في حياة الأنبياء في سبعة مواطن ليبتلي طاعتهم، فإذا رضي طاعتهم ومحنتهم أمر الأنبياء أن يتخذوهم أولياء في حياتهم وأوصياء بعد وفاتهم، ويصير طاعة الأوصياء في أعناق الأمم ممن يقول بطاعة الأنبياء.

ثم يمتحن الأوصياء بعد وفاة الأنبياء «عليهم السلام» في سبعة مواطن ليبلو صبرهم، فإذا رضي محنتهم ختم لهم بالسعادة، ليلحقهم بالأنبياء، وقد أكمل لهم السعادة.

قال له رأس اليهود: صدقت يا أمير المؤمنين، فأخبرني كم امتحنك الله في حياة محمد من مرة؟! وكم امتحنك بعد وفاته من مرة؟! وإلى ما يصير أخر أمرك؟!

فأخذ علي «عليه السلام» بيده وقال: انهض بنا أنبئك بذلك.

فقام إليه جماعة من أصحابه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أنبئنا بذلك معه.

فقال: إني أخاف أن لا تحتمله قلوبكم.

قالوا: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟!

قال: لأمور بدت لي من كثير منكم.

فقام إليه الأشتر، فقال: يا أمير المؤمنين، أنبئنا بذلك، فوالله إنا لنعلم أنه ما على ظهر الأرض وصي نبي سواك، وإنّا لنعلم أن الله لا يبعث بعد نبينا «صلى الله عليه وآله» نبياً سواه، وأن طاعتك لفي أعناقنا موصولة بطاعة نبينا.

فجلس علي «عليه السلام»، وأقبل على اليهودي فقال: يا أخا اليهود، إن الله عز وجل امتحنني في حياة نبينا محمد «صلى الله عليه وآله» في سبعة مواطن، فوجدني فيهن ـ من غير تزكية لنفسي ـ بنعمة الله له مطيعاً.

قال: وفيم يا أمير المؤمنين؟!

قال: أما أولهن فإن الله عز وجل أوحى إلى نبينا «صلى الله عليه وآله» وحمله الرسالة وأنا أحدث أهل بيتي سناً، أخدمه في بيته، وأسعى في قضاء بين يديه في أمره، فدعا صغير بني عبد المطلب وكبيرهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله، فامتنعوا من ذلك وأنكروه عليه وهجروه، ونابذوه واعتزلوه، واجتنبوه وسائر الناس مقصين له ومخالفين عليه، قد استعظموا ما أورده عليهم مما لم تحتمله قلوبهم، وتدركه عقولهم.

فأجبت رسول الله «صلى الله عليه وآله» وحدي إلى ما دعا إليه مسرعاً مطيعاً موقناً، لم يتخالجني في ذلك شك، فمكثنا بذلك ثلاث حجج وما على وجه الأرض خلق يصلي أو يشهد لرسول الله «صلى الله عليه وآله» بما آتاه

الله غيري وغير ابنة خويلد «رحمها الله» وقد فعل.

ثم أقبل «عليه السلام» على أصحابه، فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: وأما الثانية، يا أخا اليهود، فإن قريشاً لم تزل تخيل الآراء، وتعمل الحيل في قتل النبي «صلى الله عليه وآله»، حتى كان آخر ما اجتمعت في ذلك يوم الدار ـ دار الندوة ـ وإبليس الملعون حاضر في صورة أعور ثقيف، فلم تزل تضرب أمرها ظهراً لبطن حتى اجتمعت آراؤها على أن ينتدب من كل فخذ من قريش رجل، ثم يأخذ كل رجل منهم سيفه، ثم يأتي النبي «صلى الله عليه وآله» وهو نائم على فراشه، فيضربونه جميعاً بأسيافهم ضربة رجل واحد فيقتلوه، وإذا قتلوه منعت قريش رجالها ولم تسلمها فيمضي دمه هدراً.

فهبط جبرئيل «عليه السلام» على النبي «صلى الله عليه وآله» فأنبأه بذلك، وأخبره بالليلة التي يجتمعون فيها، والساعة التي يأتون فراشه فيها، وأمره بالخروج في الوقت الذي خرج فيه إلى الغار.

فأخبرني رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالخبر، وأمرني أن أضطجع في مضجعه، وأقيه بنفسي، فأسرعت إلى ذلك مطيعاً له، مسروراً لنفسي بأن أقتل دونه.

فمضى «عليه السلام» لوجهه، واضطجعت في مضجعه، وأقبلت رجالات قريش موقنة في أنفسها: أن تقتل النبي «صلى الله عليه وآله»، فلما استوى بي وبهم البيت الذي أنا فيه ناهضتهم بسيفي، فدفعتهم عن نفسي بما

قد علمه الله والناس.

ثم أقبل «عليه السلام» على أصحابه فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: وأما الثالثة يا أخا اليهود فإن ابني ربيعة وابن عتبة كانوا فرسان قريش دعوا إلى البراز يوم بدر، فلم يبرز لهم خلق من قريش، فأنهضني رسول الله «صلى الله عليه وآله» مع صاحبي ـ رضي الله عنهما ـ وقد فعل وأنا أحدث أصحابي سناً، وأقلهم للحرب تجربة، فقتل الله عز وجل بيدي وليداً وشيبة، سوى من قتلت من جحاجحة قريش في ذلك اليوم، وسوى من أسرت، وكان مني أكثر مما كان من أصحابي، واستشهد ابن عمي في ذلك رحمة الله عليه.

ثم التفت إلى أصحابه، فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال علي «عليه السلام»: وأما الرابعة يا أخا اليهود، فإن أهل مكة أقبلوا إلينا على بكرة أبيهم، قد استحاشوا [أو استجاشوا] من يليهم من قبايل العرب وقريش، طالبين بثأر مشركي قريش في يوم بدر.

فهبط جبرئيل «عليه السلام» على النبي «صلى الله عليه وآله»، فأنبأه بذلك، فذهب النبي «صلى الله عليه وآله» وعسكر بأصحابه في سد أحد، وأقبل المشركون إلينا، فحملوا إلينا [لعل الصحيح: علينا] حملة رجل واحد، واستشهد من المسلمين من استشهد، وكان ممن بقي من الهزيمة، وبقيت مع رسول الله «صلى الله عليه وآله».

ومضى المهاجرون والأنصار إلى منازلهم من المدينة كل يقول: قتل النبي «صلى الله عليه وآله» وقتل أصحابه، ثم ضرب الله عز وجل وجوه المشركين. وقد جرحت بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وآله» نيفاً وسبعين جرحة منها هذه وهذه ـ ثم ألقى «عليه السلام» رداءه، وأمر يده على جراحاته ـ وكان مني في ذلك ما على الله عز وجل ثوابه إن شاء الله.

ثم التفت «عليه السلام» إلى أصحابه فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: وأما الخامسة يا أخا اليهود، فإن قريشاً والعرب تجمعت وعقدت بينها عقداً وميثاقاً لا ترجع من وجهها حتى تقتل رسول الله، وتقتلنا معه معاشر بني عبد المطلب.

ثم أقبلت بحدها وحديدها حتى أناخت علينا بالمدينة، واثقة بأنفسها فيما توجهت له.

فهبط جبرئيل «عليه السلام» على النبي «صلى الله عليه وآله»، فأنبأه بذلك، فخندق على نفسه ومن معه من المهاجرين والأنصار.

فقدمت قريش، فأقامت على الخندق محاصرة لنا، ترى في أنفسها القوة، وفينا الضعف، ترعد وتبرق ورسول الله «صلى الله عليه وآله» يدعوها إلى الله عز وجل، ويناشدها بالقرابة والرحم، فتأبى، ولا يزيدها ذلك إلا عتواً، وفارسها وفارس العرب يومئذ عمرو بن عبد ود، يهدر كالبعير المغتلم يدعو إلى البراز، ويرتجز ويخطر برمحه مرة، وبسيفه مرة، لا يقدم عليه مقدم، ولا يطمع فيه طامع، ولا حمية تهيجه ولا بصيرة تشجعه.

فأنهضني إليه رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وعممني بيده، وأعطاني سيفه هذا، وضرب بيده إلى ذي الفقار، فخرجت إليه ونساء أهل المدينة بواك إشفاقاً عليّ من ابن عبد ود، فقتله الله عز وجل بيدي، والعرب لا تعد لها فارساً غيره، وضربني هذه الضربة ـ وأومأ بيده إلى هامته ـ.

فهزم الله قريشاً والعرب بذلك، وبما كان مني فيهم من النكاية.

ثم التفت «عليه السلام» إلى أصحابه فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: وأما السادسة يا أخا اليهود، فإنا وردنا مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» مدينة أصحابك خيبر على رجال من اليهود وفرسانها من قريش وغيرها، فتلقونا بأمثال الجبال من الخيل والرجال والسلاح، وهم في أمنع دار، وأكثر عدد، كل ينادي ويدعو ويبادر إلى القتال، فلم يبرز إليهم من أصحابي أحد إلا قتلوه، حتى إذا احمرت الحدق، ودعيت إلى النزال وأهمت كل امرئ نفسه.

والتفت بعض أصحابي إلي بعض وكل يقول: يا أبا الحسن انهض، فأنهضني رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى دارهم، فلم يبرز إلي منهم أحد إلا قتلته، ولا يثبت لي فارس إلا طحنته ثم شددت عليهم شدة الليث على فريسته، حتى أدخلتهم جوف مدينتهم مسدداً عليهم، فاقتلعت باب حصنهم بيدي حتى دخلت عليهم مدينتهم وحدي أقتل من يظهر فيها من رجالها، وأسبي من أجد من نسائها حتى أفتتحها وحدي، ولم يكن لي فيها معاون إلا الله وحده.

ثم التفت «عليه السلام» إلى أصحابه فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: وأما السابعة يا أخا اليهود، فإن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لما توجه لفتح مكة أحب أن يعذر إليهم، ويدعوهم إلى الله عز وجل آخراً كما دعاهم أولاً، فكتب إليهم كتاباً يحذرهم فيه وينذرهم عذاب الله، ويعدهم الصفح ويمنيهم مغفرة ربهم، ونسخ لهم في آخره سورة براءة ليقرأها عليهم، ثم عرض على جميع أصحابه المضي به، فكلهم يرى التثاقل فيه.

فلما رأى ذلك ندب منهم رجلاً، فوجهه به، فأتاه جبرئيل، فقال: يا محمد لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك، فأنبأني رسول الله «صلى الله عليه وآله» بذلك، ووجهني بكتابه ورسالته إلى أهل مكة، فأتيت مكة وأهلها من قد عرفتم ليس منهم أحد إلا ولو قدر أن يضع على كل جبل مني إرباً لفعل، ولو أن يبذل في ذلك نفسه وأهله وولده وماله.

فبلغتهم رسالة النبي «صلى الله عليه وآله» وقرأت عليهم كتابه، فكلهم يلقاني بالتهدد والوعيد، ويبدى لي البغضاء، ويظهر الشحناء من رجالهم ونسائهم، فكان مني في ذلك ما قد رأيتم.

ثم التفت إلى أصحابه فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: يا أخا اليهود، هذه المواطن التي امتحنني فيها ربي عز وجل مع نبيه «صلى الله عليه وآله»، فوجدني فيها كلها بمنه مطيعاً،

ليس لأحد فيها مثل الذي لي ولو شئت لوصفت ذلك، ولكن الله عز وجل نهى عن التزكية.

فقالوا: يا أمير المؤمنين، صدقت والله، ولقد أعطاك الله عز وجل الفضيلة بالقرابة من نبينا «صلى الله عليه وآله» وسلم، وأسعدك بأن جعلك أخاه، تنزل منه بمنزلة هارون من موسى، وفضلك بالمواقف التي باشرتها، والأهوال التي ركبتها، وذخر لك الذي ذكرت وأكثر منه مما لم تذكره، ومما ليس لأحد من المسلمين مثله، يقول ذلك من شهدك منا مع نبينا «صلى الله عليه وآله»، ومن شهدك بعده.

فأخبرنا يا أمير المؤمنين ما امتحنك الله عز وجل به بعد نبينا «صلى الله عليه وآله» فاحتملته وصبرت، فلو شئنا أن نصف ذلك لوصفناه علماً منا به، وظهوراً منا عليه، إلا أنّا نحب أن نسمع منك ذلك، كما سمعنا منك ما امتحنك الله به في حياته فأطعته فيه.

فقال «عليه السلام»: يا أخا اليهود، إن الله عز وجل امتحنني بعد وفاة نبيه «صلى الله عليه وآله» في سبعة مواطن فوجدني فيهن ـ من غير تزكية لنفسي ـ منه [لعل الصحيح: بمنّه] ونعمته صبوراً.

وأما أولهن يا أخا اليهود، فإنه لم يكن لي خاصة دون المسلمين عامة أحد آنس به أو أعتمد عليه، أو أستنيم إليه، أو أتقرب به غير رسول الله «صلى الله عليه وآله». هو رباني صغيراً، وبوأني كبيراً، وكفاني العيلة، وجبرني من اليتم، وأغناني عن الطلب، ووقاني المكسب. وعال لي النفس والولد والأهل.

هذا في تصاريف أمر الدنيا مع ما خصني به من الدرجات التي قادتني إلى معالي الحق عند الله عز وجل.

فنزل بي من وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» ما لم أكن أظن الجبال لو حملته عنوة كانت تنهض به، فرأيت الناس من أهل بيتي ما بين جازع لا يملك جزعه، ولا يضبط نفسه، ولا يقوي على حمل فادح ما نزل به، قد أذهب الجزع صبره، وأذهل عقله، وحال بينه وبين الفهم والافهام والقول والإسماع.

وسائر الناس من غير بني عبد المطلب بين معز يأمر بالصبر، و بين مساعد باك لبكائهم، جازع لجزعهم.

وحملت نفسي على الصبر عند وفاته بلزوم الصمت والاشتغال بما أمرني به من تجهيزه، وتغسيله وتحنيطه وتكفينه، والصلاة عليه، ووضعه في حفرته، وجمع كتاب الله وعهده إلى خلقه، لا يشغلني عن ذلك بادر دمعة، ولا هائج زفرة، ولا لاذع حرقة، ولا جزيل مصيبة حتى أديت في ذلك الحق الواجب لله عز وجل ولرسوله «صلى الله عليه وآله» علي، وبلغت منه الذي أمرني به، واحتملته صابراً محتسباً.

ثم التفت «عليه السلام» إلى أصحابه، فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: وأما الثانية يا أخا اليهود، فإن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أمَّرني في حياته على جميع أمته، وأخذ على جميع من حضره منهم البيعة والسمع والطاعة لأمري، وأمرهم أن يبلغ الشاهد الغائب ذلك.

فكنت المؤدى إليهم عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أمره إذا حضرته، والأمير على من حضرني منهم إذا فارقته، لا تختلج في نفسي منازعة أحد من الخلق لي في شيء من الأمر في حياة النبي «صلى الله عليه وآله»، ولا بعد وفاته.

ثم أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بتوجيه الجيش الذي وجهه مع أسامة بن زيد عند الذي أحدث الله به من المرض الذي توفاه فيه، فلم يدع النبي أحداً من أفناء العرب، ولا من الأوس والخزرج وغيرهم من سائر الناس، ممن يخاف على نقضه ومنازعته، ولا أحداً ممن يراني بعين البغضاء ممن قد وترته بقتل أبيه أو أخيه أو حميمه إلا وجهه في ذلك الجيش، ولا من المهاجرين والأنصار والمسلمين وغيرهم، والمؤلفة قلوبهم والمنافقين، لتصفو قلوب من يبقى معي بحضرته، ولئلا يقول قائل شيئاً مما أكرهه، ولا يدفعني دافع من الولاية والقيام بأمر رعيته من بعده.

ثم كان آخر ما تكلم به في شيء من أمر أمته أن يمضي جيش أسامة ولا يتخلف عنه أحد ممن أنهض معه، وتقدم في ذلك أشد التقدم، وأوعز فيه أبلغ الإيعاز، وأكد فيه أكثر التأكيد.

فلم أشعر بعد أن قبض النبي «صلى الله عليه وآله» إلا برجال من بعث أسامة بن زيد وأهل عسكره قد تركوا مراكزهم، وأخلوا مواضعهم، وخالفوا أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيما أنهضهم له وأمرهم به، وتقدم إليهم من ملازمة أميرهم، والسير معه تحت لوائه، حتى ينفذ لوجهه الذي أنفذه إليه، فخلفوا أميرهم مقيماً في عسكره، وأقبلوا يتبادرون على

الخيل ركضاً إلى حل عقدة عقدها الله عز وجل لي ولرسوله «صلى الله عليه وآله» في أعناقهم فحلوها، وعهد عاهدوا الله ورسوله فنكثوه.

وعقدوا لأنفسهم عقداً ضجت به أصواتهم واختصت به آراؤهم من غير مناظرة لأحد منا بني عبد المطلب، أو مشاركة في رأي أو استقالة لما في أعناقهم من بيعتي.

فعلوا ذلك وأنا برسول الله «صلى الله عليه وآله» مشغول، وبتجهيزه عن سائر الأشياء مصدود، فإنه كان أهمها، وأحق ما بدئ به منها.

فكان هذا يا أخا اليهود أقرح ما ورد على قلبي مع الذي أنا فيه من عظيم الرزية، وفاجع المصيبة، وفقد من لا خلف منه إلا الله تبارك وتعالى.

فصبرت عليها إذا أتت بعد أختها، على تقاربها وسرعة اتصالها.

ثم التفت «عليه السلام» إلى أصحابه فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: وأما الثالثة يا أخا اليهود، فإن القائم بعد النبي «صلى الله عليه وآله» كان يلقاني معتذراً في كل أيامه، ويلوم غيره[١] ما ارتكبه من أخذ حقي، ونقض بيعتي وسألني تحليله.

فكنت أقول: تنقضي أيامه، ثم يرجع إلي حقي الذي جعله الله لي عفواً هنيئاً من غير أن أحدث في الإسلام مع حدوثه وقرب عهده بالجاهلية حدثاً في طلب حقي بمنازعة، لعل فلاناً يقول فيها: نعم، وفلاناً يقول: لا، فيؤول

(١) لعل الصواب إضافة كلمة «على».

ذلك من القول إلى الفعل.

وجماعة من خواص أصحاب محمد «صلى الله عليه وآله» أعرفهم بالنصح لله، ولرسوله، ولكتابه، ودينه الإسلام، يأتوني عوداً وبدءاً، وعلانية وسراً، فيدعوني إلى أخذ حقي، ويبذلون أنفسهم في نصرتي، ليؤدوا إلي بذلك بيعتي في أعناقهم، فأقول: رويداً وصبراً، لعل الله يأتيني بذلك عفواً بلا منازعة، ولا إراقة الدماء، فقد ارتاب كثير من الناس بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله»، وطمع في الأمر بعده من ليس له بأهل، فقال كل قوم: منا أمير.

وما طمع القائلون في ذلك إلا لتناول غيري الأمر.

فلما دنت وفاة القائم، وانقضت أيامه صير الأمر بعده لصاحبه، فكانت هذه أخت أختها، ومحلها مني مثل محلها، وأخذا مني ما جعله الله لي.

فاجتمع إليَّ من أصحاب محمد «صلى الله عليه وآله» ممن مضى وممن بقي، ممن أخره الله من اجتمع، فقالوا لي فيها مثل الذي قالوا في أختها، فلم يَعْدُ قولي الثاني قولي الأول صبراً واحتساباً، ويقيناً وإشفاقاً من أن تفنى عصبة تألفهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» باللين مرة، وبالشدة أخرى، وبالنُّذُرِ مرة، وبالسيف أخرى، حتى لقد كان من تألفه لهم أن كان الناس في الكر والفرار، والشبع والري، واللباس والوطاء والدثار، ونحن أهل بيت محمد «صلى الله عليه وآله» لا سقوف لبيوتنا، ولا أبواب ولا ستور إلا الجرائد، وما أشبهها، ولا وطاء لنا ولا دثار علينا، يتداول الثوب الواحد في الصلاة أكثرنا، ونطوي الليالي والأيام عامتنا، وربما أتانا الشيء مما أفاءه

الله علينا، وصيره لنا خاصة دون غيرنا، ونحن على ما وصفت من حالنا، فيؤثر به رسول الله «صلى الله عليه وآله» أرباب النعم والأموال تألفاً منه لهم.

فكنت أحق من لم يفرق هذه العصبة التي ألفها رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولم يحملها على الخطة التي لا خلاص لها منها دون بلوغها أو فناء آجالها، لأني لو نصبت نفسي فدعوتهم إلى نصرتي كانوا مني وفي أمري على إحدى منزلتين إما متبع مقاتل، وإما مقتول إن لم يتبع الجميع، وإما خاذل يكفر بخذلانه إن قصر في نصرتي أو أمسك عن طاعتي.

وقد علم الله أني منه بمنزلة هارون من موسى، يحل به في مخالفتي، والامساك عن نصرتي ما أحل قوم موسى بأنفسهم في مخالفة هارون وترك طاعته.

ورأيت تجرع الغصص، ورد أنفاس الصعداء، ولزوم الصبر حتى يفتح الله، أو يقضى بما أحب، أزيد لي في حظي، وأرفق بالعصابة التي وصفت أمرهم ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا**﴾(١).

ولو لم أتق هذه الحالة ـ يا أخا اليهود ـ ثم طلبت حقي لكنت أولى ممن طلبه، لعلم من مضى من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ومن بحضرتك منه بأني كنت أكثر عدداً، وأعز عشيرة، وأمنع رجالاً، وأطوع أمراً، وأوضح حجة، وأكثر في هذا الدين مناقب وآثاراً لسوابقي، وقرابتي،

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الأحزاب.

ووراثتي، فضلاً عن استحقاقي ذلك بالوصية التي لا مخرج للعباد منها، والبيعة المتقدمة في أعناقهم ممن تناولها.

وقد قبض محمد «صلى الله عليه وآله» وإن ولاية الأمة في يده وفي بيته، لا في يد الأولى تناولوها، ولا في بيوتهم. ولأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً أولى بالأمر من بعده من غيرهم في جميع الخصال.

ثم التفت «عليه السلام» إلى أصحابه فقال: أليس كذلك؟!

فقالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: وأما الرابعة يا أخا اليهود، فإن القائم بعد صاحبه كان يشاورني في موارد الأمور، فيصدرها عن أمري، ويناظرني في غوامضها فيمضيها عن رأيي، لا أعلم أحداً ولا يعلمه أصحابي يناظره في ذلك غيري، ولا يطمع في الأمر بعده سواي.

فلما (أن) أتته منيته على فجأة بلا مرض كان قبله، ولا أمر كان أمضاه في صحة من بدنه لم أشك أني قد استرجعت حقي في عافية بالمنزلة التي كنت أطلبها، والعاقبة التي كنت ألتمسها، وأن الله سيأتي بذلك على أحسن ما رجوت، وأفضل ما أملت.

وكان من فعله: أن ختم أمره بأن سمى قوماً أنا سادسهم، ولم يستوني بواحد منهم، ولا ذكر لي حالاً في وراثة الرسول، ولا قرابة، ولا صهر، ولا نسب، ولا لواحد منهم مثل سابقة من سوابقي، ولا أثر من آثاري.

وصيرها شورى بيننا، وصير ابنه فيها حاكماً علينا، وأمره أن يضرب أعناق النفر الستة الذين صير الأمر فيهم إن لم ينفذوا أمره.

وكفى بالصبر على هذا ـ يا أخا اليهود ـ صبراً، فمكث القوم أيامهم كلها كل يخطب لنفسه، وأنا ممسك عن أن سألوني عن أمري، فناظرتهم في أيامي وأيامهم، وآثاري وآثارهم، وأوضحت لهم ما لم يجهلوه من وجوه استحقاقي لها دونهم، وذكرتهم عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» إليهم، وتأكيد ما أكده من البيعة لي في أعناقهم، دعاهم حب الإمارة، وبسط الأيدي والألسن في الأمر والنهي، والركون إلى الدنيا، والاقتداء بالماضين قبلهم إلى تناول ما لم يجعل الله لهم.

فإذا خلوت بالواحد ذكرته أيام الله، وحذرته ما هو قادم عليه وصائر إليه، التمس مني شرطاً أن أصيرها له بعدي، فلما لم يجدوا عندي إلا المحجة البيضاء، والحمل على كتاب الله عز وجل ووصية الرسول، وإعطاء كل امرئ منهم ما جعله الله له، ومنعه ما لم يجعل الله له، أزالها عني إلى ابن عفان طمعاً في الشحيح معه فيها.

وابن عفان رجل لم يستوبه (؟) وبواحد ممن حضره حال قط فضلاً عمن دونهم، لا ببدر التي هي سنام فخرهم، ولا غيرها من المآثر التي أكرم الله بها رسوله ومن اختصه معه من أهل بيته «عليه السلام».

ثم لم أعلم القوم أمسوا من يومهم ذلك حتى ظهرت ندامتهم، ونكصوا على أعقابهم، وأحال بعضهم على بعض، كل يلوم نفسه ويلوم أصحابه.

ثم لم تطل الأيام بالمستبد بالأمر ابن عفان حتى أكفروه، وتبرؤوا منه، ومشى إلى أصحابه خاصة، وسائر أصحاب رسول الله «صلى الله عليه

وآله» عامة يستقيلهم من بيعته، ويتوب إلى الله من فلتته.

فكانت هذه ـ يا أخا اليهود ـ أكبر من أختها وأفظع، وأحرى أن لا يصبر عليها، فنالني منها الذي لا يبلغ وصفه، ولا يحد وقته، ولم يكن عندي فيها إلا الصبر على ما أمض وأبلغ منها.

ولقد أتاني الباقون من الستة من يومهم، كل راجع عما كان ركب مني، يسألني خلع ابن عفان، والوثوب عليه، وأخذ حقي. ويؤتيني صفقته وبيعته على الموت تحت رايتي، أو يرد الله عز وجل عليَّ حقي، فوالله ـ يا أخا اليهود ـ ما منعني منها إلا الذي منعني من أختيها قبلها، ورأيت الابقاء على من بقي من الطائفة أبهج لي، وآنس لقلبي من فنائها، وعلمت أني إن حملتها على دعوة الموت ركبته.

فأما نفسي فقد علم من حضر ممن ترى ومن غاب من أصحاب محمد «صلى الله عليه وآله» أن الموت عندي بمنزلة الشربة الباردة في اليوم الشديد الحر من ذي العطش الصدى.

ولقد كنت عاهدت الله عز وجل ورسوله «صلى الله عليه وآله» أنا وعمي حمزة وأخي جعفر، وابن عمي عبيدة على أمر وفينا به لله عز وجل ولرسوله، فتقدمني أصحابي وتخلفت بعدهم لما أراد الله عز وجل، فأنزل الله فينا ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾(١) حمزة وجعفر وعبيدة، وأنا والله

(١) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب.

المنتظر ـ يا أخ اليهود ـ وما بدلت تبديلاً.

وما سكّتني عن ابن عفان، وحثّني على الامساك عنه إلا أني عرفت من أخلاقه فيما اختبرت منه بما لن يدعه حتى يستدعي الأباعد إلى قتله وخلعه، فضلا عن الأقارب وأنا في عزلة.

فصبرت حتى كان ذلك، لم أنطق فيه بحرف من «لا»، ولا «نعم».

ثم أتاني القوم وأنا ـ عَلِمَ الله ـ كاره لمعرفتي بما تطاعموا به من اعتقال الأموال والمرح في الأرض، وعلمهم بأن تلك ليست لهم عندي، وشديد عادة منتزعة، فلما لم يجدوا عندي تعللوا الأعاليل.

ثم التفت «عليه السلام» إلى أصحابه، فقال: أليس كذلك؟!

فقالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: وأما الخامسة يا أخا اليهود فإن المتابعين لي لما لم يطمعوا في تلك مني وثبوا بالمرأة علي، وأنا ولي أمرها، والوصي عليها، فحملوها على الجمل وشدوها على الرحال، وأقبلوا بها تخبط الفيافي، وتقطع البراري، وتنبح عليها كلاب الحوأب، وتظهر لهم علامات الندم في كل ساعة وعند كل حال، في عصبة قد بايعوني ثانية بعد بيعتهم الأولى في حياة النبي «صلى الله عليه وآله»، حتى أتت أهل بلدة قصيرة أيديهم، طويلة لحاهم، قليلة عقولهم، عازبة آراؤهم، وهم جيران بدو، ورواد بحر، فأخرجتهم يخبطون بسيوفهم من غير علم، ويرمون بسهامهم بغير فهم.

فوقفت من أمرهم على اثنتين، كلتاهما في محلة المكروه ممن إن كففت لم يرجع ولم يعقل، وإن أقمت كنت قد صرت إلى التي كرهت.

فقدمت الحجة بالأعذار والانذار، ودعوت المرأة إلى الرجوع إلى بيتها، والقوم الذين حملوها على الوفاء ببيعتهم لي، والترك لنقضهم عهد الله عز وجل فيَّ، وأعطيتهم من نفسي كل الذي قدرت عليه، وناظرت بعضهم فرجع، وذكّرت فذكر.

ثم أقبلت على الناس بمثل ذلك فلم يزدادوا إلا جهلاً، وتمادياً وغياً.

فلما أبوا إلا هي، ركبتها منهم فكانت عليهم الدبرة، وبهم الهزيمة، ولهم الحسرة، وفيهم الفناء والقتل، وحملت نفسي على التي لم أجد منها بداً، ولم يسعني إذ فعلت ذلك وأظهرته آخراً مثل الذي وسعني منه أولاً من الاغضاء والامساك، ورأيتني إن أمسكت كنت معيناً لهم علي بإمساكي على ما صاروا إليه، وطمعوا فيه من تناول الأطراف، وسفك الدماء وقتل الرعية، وتحكيم النساء النواقص العقول والحظوظ على كل حال، كعادة بنى الأصفر ومن مضى من ملوك سبأ والأمم الخالية، فأصير إلى ما كرهت أولاً وآخراً، وقد أهملت المرأة وجندها يفعلون ما وصفت بين الفريقين من الناس، ولم أهجم على الامر إلا بعدما قدمت وأخرت، وتأنيت وراجعت، وأرسلت وسافرت [وشافهت]، وأعذرت، وأنذرت، وأعطيت القوم كل شيء يلتمسوه بعد أن عرضت عليهم كل شيء لم يلتمسوه.

فلما أبوا إلا تلك، أقدمت عليها، فبلغ الله بي وبهم ما أراد، وكان لي عليهم بما كان مني إليهم شهيداً.

ثم التفت «عليه السلام» إلى أصحابه، فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال«عليه السلام»: وأما السادسة يا أخا اليهود فتحكيمهم [الحكمين]، ومحاربة ابن آكلة الأكباد، وهو طليق، معاند لله عز وجل، ولرسوله والمؤمنين منذ بعث الله محمداً إلى أن فتح الله عليه مكة عنوة.

فأخذت بيعته وبيعة أبيه لي معه في ذلك اليوم، وفي ثلاثة مواطن بعده، وأبوه بالأمس أول من سلم علي بإمرة المؤمنين، وجعل يحثني على النهوض في أخذ حقي من الماضين قبلي، ويجدد لي بيعته كلما أتاني.

وأعجب العجب أنه لما رأى ربي تبارك وتعالى قد رد إلي حقي وأقره في معدنه، وانقطع طمعه أن يصير في دين الله رابعاً، وفي أمانة حملناها حاكماً، كر على العاصي بن العاص فاستماله، فمال إليه، ثم أقبل به بعد أن أطعمه مصر، وحرام عليه أن يأخذ من الفيء دون قسمه درهماً، وحرام على الراعي إيصال درهم إليه فوق حقه، فأقبل يخبط البلاد بالظلم ويطأها بالغشم، فمن بايعه أرضاه، ومن خالفه ناواه.

ثم توجه إلي ناكثاً علينا مغيراً في البلاد شرقاً وغرباً، ويميناً وشمالاً، والأنباء تأتيني والأخبار ترد علي بذلك.

فأتاني أعور ثقيف، فأشار علي أن أوليه البلاد التي هو بها لا داريه بما أوليه، منها.

وفي الذي أشار به الرأي في أمر الدنيا لو وجدت عند الله عز وجل في توليته لي مخرجاً، وأصبت لنفسي في ذلك عذراً، فأعملت الرأي في ذلك، وشاورت من أثق بنصيحته لله عز وجل ولرسوله «صلى الله عليه وآله» ولي وللمؤمنين، فكان رأيه في ابن آكلة الأكباد كرأيي، ينهاني عن توليته،

ويحذرني أن أدخل في أمر المسلمين يده، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلين عضداً.

فوجهت إليه أخا بجيلة مرة، وأخا الأشعريين مرة، كلاهما ركن إلى الدنيا وتابع هواه فيما أرضاه.

فلما لم أراه [كذا] يزداد فيما انتهك من محارم الله إلا تماديا شاورت من معي من أصحاب محمد «صلى الله عليه وآله» البدريين والذين ارتضى الله عز وجل أمرهم، ورضي عنهم بعد بيعتهم، وغيرهم من صلحاء المسلمين والتابعين، فكل يوافق رأيه رأيي في غزوه ومحاربته، ومنعه مما نالت يده، وإني نهضت إليه بأصحابي، أنفذ إليه من كل موضع كتبي، وأوجه إليه رسلي، أدعوه إلى الرجوع عما هو فيه، والدخول فيما فيه الناس معي.

فكتب يتحكم علي، ويتمنى علي الأماني، ويشترط علي شروطاً لا يرضاها الله عز وجل ورسوله ولا المسلمون، ويشترط في بعضها: أن أدفع إليه أقواماً من أصحاب محمد «صلى الله عليه وآله» أبراراً، فيهم عمار بن ياسر، وأين مثل عمار؟! والله لقد رأيتنا مع النبي «صلى الله عليه وآله» وما يعد منا خمسة إلا كان سادسهم، ولا أربعة إلا كان خامسهم ـ اشترط دفعهم إليه ـ ليقتلهم ويصلبهم، وانتحل دم عثمان، ولعمرو الله ما ألب على عثمان ولا جمع الناس على قتله إلا هو وأشباهه من أهل بيته أغصان الشجرة الملعونة في القرآن.

فلما لم أجب إلى ما اشترط من ذلك كرَّ مستعلياً في نفسه بطغيانه وبغيه، بحمير لا عقول لهم ولا بصائر، فموه لهم أمراً فاتبعوه، وأعطاهم من الدنيا

ما أمالهم به إليه.

فناجزناهم وحاكمناهم إلى الله عز وجل بعد الاعذار والانذار.

فلما لم يزده ذلك إلا تمادياً وبغياً لقيناه بعادة الله التي عودناه من النصر على أعدائه وعدونا، وراية رسول الله «صلى الله عليه وآله» بأيدينا، لم يزل الله تبارك وتعالى يفل حزب الشيطان بها حتى يقضي الموت عليه، وهو معلم رايات أبيه التي لم أزل أقاتلها مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» في كل المواطن، فلم يجد من الموت منجى إلا الهرب فركب فرسه وقلب رايته، لا يدري كيف يحتال.

فاستعان برأي ابن العاص، فأشار إليه بإظهار المصاحف ورفعها على الاعلام والدعاء إلى ما فيها، وقال: إن ابن أبي طالب وحزبه أهل بصائر ورحمة وبقياً. وقد دعوك إلى كتاب الله أولاً وهم مجيبوك إليه آخراً، فأطاعه فيما أشار به عليه إذ رأى أنه لا منجى له من القتل أو الهرب غيره، فرفع المصاحف يدعو إلى ما فيها بزعمه، فمالت إلى المصاحف قلوب من بقي من أصحابي بعد فناء أخيارهم، وجهدهم في جهاد أعداء الله وأعدائهم على بصائرهم، وظنوا أن ابن آكلة الأكباد له الوفاء بما دعا إليه، فأصغوا إلى دعوته، وأقبلوا بأجمعهم في إجابته، فأعلمتهم أن ذلك منه مكر، ومن ابن العاص معه، وأنهما إلى النكث أقرب منهما إلى الوفاء، فلم يقبلوا قولي ولم يطيعوا أمري، وأبوا إلا إجابته كرهت أم هويت، شئت أو أبيت، حتى أخذ بعضهم يقول لبعض: إن لم يفعل فألحقوه بابن عفان، أو ادفعوه إلى ابن هند برمته.

فجهدت ـ علم الله جهدي ـ ولم أدع علة في نفسي إلا بلغتها في أن يخلوني ورأيي فلم يفعلوا، وراودتهم على الصبر على مقدار فواق الناقة أو ركضة الفرس، فلم يجيبوا ما خلا هذا الشيخ ـ وأومأ بيده إلى الأشتر ـ وعصبة من أهل بيتي.

فوالله ما منعني أن أمضي على بصيرتي إلا مخافة أن يقتل هذان ـ وأومأ بيده إلى الحسن والحسين «عليهما السلام» ـ فينقطع نسل رسول الله «صلى الله عليه وآله» وذريته من أمته، ومخافة أن يقتل هذا وهذا ـ وأومأ بيده إلى عبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية رضي الله عنهما ـ فإني أعلم لولا مكاني لم يقفا ذلك الموقف.

فلذلك صبرت على ما أراد القوم مع ما سبق فيه من علم الله عز وجل.

فلما رفعنا عن القوم سيوفنا تحكموا في الأمور وتخيروا الأحكام والآراء، وتركوا المصاحف وما دعوا إليه من حكم القرآن، وما كنت أحكم في دين الله أحداً إذ كان التحكيم في ذلك الخطأ الذي لا شك فيه ولا امتراء.

فلما أبوا إلا ذلك أردت أن أحكم رجلاً من أهل بيتي، أو رجلاً ممن أرضى رأيه وعقله، وأثق بنصيحته ومودته ودينه.

وأقبلت لا أسمي أحداً إلا امتنع منه ابن هند، ولا أدعوه إلى شيء من الحق إلا أدبر عنه، وأقبل ابن هند يسومنا عسفاً، وما ذاك إلا باتباع أصحابي له على ذلك.

فلما أبوا إلا غلبتي على التحكم تبرأت إلى الله عز وجل منهم، وفوضت ذلك إليهم فقلدوه امرءاً، فخدعه ابن العاص خديعة ظهرت في شرق الأرض وغربها، وأظهر المخدوع عليها ندماً.

ثم أقبل «عليه السلام» على أصحابه، فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام» وأما السابعة يا أخا اليهود، فإن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان عهد إلي أن أقاتل في آخر الزمان من أيامي قوماً من أصحابي يصومون النهار ويقومون الليل، ويتلون الكتاب، يمرقون بخلافهم علي ومحاربتهم إياي من الدين مروق السهم من الرمية، فيهم ذو الثدية. يختم لي بقتلهم بالسعادة.

فلما انصرفت إلى موضعي هذا ـ يعني بعد الحكمين ـ أقبل بعض القوم على بعض باللائمة فيما صاروا إليه من تحكيم الحكمين، فلم يجدوا لأنفسهم من ذلك مخرجاً إلا أن قالوا: كان ينبغي لأميرنا أن لا يبايع من أخطأ، وأن يقضى بحقيقة رأيه على قتل نفسه وقتل من خالفه منا، فقد كفر بمتابعته إيانا وطاعته لنا في الخطأ، وأحل لنا بذلك قتله، وسفك دمه.

فتجمعوا على ذلك، وخرجوا راكبين رؤوسهم ينادون بأعلى أصواتهم: لا حكم إلا لله.

ثم تفرقوا فرقة بالنخيلة، وأخرى بحروراء، وأخرى راكبة رأسها تخبط الأرض شرقاً حتى عبرت دجلة، فلم تمر بمسلم إلا امتحنته، فمن تابعها استحيته، ومن خالفها قتلته.

فخرجت إلى الأولين واحدة بعد أخرى أدعوهم إلى طاعة الله عز وجل والرجوع إليه، فأبيا إلا السيف لا يقنعهما غير ذلك.

فلما أعيت الحيلة فيهما حاكمتهما إلى الله عز وجل، فقتل الله هذه وهذه، وكانوا ـ يا أخا اليهود ـ لولا ما فعلوا لكانوا ركناً قوياً وسداً منيعاً، فأبى الله إلا ما صاروا إليه.

ثم كتبت إلى الفرقة الثالثة، ووجهت رسلي تترى، وكانوا من جلة أصحابي، وأهل التعبد منهم والزهد في الدنيا، فأبت إلا اتباع أختيها، والاحتذاء على مثالهما، وأسرعت في قتل من خالفها من المسلمين، وتتابعت إلي الاخبار بفعلهم.

فخرجت حتى قطعت إليهم دجلة، أوجه السفراء والنصحاء، وأطلب العتبى بجهدي بهذا مرة، وبهذا مرة ـ أومأ بيده إلى الأشتر، والأحنف بن قيس، وسعيد بن قيس الأرحبي والأشعث بن قيس الكندي ـ فلما أبوا إلا تلك ركبتها منهم، فقتلهم الله ـ يا أخا اليهود ـ عن آخرهم، وهم أربعة آلاف أو يزيدون، حتى لم يفلت منهم مخبر.

فاستخرجت ذا الثدية من قتلاهم بحضرة من ترى، له ثدي كثدي المرأة.

ثم التفت «عليه السلام» إلى أصحابه، فقال: أليس كذلك؟!

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال «عليه السلام»: قد وفيت سبعاً وسبعاً يا أخا اليهود، وبقيت الأخرى، وأوشك بها، فكأن قد..

فبكى أصحاب علي «عليه السلام» وبكى رأس اليهود وقالوا: يا أمير

المؤمنين، أخبرنا بالأخرى.

فقال: الأخرى: أن تخضب هذه ـ وأومأ بيده إلى لحيته ـ من هذه ـ أومأ بيده إلى هامته ـ.

قال: وارتفعت أصوات الناس في المسجد الجامع بالضجة والبكاء، حتى لم يبق بالكوفة دار إلا خرج أهلها فزعاً.

وأسلم رأس اليهود على يدي علي «عليه السلام» من ساعته، ولم يزل مقيماً حتى قتل أمير المؤمنين «عليه السلام»، وأخذ ابن ملجم «لعنه الله»، فأقبل رأس اليهود حتى وقف على الحسن «عليه السلام»، والناس حوله، وابن ملجم «لعنه الله» بين يديه، فقال له: يا أبا محمد اقتله قتله الله، فإني رأيت في الكتب التي أنزلت على موسى «عليه السلام»: أن هذا أعظم عند الله عز وجل جرماً من ابن آدم قاتل أخيه، ومن القدار عاقر ناقة ثمود[1].

ونقول:

إننا ندعو القارئ الكريم إلى متابعة الحديث حول هذه الرواية في الفصل التالي..

---

(١) الخصال (مؤسسة النشر الإسلامي سنة ١٤٢٤ هـ ق) ج٢ ص٤٠٠ ـ ٤١٨ و (ط أخرى) ج٢ ص١٤ ـ ٢٥ و (منشورات جماعة المدرسين سنة ١٤٠٣هـ) ص٣٦٤ ـ ٣٨٢ والاختصاص ص١٦٣ ـ ١٨١ وبحار الأنوار ج٣٨ ص١٦٧ ـ ١٨٤ وحلية الأبرار ج٢ ص٣٥٩ ـ ٣٨١ وغاية المرام ج٤ ص٣١٧.

الفصل الثالث:

وقفات مع نصوص الفصل السابق..
ما كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله

بداية:

إن لنا مع نصوص الفصل السابق وقفات كثيرة لا يتبغ لها فصل واحد. لأنه سيكون فصلاً طويلاً ومملاً ومرهقاً للقارئ الكريم، فلا مفر من عقد فصلين، نذكر في أحدهما ما يرتبط بما كان في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله».. ثم نعقبه بفصل آخر نذكر فيه ما يرتبط بما أشار إليه «عليه السلام» من أمور كانت بعد وفاته «صلى الله عليه وآله» إلى الوقت الذي جرى فيه هذا الحوار مع ذلك اليهودي..

فأما بالنسبة لما جرى في عهد الرسول «صلى الله عليه وآله»، فنذكره ضمن ما يلي من عناوين زمطالب، فنقول:

من هو رأس اليهود؟!:

ذكرت الرواية المتقدمة في الفصل السابق: أن رأس اليهود هو الذي سأل الإمام «عليه السلام» وسمع الجواب، وأن رأس اليهود هذا قد أسلم من ساعته، وأنه لم يزل مقيماً حتى قتل أمير المؤمنين «عليه السلام»..

ولكن هذه الرواية لم تذكر لنا اسم رأس اليهود هذا، ولا نسبته إلى بلد بعينه.

كما أن هذا الخبر لم يرو لنا بطرق متعددة، وأسانيد مختلفة، ولم نر اهتماماً بتناقله من قبل الرواة، والمؤرخين، والمؤلفين! فهل جاء ذلك في سياق السعي لطمس آثاره «عليه السلام»، والتعمية على أخباره؟! أم ماذا؟!

نقول هذا، لأننا وجدنا هذا النص في غاية المتانة والدقة في حكايته لما جرى على أمير المؤمنين «عليه السلام»، وما تعرض له من أذى، وإقصاء متعمد..

كما أنه يظهر: أن الخلفاء الذين سبقوه قد كان لهم السبب الأوفر في إلحاق كثير من الأذى به، وما ناله من حيف.. وأنه إنما صبر على ذلك رغم شدة مرارته، لأنه يريد حفظ الدين، والسلامة للمسلمين..

ولعل هذه الصورة الدقيقة هي التي كره الرواة والمؤرخون إظهارها.. ولا نريد أن نقول أكثر من هذا.

والحر تكفيه الإشارة..

الهداية الإلهية، ضوابط ومعايير:

ولا بأس بملاحظة ما يلي:

١ ـ عرفنا في بعض الفصول السابقة: أن هناك أموراً وحقائق كانت معروفة لدى أهل الأديان على اختلافهم، ومنها: أن لكل نبي وصياً، وأن لدى الأوصياء علوماً خاصة، وحقائق ودقائق، ولطائف ومعارف، ليست لدى سائر الناس، ولا لسائر الناس سبيل إليها، لأنها لا تعرف إلا بالتوقيف والتعريف والبيان الإلهي لهم، إما من خلال الأنبياء، أو بطرق أخرى هيأها لهم، وحباهم الله تعالى بها..

وهذه المعارف الخاصة هي من وسائل وصولنا إليهم، والتعرف على إمامتهم.

وقد كان أهل الكتاب يفدون إلى النبي «صلى الله عليه وآله» والأئمة «عليهم السلام» لطرح أسئلتهم الامتحانية، التي كانوا يعرفون الأنبياء والأوصياء من خلالها، فإذا ظهر لهم من أجوبته: أن عنده علم الكتاب، لم يجدوا بداً من التسليم له، والقبول به، وقد قال تعالى: ﴿**قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾[1]. ودلالة علومهم عليهم كان هو العلامة الفارقة للأئمة الشيعة عبر التاريخ، وحين سئل الخليل بن أحمد عن علي «عليه السلام» قال: «حاجة الكل إليه واستغناؤه عن الكل، دليل على أنه إمام الكل».

ولأجل ذلك نرى: أن رأس اليهود يريد هنا أن يعرف خصوصية الإمامة والوصية في علي «عليه السلام» من خلال أسئلته، وأجوبتها التي يتلقاها منه..

ولتكن هذه السنَّة هي الوسيلة الهادية لهم إلى الحق، والصدق، مضافة إلى وسائل كثيرة أخرى هيأها الله تعالى لعباده رأفة بهم، ورحمة لهم، وامتناناً وتفضلاً عليهم.

٢ ـ إن رأس اليهود يذكر لنا: أن كتبهم هي التي حددت لهم قواعد وضوابط وآليات تمكنهم من معرفة الإمام. وأن معرفة الإمام تكون لمن لم

(١) الآية ٤٣ من سورة الرعد.

يدرك النبي ولم يره طريقاً يوصلهم إلى معرفة النبوة، ووسيلة من وسائل إثباتها لهم أيضاً..

٣ ـ تضمن كلام ذلك اليهودي مواصفات وخصوصيات يتميز بها ذلك الوصي، وهي أنه من أهل بيت النبي المبعوث إلى تلك الأمة التي هو فيها.

والكلام في الرواية قد جاء على سبيل ضرب القاعدة، وعاماً لجميع الأنبياء، حيث قال رأس اليهود: «إنّا نجد في الكتاب: أن الله عز وجل إذا بعث نبياً أوحى إليه أن يتخذ من أهل بيته من يقوم بأمر أمته..»(١).

وهذه الخصوصية لا يرضاها من يصرون على نفي الوصاية لعلي، بل قد جرهم ذلك إلى نفي أصل الوصية من النبي «صلى الله عليه وآله» مع أنه هو القائل: «من مات بغير وصية مات ميتة جاهلية»(٢).

---

(١) ولأجل ذلك، ذكر بعض الأخوة: أن هذا هو السبب في إصرار بعضهم على تزويج ابنته من رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وذلك من أجل أن يصبح معدوداً، ولو بهذا المقدار من أهل بين رسول الله «صلى الله عليه وآله».

(٢) راجع: المقنعة للشيخ المفيد ص٦٦٦ والرسائل العشر للطوسي ص٣١٧ والنهاية للطوسي ص٦٠٤ وغنية النزوع ص٣٠٥ والسرائر ج٣ ص١٨٢وروضة الواعظين ص٤٨٢ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٩ ص٢٥٩ و (الإسلامية) ج١٣ ص٣٥٢ ومكارم الأخلاق ص٣٦٢ ومناقب آل أبي طالب ج٢ ص٢٤٦ ومشكاة الأنوار للطبرسي ص٥٨٥ وتفسير مجمع البيان للطبرسي ج١ ص٤٩٤

وقد رضوا بما جرى له «عليه السلام» من غصب الخلافة منه بعد الرسول «صلى الله عليه وآله»، ولم يرضوا حتى بالسؤال عن مبررات غصب فدك، والاستيلاء على ما تركه الرسول «صلى الله عليه وآله» وورثوها لمن شاؤوا من نسائه.. إلى غير ذلك من أحداث جرت في سياق العدوان على أهل البيت «عليهم السلام»، وحرمانهم من حقوقهم. والتحامل عليهم، ونصرة مناوئيهم، وتقويتهم عليهم.

٤ ـ وذكر أيضاً خصوصية أخرى، وهي: أنه قد يكون للنبي أوصياء متعددون.

٥ ـ وذكر أيضاً: أن الأمر لا يقتصر على مجرد جعل وصي، بل أضاف إلى ذلك أن النبي يعهد إلى أوصيائه عهداً، يحتذى عليه، ويعمل به في أمته من بعده.

وهذه الخصوصية لا يدّعيها غاصبوا الخلافة من علي «عليه السلام» لأنفسهم.

٦ ـ وخصوصية أخرى تكون للأوصياء، وهي: أن الله تعالى يمتحنهم في حياة الأنبياء ويمتحنهم أيضاً بعد وفاة أولئك الأنبياء.

٧ ـ وبيَّن أن هذا الإمتحان محصور بعدد معين من المرات في حياة الأنبياء وعدد معين أيضاً بعد وفاتهم أيضاً..

٨ ـ كما أن للأوصياء نهاية ذات خصوصية محددة ومعروفة، وهي أنهم يموتون قتلاً..

٩ ـ إنه «عليه السلام» قد ذكر أن امتحان الأوصياء في هذه المواطن

ونهج الإيمان ص٢٠٨ والمجموع للنووي ج١٥ ص٣٩٩.

السبعة في حياة الأنبياء إنما هو ليبلو صبرهم. فهو امتحان بلاء، لإظهار ملكاتهم وقدراتهم التي تؤهلهم للمقام الذي يريد أن يمنحهم إياه. وليؤكد قناعة الناس بهذه الحقيقة من خلال الوقائع رفقاً منه بهم.

١٠ ـ ثم إن قوله «عليه السلام»: «فإذا رضي طاعتهم ومحبتهم أمر الأنبياء أن يتخذوهم أولياء في حياتهم وأوصياء بعد وفاتهم» قد دل على أن المطلوب هو النجاح في الامتحان الذي يتجلى بنيل رضا الله تعالى بطاعتهم ومحبتهم.

١١ ـ وقد دلت الفقرة الأخيرة على ما هو المطلوب تحقيقه بذلك الامتحان، وأنه هو كمال الطاعة، وأقصى غايات المحبة لديهم.

وهذه هي حقيقة العلاقة بين الله تعالى وبين خلقه، فإنها علاقة ألوهية، وعبودية خالصة لا شرك ولا شريك فيها، ومحبة خالصة ليس فيها وهن ولا ضعف ولا حب لغير الله تعالى.

١٢ ـ أما امتحانهم «عليهم السلام» بعد وفاة الأنبياء، «صلوات الله عليهم»، فهو لطف منه تعالى بالأوصياء أنفسهم، وتفضل عليهم، وإظهار أهليتهم من خلال عملهم وجهادهم وجهدهم لتلقي ألطافه تعالى، ونعمه في الآخرة.

وهذا ما دل عليه قوله «عليه السلام»: «ثم يمتحن الأوصياء بعد وفاة الأنبياء «عليهم السلام»، ليبلو صبرهم، فإذا رضي محنتهم ختم لهم بالسعادة.

هل قلب اليهودي أكثر احتمالاً؟!:

ولقد لفت نظرنا طلب أمير المؤمنين أمام كبار وخيار أصحابه الخلوة بذلك اليهودي، ليخبره بما امتحن به في حياة النبي «صلى الله عليه وآله» وبعد وفاته، مصرحاً: بأن قلوب أصحابه لا تحتمل ما يريد أن يخبر به اليهودي..

فيرد هنا سؤال:

كيف صار قلب اليهودي قادراً على احتمال ذلك، ولم تكن قلوب أصحابه «عليه السلام» قادرة على الإحتمال؟! وفيهم الخيار والكبار، وموضع الأسرار؟!

ونجيب:

بأن المطلوب بهذه الحركة هو تعريف الناس، بأن من كانوا معه «عليه السلام» لم يكونوا كلهم في مستوى واحد، في وعيهم وصبرهم وتحملهم، بل قد يكون بعضهم معه ممن يبحث عن حطام الدنيا، وزخرفها. أو من ضعفاء النفوس، الذين لا يضعون الأمور في مواضعها، فيحدث إخبارهم بهذه الأمور صدمة قوية لهم في مسلمات عندهم كانوا قد بنوا عليها كل مواقفهم، وأعطوها كل جهدهم، وسيظهر لهم أنها سراب في سراب، وباطل بلا شبهة ولا ارتياب..

كما أن تعرية أناس كانوا وما زالوا يحسنون الظن بهم، ويوالونهم ويحبونهم، بل ويعظمونهم إلى حد التقديس، قد يسوق بعضهم إلى تكذيب علي «عليه السلام» في بياناته لتلك الحقائق، والانقلاب عليها وعليه،

ويجلبون البوار والدمار لأنفسهم ولغيرهم..

والتعريف بهذه الحقيقة، وكشف حال أصحابه هذا كان لازماً وضرورياً: صيانةً للحق، وحفظاً له من الشبهات والأباطيل التي يلقيها أهلها، للتضليل، ولتعمية الحقائق على الناس، ولا بد أن تترك سلبيات كبيرة وخطيرة على الأجيال الآتية بعده..

وقد ظهر بما قلناه: أنه «عليه السلام» لا يريد بكلامه هذا أمثال عمار، والأشتر.

كما دل عليه: تعليله «عليه السلام» بقوله: «لأمور بدت لي في كثير فيكم»، ثم رضاه «عليه السلام» بأن يخبرهم جميعاً بتلك الأمور. وصرفه النظر عن الخلوة باليهودي.

ولعله «عليه السلام» قد اعتبر نفس بلاغه هذا كافياً لتحصين الضعفاء من الوقوع فيما خاف «عليه السلام» أن يقعوا فيه.

ثلاث سنوات لم يُسْلِم إلا علي وخديجة عليهما السلام:

وقد ذكرت الرواية قوله «عليه السلام»: إنه لم يسلم أحد غيره وغير خديجة مدة ثلاث سنوات..

فقد يقال: إن هذا يخالف ما ورد في إسلام جعفر بن أبي طالب، وغيره من الذين أسلموا في بداية البعثة. بل قالوا: إنه «صلى الله عليه وآله» قد خرج من دار الأرقم بعد ثلاث سنوات من بعثته، وقد تم عدد المسلمين

أربعين رجلاً[١].

فكيف يمكن تفسير ذلك؟!.

ونجيب:

بأن النصوص تصرح بإعلان إسلام علي «عليه السلام» وخديجة في أول البعثة، ولم نجد في النصوص التي راجعناها ما يدل على أن أحداً، جعفراً أو غيره قد أسلم في بداية البعثة، وفي الأيام الأولى منها، سوى ما ذكروه عن إسلام أبي بكر، وقد قلنا في كتابنا: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»: إنه لا يصح أنه قد أسلم بعد عدة سنوات، وقد ذكر الطبري: أنه أسلم بعد أكثر من خمسين[٢]، بل لعله أسلم بعد عدة

---

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٢ ص٣١٩ والسيرة الحلبية ج١ ص٢٨٥ و (ط دار المعرفة) ج٢ ص٢١ والمستدرك للحاكم ج٣ ص٥٠٤ ومجمع الزوائد ج٤ ص٥ والمعجم الكبير للطبراني ج١ ص٣٠٦ و والإصابة ج١ ص٢٨ و (ط دار الكتب العلمية) ج١ ص١٩٧ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص٩٩ والاستيعاب (بهامش الإصابة) ج١ ص١٠٨ و (ط دار الجيل) ج١ ص١٣٢ وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج١٣ ص٢٦٩ و ٢٧٠ وإمتاع الأسماع ج٩ ص٩١.

(٢) راجع: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله» ج٢ ص٣٢٧ فما بعدها، وراجع: تاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٢ ص٦٠ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٣ ص٣٩ و السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٤٣٦ وراجع: الغدير ج٣ ص٢٤٠ و ٢٣٤ وج٧ ص٩٣ والإمام

سنوات من البعثة.

إذن.. فلا شيء يمنع من أن يكون «صلى الله عليه وآله» قد بقي ثلاث سنوات يصلي هو وعلي وخديجة فقط.

واحتمل بعض الأخوة أن يكون جعفر على دين عبد المطلب، ولكنه لم يظهر إقراره بنبوة النبي محمد «صلى الله عليه وآله» حتى قال له أبوه، أبو طالب: «صل جناح ابن عمك»، أي لم يعلن، ولم يظهر ذلك حتى للنبي «صلى الله عليه وآله»، ولا لعلي «عليه السلام». ويكون قول ابي طالب له: «صل جناح ابن عمك» قرينة على علمه بما يبطن جعفر «عليه السلام»، والكلام في من علم أو أظهر إسلامه للنبي «صلى الله عليه وآله»، وصلى معه ولم يكن كذلك إلا علي وخديجة «عليهما السلام».

ولعلك تقول:

ألم يكن أبو طالب مسلماً أيضاً، فلماذا لم يشر إليه بشيء أيضاً.. بل جاء كلامه نافياً لإسلامه حيث قال: «ما على وجه الأرض خلق يصلي أو يشهد لرسول الله «صلى الله عليه وآله» بما آتاه الله غيري وغير ابنة خويلد»؟!

ويمكن أن يجاب:

بأن أبا طالب كان يكتم إسلامه، مثل مؤمن آل فرعون، وهي حالة

علي بن أبي طالب للهمداني ص٥٤٤ والإكمال في أسماء الرجال للتبريزي ص٢٠ والإفصاح للشيخ المفيد ص٢٣٢ وكنز الفوائد ص١٢٤ ومناقب آل أبي طالب ج١ ص٢٨٩ وبحار الأنوار ج٣٨ ص٢٢٨.

انفرد بها «عليه السلام».

وعلي «عليه السلام» إنما يتحدث عن الذين أعلنوا بإسلامهم، وبصلاتهم أمام الناس..

إبليس على صورة المغيرة بن شعبة:

وتقول الرواية المتقدمة: إن إبليس قد تمثل في دار الندوة بصورة أعور ثقيف، وهو المغيرة بن شعبة..

وقد جاء هذا على خلاف ما ورد في بعض الروايات، من أن إبليس قد تمثل للمتآمرين بصورة شيخ نجدي[1].وأنه إنما يتمثل لهم بصورة المغيرة في

---

(١) راجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٢٢٧ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٦٨ و (ط مؤسسة الأعلمي) ج٢ ص٩٨ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٠٢ والبداية والنهاية ج٣ ص١٧٥ و (ط دار إحياء التراث العربي) ج٣ ص٢١٥ وتاريخ الخميس ج١ ص٣٢١ و ٣٢٢ ومطالب السؤول ص١٩٢ والثقات لابن حبان ج١ ص١١٣ وجواهر المطالب لابن الدمشقي ج١ ص٢١٥ وسبل الهدى والرشاد ج٣ ص٢٣٤ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج١ ص٢٣٧ وج٢ ص١٩٠ وبحار الأنوار ج١٩ ص٣١ و ٤٨ و ٥٦ و ٢٣٨ وج٢٩ ص٢٩٥ وج٦٠ ص١٥٩ و ٢٣٣ والمصنف للصنعاني ج٥ ص٣٨٩ و ٣٩٠ وتخريج الأحاديث والآثار ج٢ ص٢٥ و ٢٦ وتفسير نور الثقلين ج٢ ص١٤٥ و ١٤٨ وتفسير الميزان ج٩ ص٧٨ و ١٠٨ و تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٣١٥

يوم وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله»(١).

ولنا أن نحتمل هنا: أن يكون الرواة الذين كانوا من أنصار السلطة قد تحاشوا ذكر اسم المغيرة، لأنه كان من أركانها، وأعوانها. فذكروا وصفاً من شأنه أن يبعد الشبهة عنه، ولكن علياً «عليه السلام» لم يكن بصدد محاباة أحد. ولا سيما إذا كان من أمثال المغيرة.

وقد علق بعض الأخوة هنا بقوله: لهذا التشبيه دلالات، فهو يعبر عن حب المتشبه للمتشبه به، والشيطان لا يحب أحداً لأجل فضائل ومكرمات، كالتقى، والورع، والسخاء، وسائر الصفات التي يحبها الله ورسوله «صلى الله عليه وآله»، ولو كان كذلك لم يخرج من الجنة، ولم يستحق اللعن، وليس صدفة أن يلتقي حب الشيطان للمغيرة مع حب بعض الصحابة له. وليس صدفة اتفاقهم على بغض آل بيت النبي «صلى الله عليه وآله». ومن دلالاته

وتفسير جوامع الجامع ج٢ ص٢٠ وتفسير القمي ج١ ص٢٧٣ والتسهيل لعلوم التنزيل ج٢ ص٦٤ وتفسير البحر المحيط ج٤ ص٤٨١ والمحرر الوجيز في ج٢ ص٥١٩ وتأويل مختلف الحديث ص١١٧ والجوهرة في نسب الإمام علي وآله ص١١ والإرشاد للمفيد ج١ ص٣٥٠ ومناقب آل أبي طالب ج١ ص١٥٨ والأمالي للطوسي ص١٧٧.

(١) راجع: مجالس ابن الشيخ ص١١١ و ١١٢ وبحار الأنوار ج٦٠ ص٢٣٣ وج٢٨ ص٢٠٥ والأمالي للطوسي ص١٧٧ وتفسير الميزان ج٩ ص١٠٨ وقاموس الرجال للتستري ج١٠ ص١٩٦ وبيت الأحزان ص٦٣.

المشاكلة والمشابهة كما يقال: كل شكل إلى شكله يألف حتى الطيور على أشكالها تقع.

لا يبارز ولا يهاجم إلا بأمر الرسول:

وقد كانت الطريقة المتبعة في الحروب هي إما مبارزة الأقران، أو الهجوم الشامل. والقيادة هي التي تحدد أسلوب القتال، وقد تتدخل في تحديد المبارزين، وفق ما تفرضه الحاجة.

وقد أظهر النص المتقدم في الفصل السابق: أن علياً «عليه السلام» لم يكن يقدم ولا يحجم في الحرب إلا بإذن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأمره، فهو لم يبارز ابني ربيعة، وابن عتبة إلا بعد أن أنهضه الرسول «صلى الله عليه وآله»، ولم ينهضه إلا بعد أن لم يبرز إليهم خلق من قريش، وهم أصحاب الدعاوى العريضة، والطموحات الواسعة والكبيرة، التي لا مبرر لها. الذين كانوا يقترحون على الرسول «صلى الله عليه وآله» ما لا مصلحة فيه، أو ما لا مبرر له، فيطلبون منه حتى قتل بعض الناس حين يأمنون من قدرته على الانتقام منهم، رغم نهي الله لهم في صريح كتابه بقوله تعالى: ﴿**لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ**﴾(١). وكانوا يتجرؤون على رسول الله «صلى الله عليه وآله» ويؤذونه في نفسه، وفي أهل بيته، وفي أصحابه.

وفي حرب الخندق كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» هو الذي

---

(١) الآية ١ من سورة الحجرات.

أنهض علياً «عليه السلام» إلى عمرو بعد أن صمت الجميع جبناً كأن على رؤوسهم الطير، وأحجموا. وبعد أن ضمن الجنة لكل من يبرز لعمرو أظهروا الزهد في الجنة غير علي «عليه السلام».. وذلك لا يمنع أن يكون «عليه السلام» هو الذي أعلن استعداده لملاقاته..

وفي خيبر أيضاً كان «صلى الله عليه وآله» هو الذي أنهض علياً «عليه السلام» إليهم. بعد أن رجعوا خائبين متخاذلين يجبِّن بعضهم بعضاً..

وحين أرسل علياً «عليه السلام» لتبليغ سورة براءة إلى أهل مكة إنما أنهضه بعد تثاقل جميع أصحابه «صلى الله عليه وآله» عن المضي بها..

وقد أنجز جميع المهمات التي أوكلها إليه على أحسن وجه وأتمه، وظهر بذلك فضل علي «عليه السلام» على سائر الصحابة..

وعلم القاصي والداني: أنه «صلى الله عليه وآله» كان قد أعده للملمات والمهمات الكبرى، وهذا مطابق لما قالته الزهراء «عليها السلام»: «وبعد أن مني ببهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ**﴾[1] أو نجم قرن للشيطان، وفغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، ومجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيد أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجداً كادحاً.

وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون، فاكهون، آمنون. تتربصون بنا

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة.

الدوائر، وتتوكفون الأخبار، تنكصون عند النزال، وتفرون عند القتال»[١].

علي عليه السلام لا ينسب قتل الأقران إلى نفسه:

وملاحظة النص المتقدم في الفصل السابق تعطي: أنه «عليه السلام» لم ينسب قتل أولئك الأقران إلى نفسه. بل يقول: «فقتل الله عز وجل بيدي وليداً وشيبة».

وفي حرب أحد لا ينسب هزيمة المشركين إلى نفسه، بل إلى الله أيضاً، فيقول: «ثم ضرب الله عز وجل وجوه المشركين».

وفي حرب الخندق يقول «عليه السلام»: عن عمرو بن عبدود: «فقتله الله عز وجل بيدي».

إلى أن قال أيضاً: «فهزم الله قريشاً والعرب بذلك».

ولكنه في حرب خيبر ينسب ما جرى إلى نفسه، ويؤكد على أنه فعل ذلك كله وحده، ثم يذكر: أن الله تعالى أعانه على ذلك، فيقول: «فلم يبرز إلي أحد منهم إلا قتلته، ولا يثبت لي فارس إلا طحنته. ثم شددت عليهم شدة الليث على فريسته حتى أدخلتهم جوف مدينتهم وحدي، أقتل من يظهر فيها من رجالها، وأسبي من أجد من نسائها، حتى أفتتحها وحدي.

---

(١) بحار الأنوار (ط دار التراث العربي سنة ١٤٢٩ هـ ق) ج٢٩ ص٧٤ و ٧٥ و ٧٩ و (ط دار الرضا) و ٢٢٥ والاحتجاج ج١ ص٢٦٢ و ٢٦٣ و (ط دار النعمان) ج١ ص١٣٦ وبلاغات النساء ص١٤ـ٢٠ واللمعة البيضاء للتبريزي ص٦٢٢.

ولم يكن لي فيها معاون إلا الله وحده..».

ولعل سبب ذلك: أنه لا يريد أن يفسح المجال لإثارة الشبهات حول أمر ظهرت فيه دلائل إمامته، وتجلى فيه فشل الذين ناوؤه، واغتصبوا منه الخلافة بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإنه لا يحق له أن يفرط في هذه الدلائل، ولو بإفساح المجال لإثارة الشبهات حولها، لأنها ملك للأمة كلها، وباب هداية وتوفيق لها..

وقد ظهر من كلامه «عليه السلام» أيضاً: أن الخيبريين قد قتلوا جماعة من المسلمين، قبل أن يبرز إليهم علي «عليه السلام».

وأن الناس قد توسلوا به «عليهم السلام» ليبرز إليهم ويكفيهم أمرهم قبل إنهاض النبي «صلى الله عليه وآله» له. وذلك يدل على أنه «عليه السلام» قد أصبح هو الأمل والملاذ للناس في كل شدة وكرب.

قريش تريد قتل النبي صلى الله عليه وآله، وبني عبد المطلب:

وقد صرحت الرواية: بأن هدف قريش في وقعة الخندق كان قتل رسول الله «صلى الله عليه وآله» وبني عبد المطلب، وقد تعاونت وتعاقدت على ذلك.

وذلك يدل: على أن قريشاً كانت تدرك أن موقع المدينة على طريق قوافلها إلى الشام لا يسمح لها بالنكاية في أهلها، ولا تستطيع أن تمعن في الانتقام منهم. ولكنها إذا استطاعت أن تقضي على بني عبد المطلب، وتهدم عزهم بقتل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإنها تكون قد حققت غاية ما تتمناه. وبلغت في انتقامها إلى منتهاه.

ولأجل ذلك، فإن المتوقع هو: أن تستنفر كل قواها، وتبذل غاية جهدها للتخلص ممن وترها بأعز رجالها، وأذل عزيزها، ومرغ أنوفها بتراب الذل والخزي والعار، وسيكون فرسانها أحرص الناس على تحقيق أغلى أمانيهم، وهو قتله «عليه السلام».

كما أن هذا التعاقد والتعاهد يسهل علينا فهم مواقف قريش الغادرة والمتآمرة عليه بعد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وحرصها على إبعاد أمر الخلافة عنه، وإيصال أكبر الأذى إليه..

وهو أيضاً لا يبقي أية شبهة في دقة وصحة ما قرره «عليه السلام» من أن مناشداته «صلى الله عليه وآله» بالقرابة والرحم كانت تزيدها عتواً.

ولنا بعد ذلك كله: أن نفهم أن هذه المناشدات كانت لتعريف الناس بمدى بغيها وطغيانها.. وأن هذا البغي قد منعها من الإستجابة حتى لنداءات العاطفة، وما تقتضيه الفطرة، وأقرت به كل الأعراف التي كانت تهيمن على المواقف والقرارات، وتؤثر في الاندفاع تارة، والإنكفاء أخرى، وفق الحالات، وانسجاماً مع المقتضيات.

أين كان نساء أهل المدينة؟!:

وقد لفت نظرنا قوله «عليه السلام» عن عمرو بن عبدود «خرجت إليه ونساء أهل المدينة بواك إشفاقاً علي».

فإنه يرد هنا سؤال:

أين كان نساء أهل المدينة من هذه الحرب، وهل حضروا حقاً ذلك المشهد المثير، ورأوا ما كان يجري في ساحة الحرب؟!

ويمكن أن يجاب بالإيجاب، فإن الخندق كان حول المدينة، وكان جيش المسلمين عند الخندق، وكان كثير من النساء يترددن إلى منطقة القتال. ويلتقين بأبنائهن وأزواجهن. وإن كانت طائفة منهن قد بقين في بعض آطام المدينة، ولعل شطراً منهن قد بقين في بيوتهن، لأن النبي «صلى الله عليه وآله» كان قد أوكل مهمة حراسة المدينة إلى سرية خاصة كانت تتجول في أنحائها..

الطاعة والصبر:

وذكر «عليه السلام»: أن من سمات الأوصياء الطاعة والمحبة للنبي «صلى الله عليه وآله» في حياته، والصبر على المكاره بعد وفاته..

والجمع بين الطاعة والحب للنبي «صلى الله عليه وآله» في حياته ظاهر الوجه، فإن الحب هو الحافز للطاعة وليس الرهبة والخوف، لأن الخوف يدل على أن الطاعة ليست للآمر، وإنما هي لعصاه، فإذا فقدها، أو ضعف عن تحريكها واستعمالها، فلا تبقى هناك طاعة، بل قد تتحول إلى تمرد، وقسوة وارتداد على ذلك الآمر لتصفية الحسابات معه، ورد الصاع صاعين..

أما إذا كان الحافز هو الحب، فإن الطاعة تدوم، ولعلها تصبح بعد الوفاة أقوى مما كانت عليه في حال الحياة، حيث يضيف الأسى وألم الفراق، والتوهج العاطفي والحنين حافزاً آخر، يزيد من الإندفاع نحو حفظ الغايات، وصيانة الأهداف..

وربما احتاج ذلك كله إلى المزيد من الجهد، وتحمل المصاعب، والصبر

على النوائب.

الرسول صلى الله عليه وآله عال النفس والأهل والولد:

وقد قرر «عليه السلام»: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» هو الذي عال علياً «عليه السلام» في نفسه، وأهله وولده..

فقد يحلو لمتحذلق أن يقول: إذا كان علي «عليه السلام» رجلاً كاملاً، وقادراً على السعي لتحصيل لقمة العيش، فما باله يعلن عن نفسه أنه كان إتكالياً في معيشته، ومعيشة أهله، وولده؟!

ونجيب:

بأن نظرته «عليه السلام» في موضوع الرزق هي نفس نظرة القرآن. فهو يرى: أن غناه وغنى أهله، وولده، إنما هو من الله ورسوله، فقد حكى الله تعالى لنا عن نظرة المنافقين للمؤمنين، فقال: ﴿**وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾(1).

وقال تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ**﴾(2).

---

(1) الآية ٧٤ من سورة التوبة.

(2) الآيتان ٥٨ و ٥٩ من سورة التوبة.

توازن الإنسان الكامل:

وقد وصف «عليه السلام» حزنه وبكاءه على رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعد وفاته.. مضمناً كلامه بما دل على أن هذا الحزن إنما هو لاندماجه التام فيه، وأنسه به، ومحبته له، واعتماده عليه، وما خصه «صلى الله عليه وآله» به من فواضل، وحباه به من كرم ونائل، فقد رباه صغيراً، وبوأه كبيراً، وكفاه العيلة وجبره من اليتم، وأغناه عن الطلب. وأسهم في صنع مزاياه الإنسانية، وأكرمه بمقامات، وكرامات، ودرجات قادته إلى معالي الحق..

فحقيق أن ينزل به من الأسى والحزن ما لا تنهض به الجبال.

ثم ذكر ما حل بأهل بيته من الحزن على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأنه أذهل عقولهم، وأذهب بصرهم، وأفقدهم القدرة على التصرف، والتعقل للأمور، فضلاً عن أن يتصدى لمعالجتها..

أما سائر الناس، من غير بني عبد المطلب، فلم يكن لديهم من الحزن ما يحسن السكوت عليه. وهم على قسمين:

١ ـ قسم منهم يكتفون بتعزية بني عبد المطلب، ويأمرونهم بالصبر والتحمل..

٢ ـ وقسم آخر يحزن لحزن بني عبد المطلب، ويبكي لبكائهم، وليس أكثر من ذلك.

أما أمير المؤمنين الذي كان أعظم الناس حزناً وألماً، وأسىً وجزعاً، فكان الرجل الكامل والمسؤول، الذي لا يمنعه حزنه مهما عظم من أن يقوم

بواجبه الذي يريده الله منه، فإنه يحمل أعظم المسؤوليات وأخطرها.. ويتوجب عليه أن يعالج القضايا بحكمة وروية وتعقل، ولا يشغله عن ذلك بادر دمعة، ولا هائج زفرة، ولا لاذع حرقة، ولا جزيل مصيبة، على حد تعبيره «صلوات الله وسلامه عليه».

وهذه هي ميزة علي «عليه السلام» عن أهل بيته، في حزنه وفي صبره، وفي قيامه بالواجب لله عز وجل ولرسوله..

وحزن وجزع أهل بيته وبنو عبد المطلب الذي أذهب عقولهم كان هو الذي ميزهم عن سائر الناس.. لأن الناس كانوا بين آمر بالصبر، وباكٍ لبكاء بني عبد المطلب ولا يزيدون على ذلك..

وفي هذا دلالة أخرى على أنه «عليه السلام» هو الوصي والإمام بعد الرسول «صلى الله عليه وآله». وذلك لأجل هذه الميزة التي حباه الله تعالى بها..

علي عليه السلام كان يعلم:

ورد في النص المذكور في الفصل السابق: أنه لم يكن يختلج في نفس علي «عليه السلام» منازعة أحد من الخلق له «عليه السلام» في شيء من الأمر، لا في حياة النبي «صلى الله عليه وآله»، ولا بعد وفاته..

وذكر أيضاً: أن أبا بكر كان يلقاه طيلة أيامه يعتذر له عما جرى، فكان «عليه السلام» يقول: إن حقه سيرجع إليه بعد انقضاء أيامه.

وفي عهد عمر أيضاً لم يكن يشك في أنه إذا انقضت أيامه استرجع حقه.

فهنا تطرح الأسئلة الثلاثة التالية:

الأول: إن النبي «صلى الله عليه وآله» كان قد أخبر علياً «عليه السلام» بما يتعرض له من الأذى، وظهور الأحقاد عليه بعد وفاته «صلى الله عليه وآله». وأوصاه بالصبر وعدم المواجهة. فكيف يقول هنا: إنه لم يكن يشك بصرف الأمر عنه؟!

الثاني: إن دلائل نكثهم للعهد وتمردهم على أوامر النبي «صلى الله عليه وآله» قد ظهرت في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولا سيما في حال مرضه، فيما عرف برزية يوم الخميس، حيث امتنعوا من تقديم الكتف والدواة له ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً، حتى قال قائلهم: إن الرجل ليهجر، أو نحو ذلك..

ثم ظهر ذلك في تصدي أبي بكر للصلاة بالناس، وعزل النبي «صلى الله عليه وآله» له عنها..

ثم في التخلف عن جيش أسامة، مع لعن النبي «صلى الله عليه وآله» للمتخلفين.

الثالث: لنفترض أنه «عليه السلام» لم يشك في هذا الأمر في حياة الرسول، وبعد وفاته.. فلماذا لم يشك فيه بعد ذلك، فإن تطمينات أبي بكر له لا توجب الطمأنينة له؟! لأن الأمور لم تكن مرهونة بإرادة أبي بكر وحده، لأن للآخرين رأيهم وموقفهم أيضاً.

كما أنه «عليه السلام» كان يعرف خططهم وأطماعهم بهذا الأمر، وقد قال هو نفسه حين واجه عمر: بأنه إنما عقدها لأبي بكر ليردها له عند وفاته..

ولنفترض أيضاً: أن تطمينات أبي بكر قد أقنعته، ولم تكن لأجل حمله على تخفيف ذكر حقه المغتصب، ويكف عن إحراجهم بالدلائل والحجج والشواهد على مظلوميته، وعلى قبح ما أوتي إليه، وشناعة ما جنوه عليه، ولكن لماذا اطمأن إلى أن الأمر سيكون له بعد عمر، ولم يَدُرْ في خلده أن يرد عمر جميل عثمان لعثمان، فإنه هو الذي كتب اسمه في وصية أبي بكر عندما أغمي على أبي بكر..

ويمكن أن يجاب: بأن علينا ملاحظة ما يلي:

١ ـ أن الإمام «عليه السلام» يريد أن يقول: إن من ينظر إلى الأمور لا محالة سيفهمها على هذا النحو، فإنه حين يرى أن أبا بكر يعتذر ويتملص، ويؤكد ويشدد اعتذاره، لن يشك بأنه سيرجع الأمر إلى أهله، إذ الاعتذار يفهم منه الندامة، والندامة تعني الصدق وصحة النوايا، حيث لا يدل دليل على خلاف ذلك.

كما أن من يرى شدته في إظهار الموافقة، ومراجعته للإمام علي «عليه السلام» في الصغير والكبير إلى حد أنه لا يصدر الأمر إلا عن رأيه «عليه السلام»، سوف يظن: أنه لا محالة سيرجع الأمر إلى الإمام «عليه السلام» بعد وفاته، ولو في آخر لحظة من حياته، ولكنه يفاجأ بمخالفة أخرى أكثر إيلاماً، وأشد مضاضة وفظاظة.. حيث ظهر أنهم كانوا يحاولون تكريس هذا الأمر مرة أخرى في غير أهله الحقيقيين.

والخلاصة: إنه «عليه السلام» كان عالماً بما يجري بلا شك، وكان أيضاً يتوقع ما يكون منهم.. ولكنه أراد أن يجري الكلام وفق السياق الطبيعي

له، بغض النظر عن العلوم الخاصة التي تصل إليه بطرق غير عادية، بحكم كونه الوصي والإمام بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله».. وكان يخبره «صلى الله عليه وآله» بهذه الغيوب في سياق تكوين علم الإمامة.

أما الناس العاديون، الذين ليس لهم هذا المقام، فلا سبيل له إلى العلوم الغيبية، ولا بد أن تكون حالهم كما وصف «عليه السلام».

٢ ـ ذكرنا أكثر من مرة: أن النبي «صلى الله عليه وآله» والإمام «عليه السلام» إنما يتعامل مع الناس وفق السياقات الطبيعية للأمور، لا من خلال اطلاعه على لوح المحو والإثبات، ولا من خلال شاهديته على الخلق.. فلو أن الإمام الرضا «عليه السلام» رأى المأمون يضع السم في ماء الرمان، أو أخبره بذلك من رآه يفعل ذلك، أو أقر نفس المأمون بفعله هذا له أو لغيره، ثم شهد عليه به، لم يجز للإمام «عليه السلام» أن يشرب من ذلك الكأس شيئاً.. ولكنه إنما علم بأنه ما في الكأس مسموم بطريقة غير عادية، لا سبيل للبشر العاديين إليها. وهذا هو السبب في أنه لم يعول على علمه غير العادي، وتعامل مع المأمون وغيره وفق الظواهر المقدورة لهم.

٣ ـ وقد تقدم: أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يدع أسلوباً، ولا طريقة بيان وتأكيد، إلا استفاد منها في توطئة الأمر لعلي «عليه السلام»، حتى لقد أخذ البيعة له من عشرات الألوف في يوم الغدير، قبل استشهاده «صلى الله عليه وآله» بسبعين يوماً. بالإضافة إلى أمور كثيرة أخرى ذكرنا شطراً منها في كتابنا هذا، وفي كتاب: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»..

يضاف إلى ذلك: أن علينا أن نتوقع طاعة الناس لأمر نبيهم، وعدم اللجوء إلى المكر والغدر، وأن يكون لهم موقف صارم لا يسمح بالتمرد على أوامره، ومخالفة زواجره. ثم أن نحسن الظن بأهل الإيمان، ونلتمس أوجه الصحة لما يتراءى لنا من مخالفات في أفعالهم.. فكيف ونحن نرى أن من بينهم من ضحى بكل غالٍ ونفيس في طاعته «صلى الله عليه وآله». ونسمع من بعض آخر منهم دعاوى عريضة في هذا المجال؟!

فلا بد بملاحظة هذه الأمور وسواها: من أن نطمئن إلى سلامة المسيرة، وحسن الخاتمة، فإذا رأينا بعض التصرفات تأتي في غير هذا السياق، فسيكون لنا أن نعتبرها مجرد نزوات فردية عابرة، لا يمكن أن ترضاها منه، ولا تقره عليها الكثرة الكاثرة من الناس بعد وفاة الرسول..

٤ ـ وكذلك يقال بالنسبة لطمأنينته «عليه السلام» إلى ظاهر أبي بكر وسلوكه النادم المشفوع بالاعتذارات، والتملصات في كل أيامه من تبعات نتائج السقيفة، وإلقائه التبعة على غيره. بل كان يطلب منه تحليله، ومسامحته أيضاً..

ونفس الكلام يجري فيما كان يظهره عمر بن الخطاب له «عليه السلام» من موافقة، وطاعة، وقبول بأحكامه، واستجابة لمطالبه، والتزام بقضائه وبحكمه..

٥ ـ وأخيراً.. فإن أبا بكر وعمر، وإن كانا قد استوليا على حق أمير المؤمنين وفاطمة «عليهما السلام»، وغصبا فدكاً والخلافة من أصحابها الشرعيين،ولكن ذلك لا يمنع من لزوم ترتيب الأثر على ما يظهرانه من

تراجع وتوبة، فإن التوبة مما أمر به الشرع، ويفرضها العقل والوجدان. ولا يستطيع أحد أن يسلب منهما حق التوبة، والاستفادة من آثارها، ومن هذه الآثار قبولها من فاعلها.

ولذلك نقول:

ليس من المقبول توجيه اللوم إلى من رضي توبة التائب، وعامله وفق ظاهر أمره، فإن هذا هو ما أوجبه شرع الله على عباد الله تبارك وتعالى.

التخلف عن جيش أسامة:

وقد أوضح النص المتقدم في الفصل السابق كيف دبر «صلى الله عليه وآله» بعث أسامة، وأنه:

١ ـ لم يدع أحداً من أفناء العرب، ولا من الأوس والخزرج، ولا غيرهم ممن يخاف منه النقض والمنازعة، ولا أحداً ممن يبغض علياً «عليه السلام» ممن وترهم بأبٍ أو بأخ أو حميم..

كما لم يدع أحداً يخاف نقضه أو منازعته من المهاجرين والأنصار، والمسلمين، وغيرهم، والمؤلفة قلوبهم، والمنافقين إلا وجعلهم في ذلك الجيش..

٢ ـ وكان هدفه «صلى الله عليه وآله» من هذا الإجراء هو:

ألف: أن تصفو المدينة ممن يخاف نقضه أو منازعته. وأن لا يدفعه دافع عن الولاية، والقيام بأمر الرعية بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله».

ب: أن تصفو قلوب من يبقى مع علي «عليه السلام» بحضرة رسول

الله «صلى الله عليه وآله».

ج: أن لا يقول قائل شيئاً يكرهه علي «عليه السلام».

٣ ـ إن آخر ما تكلم «صلى الله عليه وآله» من أمر أمته هو: أن يمضي جيش أسامة، ولا يتخلف أحد ممن أنهضهم معه..

وقد شدد في أوامره تلك، وأكثر من التأكيد فيها. وأمرهم بملازمة أميرهم.

٤ ـ إن أبا بكر وعمر ومن معهما قد فاجآ الناس حتى علياً «عليه السلام» برجوعهم من جيش أسامة، ومخالفتهم لأمر الرسول «صلى الله عليه وآله» فيما أنهضهم له.

٥ ـ لقد كانت سرعتهم المعبرة عن حرصهم الشديد لافتة للنظر، لأنهم خلَّفوا أميرهم ـ الذي أمرهم الرسول بملازمته ـ وأقبلوا يتبادرون على الخيل ركضاً.

٦ ـ إن هذا كان منهم بهدف حل عقدة عقدها الرسول «صلى الله عليه وآله» في أعناقهم، ونكث عهد أعطوه لله وللرسول..

وهذا ما حصل بالفعل، فقد نكثوا العهد، وحلوا العقد، واستبدلوه بعقد آخر عقدوه لأنفسهم، من دون إعلام أو استشارة أحد من بني عبد المطلب.

كما أنهم لم يطلبوا من أحد أن يقيلهم من البيعة التي كانت لأمير المؤمنين «عليه السلام» في أعناقهم!!

وكان«عليه السلام»مشغولاً عن ذلك كله بما كان واجباً عليه دون سواه، ولايجوز لأحد غيره التصدي له،وهو تجهيز رسول الله«صلى الله عليه وآله».

٧ ـ إن هذا كان أشد ما ورد على قلب علي «عليه السلام» من آلام ومصائب، ورزايا ونوائب.

أهل البيت والرفاهية في عهد الرسول؟!:

وقد ذكر «عليه السلام»: أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يتألف الناس على الإسلام، «حتى لقد كان من تألفه لهم أن كان الناس في الكر والفر، والشبع والري، واللباس، والوطاء والدثار. ونحن أهل بيت محمد «صلى الله عليه وآله» لا سقوف لبيوتنا، ولا أبواب ولا ستور إلا الجرائد، وما أشبهها. ولا وطاء لنا ولا دثار علينا، يتداول الثوب الواحد في الصلاة أكثرنا. ونطوي الليالي والأيام عامتنا.

وربما أتانا الشيء مما أفاءه الله علينا، وصيره لنا خاصة دون غيرنا، ونحن على ما وصفت من حالنا، فيؤثر به رسول الله «صلى الله عليه وآله» أرباب النعم والأموال تألفاً منه لهم».

وهذا مطابق لما تقدم عن الزهراء «عليها السلام»: أنها قالت في خطبتها، بعد أن ذكرت معاناة علي «عليه السلام»:

«وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون، فاكهون، آمنون، تتربصون بنا الدوائر، و تتوكفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتفرون عند القتال»(١).

---

(١) بحار الأنوار (ط دار التراث العربي سنة ١٤٢٩ هـ ق) ج٢٩ ص٧٤ و ٧٥ و ٧٩ و (ط دار الرضا) و ٢٢٥ والاحتجاج ج١ ص٢٦٢ و ٢٦٣ و (ط دار النعمان)

وقد دلنا هذا النص على ما يلي:

أن هذه الحالة كانت عامة في غير أهل البيت. أي أن الرفاهية، والشبع والري، والدثار والوطاء، واللباس كان في جماعات من المسلمين..

أما أهل البيت «عليهم السلام» فكان حالهم شديداً، إلى حد أنهم لم يكن لبيوتهم سقوف، ولا أبواب، ولا ستور، إلا جرائد النخل، وما أشبهها، كما أنه لم يكن لهم وطاء، ولا دثار، ولا لباس، بل كان أكثرهم يتداول الثوب الواحد في الصلاة..

وكان عامتهم يطوون الليالي والأيام بدون طعام..

وحين يأتيهم بعض ما فرضه الله تعالى لهم، وخصهم به دون غيرهم، كان «صلى الله عليه وآله» يؤثر به غيرهم من أرباب النعم والأموال، تألفاً لهم.

ثم كان جزاء أهل البيت «عليهم السلام» من هؤلاء الرافهين بالذات كل هذا التجني، والأذى، الذي لاقوه منهم بعد وفاة الرسول العظيم والكريم «صلى الله عليه وآله أجمعين»..

ج١ ص١٣٦ وبلاغات النساء ص١٤ـ٢٠ واللمعة البيضاء للتبريزي ص٦٢٢.

الفصل الرابع:

مع نصوص الفصل السابق..
ما كان بعد الرسول صلى الله عليه وآله

بداية:

ذكرنا في فصل ما قبل الفصل السابق النص الذي يشرح فيه أمير المؤمنين «عليه السلام» ما جرى فيه هذا الحوار مع اليهودي.. وقد احتياج بيان بعض ما أشار إليه «عليه السلام» إلى عقد فصلين:

أحدهما: يرتبط بما قاله «عليه السلام» عما جرى في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وإلى حين وفاته.. وهو ما قدمناه في هذا الفصل الذي سبق..

والآخر: بيان بعض ما أشار إليه فيما يرتبط بما جرى بعد استشهاده «صلى الله عليه وآله»، وهو ما سنذكره في هذا الفصل..

فلاحظ ما نذكره ضمن العناوين التالية:

من سياسات عمر تجاه علي عليه السلام:

وذكر «عليه السلام»: أن عمر كان يشاوره في موارد الأمور، فيصدرها عن أمره «عليه السلام»، ويناظره في غوامضها، فيمضيها عن رأيه.. ولا يعلم أصحابه «عليه السلام» أن أحداً غير علي كان يناظر عمر في الأمور، ولا يطمع في الأمر بعده سواه..

وقد ذكرنا في بعض فصول هذا الكتاب ما يؤيد هذا المعنى.. وقلنا: إن السياسة قد فرضت على أولئك الحكام إفساح المجال لأمير المؤمنين «عليه السلام» للتدخل في أمور الدين وحفظ نشر الأحكام، وممارسة مهماته في البيان والتصحيح والتوضيح، لأنهم يعلمون أن علياً «عليه السلام» لا يسكت على هذا الأمر، وهم لا يريدون التصادم معه، لأن عواقب ذلك ستكون كبيرة وخطيرة عليهم.

ولكنهم قد احتفظوا لأنفسهم بهامش من الحركة، يلبي لهم رغباتهم في إظهار سلطتهم، وتأكيد هيمنتهم، وإشباع طموحاتهم في التدخل، بل والتصرف ببعض الأحكام، بهدف إظهار مضاهاتهم الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله» في التشريع، وتأكيد قدرتهم على مشاركته «صلى الله عليه وآله» في الرفع والوضع..

ولكن إبقاء هذا الهامش قد أضرهم كثيراً أيضاً، ولم ينفعهم، لأنه «عليه السلام» كان لهم بالمرصاد، فإنه لم يسكت عن تلك المخالفات، ولا ترك الاعتراض على تلك التصرفات، وبين لهم ولغيرهم وضوح فساد ما جاؤوا به، وفضح جهلهم بدين الله، وأعلن على الملأ تعدياتهم على أحكامه وشرائعه..

وإذا كان محبوهم قد حفظوها لهم، وساروا فيها على نهجهم، فإن ذلك لم يجبر كسرهم، ولا خفف من حدة الانتقاد لهم، والتشنيع عليهم بما اقترفته أيديهم..

ثم إن مرونته «عليه السلام» في التعامل مع القوم قد أسهمت في حفظ

الشريعة، وتوضيح قضايا الإيمان والإسلام، وبيان مفاهيمه وحقائقه، ومعاني القرآن ودقائقه، وانتزعت اعترافاً عملياً بمرجعيته «عليه السلام» في كل ما هو دين وشرع وإيمان. وكرستها واقعاً حياً، باقياً نامياً عبر الأجيال والأحقاب.. واضطرت حتى مناوئيه إلى البخوع والاعتراف له، وعدم الاستغناء بآرائهم عن الرجوع إليه. رغم ثقل ذلك عليهم..

وإذا استطاع «عليه السلام» أن يكرس واقعاً كهذا.. ولا سيما بعد أن أثبت للناس كلهم، ولجميع الأجيال أيضاً مظلوميته، وأنه قد اغتصب حقه، واعتدى عليه وعلى بيته وأهله، فإنه لا يهمه ـ بعد هذا ـ أن تنسب لغيره فتوحات كان هو المخطط لها، وكان أصحابه هم روادها وقادتها.. وإن كان الذين استفادوا من الأموال والولايات هم المناوئون له، والحاقدون عليه وعلى شيعته وأصحابه، وكانوا هم الذين انحرفوا بتلك الفتوحات عن مسارها، وحولوها إلى مراتع للظلم والظالمين، والإثم والآثمين.

كما أنه إذا استطاع أن يحفظ للناس دينهم وإيمانهم، وأن يفتح لهم أبواب الهداية، ويدلهم على طريق السلامة، فإنه سوف لا يهتم لإغداق الثناء على من لا يستحق، ومنح الألقاب مهما عظمت وتنوعت جزافاً لمن ليس أهلاً لها، ولا تليق به ولا يليق بها.

وليسجل التاريخ لهم ـ بعد هذا ـ ما شاء من مفردات التزييف والتحريف.. فقد قال تعالى:

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ

فِي الْأَرْضِ﴾(١).

دور ابن عمر في الشورى:

وذكر النص في الفصل المتقدم: أن عمر بن الخطاب لما قرر الشورى، جعل ابنه عبد الله حاكماً عليهم فيها، وأمره بضرب أعناق النفر الستة إذا لم ينفذوا أمره.

ومعنى ذلك: أن ما يزعمه أنصار الخلفاء من أن عمر إنما جعل ولده عبد الله في الشورى بصفة مراقب قد جاء قاصراً عن إفادة المعنى، بل أريد به التعمية على حقيقة المهمة التي أوكلها أبوه إليه. وهي هذه التي صرح لنا بها «عليه السلام» هنا.. فإنه أراد أن يتولى ابنه تنفيذ أمره بقتل هؤلاء الستة، توصلاً لقتل أمير المؤمنين «عليه السلام»، ولا بأس عند عمر بأن يضحي بالخمسة من أجل التخلص من علي، والانتقام منه.

وكان عمر يعلم: أن ابنه وحده هو الذي ينفذ أوامره، لأنه كان مشغوفاً بأبيه، ولم يكن له شخصية قوية وقادرة على اتخاذ أي قرار يخالف أمر أبيه..

أما ابن عوف وغيره، فهم حتى لو كانوا يرغبون في طاعة أمره، فإنهم يحسبون ألف حساب قبل الإقدام عليه..

وكان عمر يدرك أنه لا يملك بعد موته نفس المستوى من التأثير الذي

---

(١) من الآية ١٧ من سورة الرعد.

كان له عليهم في حال حياته. ولا يضمن أن تنفذ أوامره إلا إذا كان المتولي لتنفيذها هو ولده عبد الله..

بعدما جرى في الشورى:

١ ـ وقد ورد في النص المتقدم ما دل على أن علياً «عليه السلام» لم يشارك أهل الشورى فيما كانوا يخوضون فيه من محاولات إقناع غيرهم بأن يبايع لهم.. بل بقي ساكناً وساكتاً إلا أن يسأله سائل منهم.

٢ ـ إنه «عليه السلام» لم يكن يطلب منهم البيعة له، بل كان يطلب منهم الوفاء ببيعتهم التي أعطيت منهم له في يوم الغدير في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» بأمر من الله، وبإشراف من رسوله. وكان يبين لهم وجوه استحقاق الخلافة، التي لم تكن فيهم، ولكنهم كانوا يكابرون، ولا يرضون.

٣ ـ غير أنهم كانوا في قرارة أنفسهم يقرون له بالتقدم عليهم، وبالأحقية بها دونهم، ولذلك كانوا يعترفون له بذلك إذا خلا بأحدهم، ولكنهم يطلبون أن يجعلها لهم من بعده..

ولكنهم لما لم يجدوا عنده إلا العمل بوصية الرسول، وإعطاء كل ذي حق حقه، أصاروها إلى عثمان.

٤ ـ وعثمان كان أبعدهم عنها من حيث الميزات، فكيف إذا قيس بغيرهم ممن هم أفضل منهم، من أمثال عمار وسلمان، فضلاً عن أن يقاس هو أو أحد منهم بعلي «عليه السلام» نفسه.

٥ ـ وبعد أن عقدوها لعثمان، ورجعوا إلى أنفسهم ظهرت ندامتهم، وصار بعضهم يتهم غيره بالتقصير، بل صار كل منهم يلوم نفسه ويلوم غيره.

٦ ـ إن عبد الرحمان بن عوف الذي جعل الخلافة لعثمان صار يقصد أصحابه خاصة وسائر أصحاب الرسول «صلى الله عليه وآله» عامة، ويعتذر لهم عما جنته يداه، ويعلن لهم أنه مستعد لأن يعزل عثمان كما نصبه.

وقد أرجعنا الضمير في كلامه «عليه السلام» في هذا الموضع إلى ابن عوف، لا إلى عثمان، لأننا رأينا: أن عثمان قد أصر على مخالفاته حتى انتهى الأمر به إلى القتل، فكيف يتصور استقالته من بيعته، كما أننا لم نجد أي نص يدل على أن عثمان قد فعل شيئاً من ذلك. ولو أن عثمان استقال الناس فلماذا يحزن أمير المؤمنين؟! ولماذا يتألم؟!

أما إن كان ابن عوف هو الذي فعل ذلك، ثم أظهر الندم فذلك أمض وأشد ألماً.. لأن هذه الاستقالة قد جاءت بعد أن ظهر له أن ما أمله لا يستطيع أن يحصل عليه من عثمان.. وهذا يعني: أن ابن عوف لا يزال يعيش في دائرة طموحاته الذاتية وغير المشروعة، وأن ندمه لم يرجعه إلى الصواب، بل إلى خطأ أفدح، وذنب أوضح وأصرح.

٧ ـ ثم جاء باقي الستة إلى علي «عليه السلام» يطلبون منه خلع عثمان، والقيام ضده لأخذ حقه منه، وكلهم يعرض عليه البيعة على ذلك..

ولكنه «عليه السلام» رفض عرضهم، لا لخوفه على نفسه، فإن الكل يعلم: أن الموت عنده بمنزلة الشربة الباردة في اليوم الشديد الحر. بل لأن

حفظ دماء الناس أبهج لقلبه، وآنس لروحه من إراقتها..

وهذا يعطي لزوم معرفة الإمام بالأولويات التي يجب مراعاتها في اتخاذ القرار في أي موقف.

٨ ـ وقد قادته خبرته بأخلاق عثمان إلى الاعتقاد بأن عناده سيقوده إلى القتل بأيدي المعترضين عليه، بل هو سيستدعي الأقارب إلى قتله فضلاً عن الأباعد.

وهذا يؤكد أيضاً: معرفة الإمام بأحوال الناس وبأخلاقهم، وضرورة أن يعرف مسار الأمور من خلال ذلك.

وليست معرفته مجرد ظنون وحدسيات، بل هي معرفة قاطعة تدعوه إلى اتخاذ الموقف الصحيح والحازم. المعروفة نتائجه، لارتكازه على معطيات ظاهرة إلى حد البداهة..

سبب كراهة علي عليه السلام لولايتهم:

١ ـ وقد بين «عليه السلام» أن سبب كراهته لولايتهم (أي لتولي أمورهم) أمران:

أحدهما: معرفته بما تطاعموا به من اعتقال الأموال، والمرح في الأرض.

الثاني: علمهم بأنه إن وليهم «عليه السلام» لا يعطيهم هذه الخصلة.

والمراد: أنه «عليه السلام» كان يعلم بأن هؤلاء الناس قد أذاق بعضهم بعضاً طعم اعتقال الأموال، أي اكتسابها وضبطها.

كم أنهم قد اعتادوا المرح في الأرض.

ولا يمكن أن يرضى علي «عليه السلام» منهم ذلك.. بل هو سوف يأخذ على أيديهم، ويمنعهم من ممارسة هذه وتلك..

وإذا كانوا هم أنفسهم يعلمون بهذا وذاك، ثم يقدمون على البيعة له، فذلك يعني أحد أمرين:

أحدهما: أنهم يريدون أن يخدعوه..

الثاني: أنهم قد أعدوا العدة لمواجهته، وكسر إرادته، والعبث بقراراته، والمساس بهيبته، وهيمنته على الأمور. وسيفتح هذا أبواباً للنزاعات، والمناكفات، وربما الحروب..

٢ ـ ثم قرر «عليه السلام»: أن ترويضهم على الواقع الجديد، وانتزاع عادتي اعتقال الأموال، والمرح في الأرض منهم لن يكون أمراً سهلاً، بل هو أمر شديد، وسيكلف الأمة غالياً.

ولكن لا بد من دفع هذا الثمن، لأن سلبيات استمرار هذه العادة وتجذرها سيؤسس لخط انحرافي خطير، يودي بكل الإنجازات، ويستبدل المسار الصحيح بمسار انحرافي، يزداد بعداً عن الحق كلما تواصل السير فيه..

٣ ـ وبعد البيعة له «عليه السلام»، تأكد لهم: أنه «عليه السلام» لن يعطيهم ما يريدون.. فبدأوا بتلمس مبررات الانقلاب عليه، ونكث بيعته، وإعلان الحرب عليه..

الاستغلال البشع:

وقد قدم «عليه السلام» صورة عن الاستغلال البشع لبعض الأشخاص الذين لا ينبغي استغلالهم، فكيف إذا رافق هذا الاستغلال التعدي على العهود والعقود، لمجرد الحصول على المشتهيات والرغبات الشخصية وهذا ما حصل بالفعل.

فقد تعرضت المرأة ـ يعني عائشة ـ لهذا الاستغلال، حيث أرادوا منها: أن تحارب وليها، والوصي عليها، وقد حملوها على الجمل، وشدت على الرحال، وأقبلوا بها تخبط الفيافي، وتقطع البراري، وتنبح عليها الكلاب.

وهذا التصوير يظهر بشاعة ما أقدموا عليه، بما لا مزيد عليه.. كما سنرى.

ولي عائشة، والوصي عليها:

وقد ذكر «عليه السلام» مؤاخذته على الناكثين ـ أعنى طلحة والزبير ـ بأنهما وثبا بالمرأة ـ يعني عائشة ـ عليه، مع أنه وليها، والوصي عليها..

فنجد: أنه «عليه السلام» لم يشر إلى أنها زوجة النبي «صلى الله عليه وآله»، ولا تحدث عن أنها قد أمرت بالقرار في بيتها، وغير ذلك، بل اكتفى بذكر ولايته لها ووصايته عليها..

ولعل سبب ذلك:

أولاً: أنه «عليه السلام» كان هنا يوجه الخطاب ليهودي، لا يرى لرسول الله «صلى الله عليه وآله» هذه الحرمة التي يراها المسلمون له..

ولكنه لا يستطيع أن يرد أمراً رضيه البشر لأنفسهم منهجاً ونظاماً يخضعون له، ويأخذون به. لما له من أثر في نظم أمورهم، وحفظ مصالحهم.. فإن من هذه الأمور التي تواضع البشر عليها، وألزموا بعضهم بعضاً بها: حفظ نظامهم السياسي، والوفاء بالعهود والعقود التي يبرمونها.

ومن هذه وتلك أيضاً: الإقرار بنظام الوصية، والالتزام بلوازمه.. والقيام بواجب الوفاء للولاية السياسية التي تحفظ للناس أمنهم ونظامهم، وتفرض عليهم الالتزام بالأنظمة الضرورية لحياتهم الاجتماعية، مثل: نظام القضاء، والتعليم، والدفاع، وغيرها من ضرورات حياتهم الاجتماعية، والأسرية.

وقد أشار «عليه السلام» إلى ولايته كحاكم على تلك المرأة، وولايته عليها كوصي. وكلاهما مما يقرُّ به ذلك اليهودي.. فما معنى أن تستغل هذه المرأة، ويطلب منها أن تتمرد على وليها، والوصي عليها، وقد حملت على الجمل، ونبحتها الكلاب.. إلى آخر ما تقدم؟!

ثانياً: إن اليهودي لا بد أن يقر بأن من يتدين بدين أن يلتزم بأحكامه وشرائعه، ول مقرراته.. فإذا ظهر أنه يدعي الإيمان بهذا الدين ثم يخالف أحكامه وشرائعه، فإنه سيراه مدلساً مخادعاً، أو مستهتراً لا يقيم وزناً لعهد ولا لعقد، يجمع بين الشيء ونقيضه، وسيراه مستحقاً للتأديب والعقوبة من أجل ذلك.

ظهور علامات الندم:

وتقدم في الفصل السابق: قوله «عليه السلام»: إن علامات الندم كانت تظهر للناكثين في كل ساعة، حيث كانوا يرون صدق ما أخبرهم به

رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وما كان يخبرهم به علي «عليه السلام» بصورة متوالية.. ومن ذلك: نباح كلاب الحوأب، وركوب الجمل الأدبب المسمى بعسكر، كما أخبرهم به الرسول «صلى الله عليه وآله».. وإخباره «صلى الله عليه وآله» الزبير بأنه يقاتل علياً «عليه السلام»، وهو ظالم، وغير ذلك.. مما ورد بعضه في ثنايا هذا الكتاب.

النكث المتكرر:

ثم ذكر «عليه السلام»: أن الأمر لم يقتصر على التلاعب بالآخرين، واستغلالهم في نقض الولاية والوصية، بل تعداه إلى نكث عهود أعطاها الناكثون مباشرة.. فإن أمكن تخفيف حدة النقد لهم بادعاء أنهم لا يتحملون وزر ما فعلته عائشة من مخالفة الولاية والوصية، وإن كانت قد فعلت ما يروق لهم..

فلا يمكن الاعتذار عنهم بعد مباشرتهم النكث بأنفسهم.

فإن أريد ادعاء أن هذا النكث قد حصل تحت وطأة ظروف غير عادية، ربما يكون لهم بعض العذر فيها. فإن حصول النكث منهم مرة بعد أخرى يضعف هذا الادعاء أيضاً.. لا سيما وأن البيعة الأولى التي نكثوها تمت تحت إشراف وبرعاية النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»..

حال أهل البصرة:

وقد وصف «عليه السلام» أهل البصرة بما يزيد في بصيرة الباحث، ويدله على أسباب اختيار الناكثين لها. حيث أظهرت تلك الأوصاف بالتصريح تارة،

وبالتلميح أخرى: أنهم مرتع خصب للجهالات، والحماقات، وقلة التعقل، والبعد عن التأمل والتدبر.

وعرفتنا: أنهم من أشد الناس تقبلاً للشبهات، ورضا بالترهات، وانقياداً للأباطيل والأضاليل.

وقد ذكر «عليه السلام» من حالاتهم ما يصدق الأقوال بالأفعال، التي تؤكدها ظواهر الأحوال، فهم طويلة لحاهم، وهذا من علامات الحمق، وقلة العقل، حيث يراد جلب الأنظار، والتماس الإكرام، والإجلال والاحترام بطول اللحية، لا بالدين، والعلم، والفضائل النفسانية، والمزايا الأخلاقية، والإنسانية.

٢ ـ وهم قصيرة أيديهم، ولعله كناية عن قصورهم في تدبير الأمور، فلا يصلون إلى مراداتهم لعجزهم عن اجتراح الوسائل المناسبة والموصلة لها.

٣ ـ وهم قليلة عقولهم..

٤ ـ عازبة آراؤهم..

٥ ـ وهم جيران بدو، ورواد بحر، مما يعني: أنهم بمثابة الأعراب بعيدون عن العلم والفكر والمعرفة، ويميلون إلى العناد وعدم الخضوع والانقياد، حتى لرب الأرباب تبارك وتعالى، الذي يقول: ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[1].

---

(١) الآية ٩٧ من سورة التوبة.

ناظرت بعضهم فرجع:

وتقدم في الفصل السابق قوله «عليه السلام»: «ناظرت بعضهم فرجع، وذكرت فذكر».

والظاهر: أن المقصود هنا هو الزبير، الذي عاد مرة أخرى إلى الحرب، بسبب إصرار ابنه عبد الله، حتى رماه بالجبن، وسيأتي: أن إصرارهم هذا دعاه إلى نكث وعده، وحنثه بيمينه. وعاد إلى القتال، فحلت به الهزيمة، وقتل وهو منهزم كما سنرى إن شاء الله..

كما أن من المحتمل أن يكون المقصود غير الزبير، ممن تأثر بكلام علي «عليه السلام»، ورجع عن غيه..

حرب الجمل دفاعية:

وقد يتوهم متوهم: أن الناكثين قصدوا البصرة، فلحقهم علي «عليه السلام»، وأراد أن يردهم ففاتوه، فجمع ألوف المقاتلين، وقصدهم إلى البصرة، فقاتلهم وقتلهم.

وهذه الصورة تعطي: أنه «عليه السلام» كان هو المهاجم لهم، أو أن الاستعداد والدخول في الحرب كان من كلا الفريقين، فهي هجومية من كليهما.. وهذا يخفف من حدة النقد للناكثين، ويعطيهم بعض العذر في بغيهم، وما ارتكبوه من جرائم.

غير أنه «عليه السلام» بيَّن: أن الأمر كان على عكس ذلك تماماً، وأنه «عليه السلام» كان يدافع عن نفسه بكل ما لهذه الكلمة من معنى. فقد

قدمنا: أن خروجه «عليه السلام» من المدينة إلى العراق كان لا بد منه، وإلا فسيكون أمر تدمير كل ما لديه، وتحقيق النصر الحاسم عليه وقتل من معه مما لا مفر منه، ولا محيد عنه..

وكان لا بد له من جمع الرجال، والتأهب للدفاع، إن لزم الأمر..

وقد قرر «عليه السلام» هذا الأمر بصريح العبارة، فقال: «ورأيتني إن أمسكت كنت معيناً علي بإمساكي».

وقد تأكد ذلك بصورة عملية بعد أن صدرت منهم أربعة أمور، هي:

١ ـ تناولهم الأطراف، سعياً منهم لإسقاط هيبة الدولة، والإخلال بالنظام، وهو شروع في التمرد الذي لو سكت عنه لكان له ما بعده..

٢ ـ وقد جاء الذي بعده بالفعل. وذلك بشروعهم في سفك الدماء عمداً ومن دون أية شبهة أو تأويل، الأمر الذي جعلهم مستحقين لعقوبات تتناسب مع طبيعة الجريمة. ولم يكن يمكن العفو عنهم، ولا كان يتوقع منهم الرضا بذلك بأية حال.. ولو أدى ذلك إلى قتل شطر هذه الأمة..

ولئن أراد أحد أن يحتمل أن يكون لسفك الدماء مبرر مهما كان ضعيفاً وتافهاً، فإن الجرم الآخر وهو:

٣ ـ قتل الرعية، من دون تمييز.

٤ ـ والأنكى من ذلك: أنهم حكَّموا النساء في الأمة، مع أنهن ناقصات العقول والحظوظ، كما شرحناه في موضع آخر من هذا الكتاب..

وقد جروا في ذلك على عادة ملوك بني الأصفر، ومن مضى من ملوك سبأ، والأمم الخالية. ومعنى ذلك: أنهم أرجعوا الناس إلى عهود الجاهلية،

وإلى طريقة أهل الكفر والطغيان.

والمراد بني الأصفر: الروم، فإن أباهم الأول كان أصفر اللون، وهو روم بن عيص بن إسحاق، بن إبراهيم.

والخلاصة: أن ممارساتهم وجرائمهم التي أشار إليها علي «عليه السلام» وعدم الاستجابة لأي نوع من أنواع التفاهم، والتوافق. قد أوضحت حجم التصميم لديهم على المضي في مشاريعهم العنفية والهدامة. فكان آخر الدواء الكي.

بل إن هذا الكي لم يعد مفيداً، فكان لا بد من استئصال الداء، باستئصال بؤره ومناشئه، وهكذا كان..

الاستئصال، بعد نفاد كل احتمال:

وقد صرح أمير المؤمنين «عليه السلام» في النص المنقول عنه في الفصل السابق: بأنه لم يستسلم لخيار الحرب، إلا بعد أن سدت جميع أبواب السلام، فقال:

«ولم أهجم على الأمر إلا بعدما:

قدمت وأخرت..

وتأنيت..

وراجعت..

وأرسلت..

وسافرت (شافهت خ. ل)..

وأعذرت..

وأنذرت..

وأعطيت القوم كل شيء التمسوه.

بعد أن عرضت عليهم كل شيء لم يلتمسوه..

فلما أبوا إلا تلك (أي الحرب) أقدمت عليها. فبلغ الله بي وبهم ما أراد. وكان لي عليهم بما كان مني إليهم شهيداً».

ونلاحظ:

١ ـ أن هذه الكلمات اليسيرة قد بينت جهد ومعاناة أمير المؤمنين «عليه السلام» مع البغاة عليه، وبينت مدى صبره عليهم، ومداراته لهم.

٢ ـ إنه علي «عليه السلام» يؤسس بموقفه هذا قاعدة لا بد من الالتزام بها في التعامل مع هذه القضايا، فلا تصح المبادرة إلى البطش بمن بغى، بل لا بد أن يمنح الفرصة، لإعادة النظر، والتراجع، حفظاً لمصلحة الأمة، وحقناً لدمائها ورفقاً بها، وبمن تزين له نفسه الأمارة بالسوء الخروج عن جادة الصواب، فلعل وعسى، وعسى ولعل يستيقظ الغافل، ويتعلم الجاهل..

هل أعطى عليه السلام كل ما التمسوه؟!

تضمنت هذه الكلمات: أنه «عليه السلام» أعطى هؤلاء البغاة كل شيء التمسوه. وعرض عليهم كل شيء لم يلتمسوه.

فيرد سؤال: هل أعطاهم ولاية البصرة والكوفة أيضاً، فإنهم كانوا قد

التمسوها منه قبل خروجهما من المدينة إلى مكة، فلماذا لم يعطهم ذلك؟!

ونجيب:

بأن علياً «عليه السلام» لا يعطيهم ما لا يحق لهم، كما أنه لا يعطيهم ما يمكنهم من مواصلة بغيهم، وإلحاق الأذى بالدين وبالأمة..

كما أنه لا يعطيهم، ما ربما يؤكد دعواهم الشراكة معه في الحكم

وقد بين «عليه السلام» لهم من أول الأمر هذه الحقيقة..

كما أنه لا يمكن أن يعطيهم شيئاً يعود أمره إليه تحت وطأة التهديد والوعيد، فإن ذلك يؤسس لسلبيات كبيرة وخطيرة، قد لا يمكن التخلص منها في المدى المنظور.

وهكذا يقال أيضاً في معنى قوله «عليه السلام» بعد عرضت عليهم كل شيء لم يلتمسوه.. فإن المقصود هو عرض ما لا مانع من إعطائه لهم، مما لا يوجب تقوية شوكتهم ضده، ولا يشجع غيرهم على ممارسة الابتزاز، وذلك ظاهر..

الجبر في كلام علي عليه السلام:

وقد قال «عليه السلام» فيما يرتبط بحربه لأصحاب الجمل: «فبلغ الله بي وبهم ما أراد».

وقال «عليه السلام» عن الخوارج بالنخيلة، والذين بحروراء: «فأبى الله إلا ما صاروا إليه».

ونقول:

لا شك في أنه «عليه السلام» لا يريد الإحالة على ما يعرف بالجبر الإلهي، وادعاء أن الله تعالى هو الذي يتحكَّم في أفعال الفريقين في حرب الجمل إلى حد سلب الإرادة من الفاعل، وتعطيل قدرته، أي أن الله تعالى هو الذي حركهم وهيمن على إرادتهم، بحيث أدى ذلك إلى هذه النتائج.

بل يريد: أنهم حين أبو إلا الحرب، عمل «عليه السلام» بتكليفه الإلهي، ومارس الناكثون حريتهم في الاختيار، وفي الفعل، فجاءت النتائج متوافقة مع مقتضيات السنن الإلهية المودعة هذا الكون. وفق ما بينه الله تعالى للناس، وما وعد به عباده، من أن النصر سيكون من نصيب عباده الصالحين.

وكان الله تعالى شاهداً لعلي «عليه السلام» على أعدائه. بسبب قيام علي «عليه السلام» بواجباته الإلهية.

البيعة لعلي عليه السلام أربع مرات:

ومن الأمور التي ذكرها النص المتقدم في الفصل السابق: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أخذ يوم فتح مكة البيعة من معاوية وأبيه لعلي «عليه السلام»..

وذكر أيضاً: أن هذه البيعة قد أخذت لعلي من معاوية وأبيه، في ثلاثة مواطن بعد الفتح..

ونقول:

١ ـ إننا لا نستطيع أن ننفي صحة هذا الخبر، أو غيره، حتى لو كان سنده ضعيفاً، فإن الضعيف السند قد يكون هو الصحيح في الواقع.

٢ ـ إن هذه النص قد ذكر: أن النبي «صلى الله عليه وآله» أخذ البيعة لعلي «عليه السلام» من الناس عامة، أو من طائفة منهم أربع مرات بدءاً من فتح مكة، وإلى حين وفاته..

والمشهور المعروف المتواتر منها هو بيعة يوم الغدير، قبل وفاته «صلى الله عليه وآله» بحوالي سبعين يوماً..

٣ ـ إن عدم تمكن النصوص من الإفصاح عن البيعات الثلاث الأخرى، كإفصاحها عن بيعة يوم الغدير، يمكن فهمه في ظل الأجواء التي هيمنت على الواقع الإسلامي كله، ولا سيما بعد استشهاد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، حيث اتجهت السياسات الصارمة إلى استبعاد، وطمس كل أثر لعلي «عليه السلام» في الواقع الإسلامي كله، ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً..

٤ ـ وربما تكون هذه البيعات في المواطن الثلاثة قد حصلت في نطاق محدود، ولأشخاص بأعيانهم لإلزامهم بالحجة، ولتغليظ العهود والمواثيق عليهم من الله ورسوله، ووليه، ليكون هذا التغليظ من أوكد الأسباب لخسرانهم، وبوار سعيهم، واستحقاقهم الخذلان من الله تعالى، لما علمه الله تعالى منهم من نوايا الغدر والنكث بعد استشهاد رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وقد شكلت هذه البيعات الكثير من الإحراج، فلجأوا إلى إقصائها عن دائرة التداول.

ولأجل ذلك لم تجد سبيلاً للانتشار بين عامة الناس. كما كان الحال

بالنسبة لبيعة الغدير، فإن التعتيم عليها كان فوق طاقتهم، رغم ما بذلوه في هذا السبيل، فإن حكمة رسول الله «صلى الله عليه وآله» وسياسات الأئمة، والرعاية الإلهية قد اعطت نتائجها المتوخاةن وحفظ الله دينه، وبقيت كلمة الله هي العليا، وحجته هي البالغة، وأمره هو الغالب.

أبو سفيان يجدد بيعته لعلي عليه السلام:

المروي: أن أبا سفيان لم يكن بالمدينة حين البيعة لأبي بكر، فلما رجع إليها لم يرض بما حصل، وجاء أمير المؤمنين «عليه السلام» يحثه على النهوض في وجه أبي بكر، وكان أمير المؤمنين «عليه السلام» يأبى ذلك.

بل لقد ذكرت بعض النصوص: أنه «عليه السلام» جبهه، ووصمه بالنفاق(١).

والنص المتقدم في الفصل السابق يصرح فيه أمير المؤمنين «عليه السلام»: بأن أبا سفيان قد سلم عليه بإمرة المؤمنين، ولم يزل يأتيه ملحاً عليه في النهوض لأخذ حقه، وكان يجدد له بيعته كلما أتاه.

---

(١) راجع: الإرشاد للشيخ المفيد ج١ ص١٩٠ وإعلام الورى ج١ ص٢٧١ وتاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٢ ص٤٤٩ والكامل في التاريخ ج٢ ص٣٢٦ والملاحم والفتن لابن طاوس ص٣٩٠ وبيت الأحزان ص٦٢ وبحار الأنوار ج٢٢ ص٥٢٠ والغدير ج٣ ص٢٥٣ و ٢٥٤ والدرجات الرفيعة ص٨٦ و ٨٧ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٣٠ وعن العقد الفريد ج٤ ص٨٥.

وهذه بيعات أخرى تضاف إلى البيعات الأربع في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله».

ولكن السؤال هنا هو: كيف تجتمع هذه البيعات مع ما تقدم من أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد جبه أبا سفيان، ووصمه بالنفاق؟! حين طلب منه القيام ضد أبي بكر؟!

ويمكن أن يجاب: بأن النص قد صرح بتعاقب مجيء أبي سفيان إلى علي «عليه السلام»، فلعل ما ذكروه من صده الشديد قد حصل في المرة الأخيرة، بعد أن لم تنفع المرات السابقة في منعه من مواصلة إصراره..

حلم علي عليه السلام، وتحكمات معاوية:

وقد ذكر النص المتقدم: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد تعامل مع معاوية بنفس الطريقة التي تعامل بها مع أصحاب الجمل.. فقد وجه إليه جرير بن عبد الله البجلي مرة، وأخا الأشعريين مرة، فكان يزداد تمادياً في انتهاك الحرمات.

فشاور أصحابه البدريين وصلحاء المسلمين، في غزوه، ومنعه مما نالت يده. فنهض إليه، ولكنه كان ينفذ إليه كتبه من كل موضع، ويوجه إليه رسله، ويدعوه إلى الرجوع فصار معاوية يتحكم عليه، ويتمنى عليه الأماني، ويشترط ما لا يرضاه الله عز وجل ورسوله ولا المسلمون..

ويلاحظ:

١ ـ أنه «عليه السلام» قد تعامل مع معاوية بالصفح وبمنتهى الحلم، والنصح للمسلمين، في محاولة منه لتجنيبهم المصائب والبلايا، وسفك

الدماء. وليظهر بذلك أيضاً بغي معاوية، وصلافة وجهه، وإيغاله في الغي، وإصراره على الباطل..

٢ ـ إنه «عليه السلام» حين يجرد الجيش لحرب معاوية إنما يريد أن يفهمه أن تعامله الرضي معه لا يعني الخوف، أو الضعف، بل هو سجاحة خلق، ورفق وتسامح وحلم..

٣ ـ إنه إنما حارب معاوية بعد أن تمادى في انتهاك الحرمات، وامتدت يده إلا ما لا يجوز السماح بامتدادها إليه، بل الواجب يفرض قطعها.

٤ ـ إنه «عليه السلام» لم يقل: إنه جرد الجيش لغزو معاوية للإيقاع به وقتله، بل قال: إنه يغزوه لمجرد منعه مما نالته يده. فالهدف من تجريد الجيش ليس هو سفك الدماء حتى دم المغامر المعتدي، بل الهدف هو كفه عن عدوانه، وإيقافه عند حده.

معاوية يستعلي بحمير:

وقد ذكر النص المتقدم في الفصل السابق: أن معاوية اشترط على علي «عليه السلام» أن يسلمه أقواماً من خيار الصحابة ليقتلهم ويصلبهم، بحجة مشاركتهم في قتل عثمان. وفيهم عمار بن ياسر وأضرابه..

فلما لم يستجب «عليه السلام» لشرطه «كر مستعلياً بطغيانه وبغيه بحمير لا عقول لهم ولا بصائر، فموه لهم أمراً فاتبعوه، وأعطاهم من الدنيا ما أمالهم به إليه».

وقد تضمنت كلماته هذه أموراً أشرنا إلى بعضها في ثنايا كتابنا هذا.. ونشير هنا أيضاً إلى ما يلي:

١ ـ إن معاوية ليس ولي دم عثمان، دون أبناء عثمان.

٢ ـ إنه حتى لو كان ولي دمه، فإن عليه أن يرفع الأمر إلى الإمام، ليحاكم المتهمين وفق الأصول والضوابط الشرعية..

٣ ـ ليس لولي الدم تولي الاقتصاص من القتلة إلا بعد حكم الحاكم والقاضي الذي هو الإمام. ومن خلاله.

٤ ـ لا يحق لمعاوية ولا لغيره صلب أحد في هذه الواقعة وأمثالها..

٥ ـ إن نفس اتهام معاوية لعمار وأمثاله، والسعي إلى قتلهم يدل على بغيه وظلمه، وعلى تعمده الكذب والافتراء والباطل، لعلم كل أحد ببراءة عمار وأضرابه من دم عثمان..

٦ ـ بالنسبة لوصف أصحاب معاوية بالحمير نقول:

إن مثل هذا التوصيف قد ورد في القرآن، فقد قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾[1].

ووصف الله من أتاه الله آياته فانسلخ منها بقوله: ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾[2].

فإن الذين كانوا مع معاوية، وإن كان فيهم من أضله الله على علم، وختم على قلبه، وكان عارفاً بالأمور، وهو يمارسها عن علم ودراية طمعاً

---

(١) الآية ٥ من سورة الجمعة.

(٢) الآية ١٧٦ من سورة الأعراف.

في حطام الدنيا، لكن الذين اعتمد عليهم معاوية في الوصول إلى مآربه كانوا من النوع الذي لا فهم عنده ولا بصيرة لديه..

ولكننا نجد في مقابل ذلك: أن أهل العراق بفضل جهود علي «عليه السلام» كانوا على درجة عالية من الوعي والفهم، وقد اعترف لهم معاوية بذلك في كلامه مع عكرشة بنت الأطرش.. وغير ذلك

وهذه من ميزات إمام الحق الذي يسعى لبث الوعي والمعرفة.. أما أئمة الباطل فيهمهم إبقاء الناس في ظلمات الجهل، وفي حمأة الرذيلة، ومنازل الذل والخزي.

متى أشار المغيرة بإبقاء معاوية:

إن كلام أمير المؤمنين «عليه السلام» في النص المتقدم يعطي: أن المغيرة بن شعبة إنما أشار عليه بإبقاء معاوية على الشام، بعد أن صار معاوية يغير على أطراف البلاد، ويتناول أطرافها. وأقبل يخبط البلاد بالظلم، ويطؤها بالغشم، وبعد أن شرع في أخذ البيعة لنفسه، فمن بايعه أرضاه، ومن خالفه ناوأه.. وهذا إنما تجلى في حرب الجمل فيما يظهر، لا حين البيعة له «عليه السلام».

وهو يؤيد ما ذكرناه: من أن إرسال العمال إلى البلاد قد سار بطريقة تدريجية، وأنه «عليه السلام» قد أرسل أكثر عماله إلى البلاد بعد حرب الجمل..

وإبقاء معاوية وهو يفعل هذه الأفاعيل، ويأخذ البيعة لنفسه ليس صواباً، بل هو دليل ضعف وخوف، وهو سيطمع معاوية، ويزيده جرأة،

ويجرئ غيره على الاقتداء به.

هذا فضلاً عما ورد في ذم معاوية، وإظهاره على حقيقته، ولا نريد أن نقول أكثر من هذا.

راية الرسول صلى الله عليه وآله مقابل راية حزب الشيطان:

وقد قرر «عليه السلام» في النص المتقدم في الفصل السابق:

١ ـ أنه أعذر وأنذر معاوية وحزبه أولاً.

٢ ـ وبعد أن تم له ذلك بادر إلى الحرب التي هي في الحقيقة رجوع إلى حكم الله تعالى في أمثالهم.. وحكمه هو لزوم إعطاء السيف دوره في حسم الموقف معهم. وهذا هو ما عناه «عليه السلام» بقوله: وحاكمناهم إلى الله عز وجل، بعد الإعذار والإنذار.

٣ ـ إنه إنما حاكمهم إلى الله، بعد أن لم يزد الإعذار والإنذار معاوية إلا بغياً وتمادياً.

٤ ـ إنه «عليه السلام» يقول: إن الله تعالى لم يزل يفلُّ حزب الشيطان براية رسول الله «صلى الله عليه وآله» التي كانت بأيديهم. فلم ينسب ما كان يتحقق على يديه وأيدي المؤمنين إلى نفسه، وإلى من معه منهم، بل هو ينسبه إلى راية رسول الله «صلى الله عليه وآله» التي هي راية الحق والصدق، والاستقامة على الهدى الإلهي والناس يعرفون:

أن نفس الراية ـ بما لها من وجود مادي حقيقي وعينية خارجية ـ كانت معه ومع أصحابه.

أما معاوية فهو يرفع رايات أبيه التي هي راية الشيطان، الممثلة للباطل والانحراف.

وكما قاتل «عليه السلام» هذه الراية مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» في كل المواطن، فها هو يقاتلها بعده «صلى الله عليه وآله».

رفع المصاحف بعد فناء خيار أصحابه عليه السلام:

وقد ذكر «عليه السلام»: أن رفع المصاحف في صفين كان بعد فناء خيار أصحابه، بعد أن بذلوا الجهد في جهاد أعداء الله حتى مضوا على بصائرهم، ولم يبق إلا الأراذل والأوباش، الذين كانوا يريدون تحاشي هذه الحرب بأية وسيلة كانت، فوجدت خديعة رفع المصاحف آذانهم لها صاغية، وجازت عليهم حيلة الطاغية.. رغم أن قتل عمار قد بين لهم من هي الفئة الباغية.

مع أن علياً «عليه السلام» دعاهم إلى القرآن قبل أن تعضهم الحرب بأنيابها، فرفضوا دعوته. ثم زالت كل شبهة بقتلهم عمار بن ياسر. ولم يعد مبرر لأي ريب وشك، فقبول خدعة رفع المصاحف معناها: العودة إلى الشك والشبهة من جديد..

وقد توافق قول الأشتر لهم حين أبوا إلا الاستجابة لرفع المصاحف مع قول علي «عليه السلام»، فقد قال لهم الأشتر: «وقتل أماثلكم وبقي أراذلكم».

واللافت هنا: أنه «عليه السلام» يصرح في النص المنقول عنه في الفصل السابق: بأنه «عليه السلام» راود أصحابه على الصبر مقدار فواق

الناقة[١] أو ركضة الفرس، فلم يجيبوه إلى ذلك ما خلا الأشتر، وعصبة من أهل بيته «صلوات الله وسلامه عليه وعليهم».

ماذا لو مضى على بصيرته؟!:

وقد صرح «عليه السلام»: بأنه لو لم يرض بما أراده معاوية من رفع المصاحف لقتل الحسنان «عليهما السلام»، وعبد الله بن جعفر، ومحمد بن الحنفية..

ومن الواضح: أن قتل الحسنين «عليهما السلام» سيوجب انقطاع نسل الرسول «صلى الله عليه وآله».. وبذلك ينقطع نظام الإمامة المتمثل بإمامته وإمامة الحسنين، وتسعة أئمة من ولد الحسين ـ وليس له «عليه السلام» أن يفرط في هذا الأمر، مهما بلغت الأمور. فإن الإمامة ملك للأجيال كلها إلى يوم القيامة..

وحين استشهد الإمام الحسين «عليه السلام» في كربلاء لم ينقطع نسل الرسول، بل بقي وحفظ في الإمام بعده، أعني الإمام السجاد «عليه السلام»..

على أن من الواضح: أن قتل الحسنين «عليهما السلام»، وكذلك علي «عليه السلام» سيكون في جو مشحون بالشبهات مفعم بالأراجيف، غارق بالأباطيل والأضاليل.. وسيكون هذا بالغ الضرر على الأمة، عظيم الخطر.

---

(١) الفواق: الوقت ما بين الحلبتين، لأنها تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر، ثم تحلب.

يمرقون بخلافهم على علي عليه السلام:

وقد روى المسلمون عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» وصفه الخوارج: بأنهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية. أما أصحاب الجمل، فقد وصفهم «صلى الله عليه وآله» بالناكثين، ووصف أهل صفين بالقاسطين، وأهل النهروان بالمارقين..

ولكن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد بين هنا أمراً مهماً، وهو يفيد: أن سبب مروق الخوارج من الدين هو خلافهم عليه، وحربهم إياه «صلوات الله وسلامه عليه».

وحسب تعبير بعض الأخوة: إن هؤلاء الذين أعانوا علياً «عليه السلام» على أعدائه، كان ظاهرهم هذا يعطي: أنهم سيكونون السهم الصائب على عدوه، والمصوب عليه، ولكن هذا السهم مرق وأفلت من الرمية، ولم يصب ذلك العدو، فلذلك سماهم الرسول «صلى الله عليه وآله» بالمارقين، وأطلق حديث مروق السهم من الرمية، ليبين حالهم بدقة بالغة.

أما أهل صفين فقد قسطوا وجانبوا وعدلوا عن الحق من أول أمرهم، فلم يتوافقوا معه، فسموا بالقاسطين.

أما الناكثون، فكان التشدد في أخذ العهود عليهم مرة بعد أخرى، ثم نكثهم بها جعل هذا النكث أظهر خصوصياتهم، فأطلق عليهم هذا الاسم.

ومهما يكن من أمر، فإننا إذا أخذنا بعموم التعليل، وهو أن يكون الخلاف على علي «عليه السلام» وحربه هو سبب خروجهم من الدين، فالنتيجة هي أن كل من حاربه «عليه السلام»، وخالف عليه، فإنه يمرق

بذلك من الدين. فيشمل ذلك أصحاب الجمل وصفين أيضاً.

فيرد سؤال: إذا صح هذا، فلماذا لم يصف النبي نفسه أصحاب الجمل وصفين بهذا الوصف أيضاً. بل اكتفى بوصف هؤلاء بالقاسطين، وأولئك بالناكثين؟!

ويمكن أن يجاب:

بأن من الممكن أن يكون «صلى الله عليه وآله» أراد أن يبين لهؤلاء وأولئك خصوصية أخرى تضاف إلى خصوصية المروق تجعل جرمهم أعظم، وعقوبتهم أشد، وهذه الخصوصية هي نكث أصحاب الجمل لبيعته، وقسط أصحاب صفين، وجورهم.

وغني عن البيان: أن للكفر مراتب، فقد عد القرآن من لا يؤدي فريضة الحج مثلاً كافراً، قال تعالى:

﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(١).

وأطلق وصف الكفر على من لم يشكر، قال تعالى: **﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾**(٢).

وأطلق على من لم يعمل صالحاً، وصف الكفر، فقال تعالى: **﴿مَنْ كَفَرَ**

---

(١) الآية ٩٧ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٤٥ من سورة النمل.

فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾(١).

كما أن اليهود والنصارى كفار بمرتبة من مراتب الكفر، وأشد منها مرتبة الشرك.. ولهذا البحث مجال آخر.

زهد وعبادة الخوارج:

وقد جاء في النص المذكور في الفصل السابق ما ربما يفهم منه: أنه «عليه السلام» بصدد الثناء على الخوارج بأنهم قوم من أصحابه يصومون النهار، ويقومون الليل. ثم أثنى على الفرقة التي خرجت عليه بالنخيلة، والأخرى التي خرجت عليه بحروراء، بقوله:

«وكانوا ـ يا أخا اليهود ـ لولا ما فعلوه ركناً قوياً، وسداً منيعاً». أي أنهم كانوا مظنة ذلك في ظاهر الأمر لمن يعرف بواطنهم قبل أن يفعلوا ما فعلوا.

أما الفرقة الثالثة التي وصفها بأنها راكبة رأسها تخبط الأرض شرقاً حتى عبرت دجلة، فلم تمر بمسلم إلا امتحنته، فمن تابعها استحيته، ومن خالفها قتلته ـ أما هذه الفرقة، فقد أثنى عليها بقوله: «وكانوا من جلة أصحابي، وأهل التعبد والزهد في الدنيا».

مع أن ثمة دلائل وشواهد أخرى تشير إلى عكس هذه المعاني فيهم، فكيف نجمع بين هذين الأمرين؟! أوليس علي «عليه السلام» أعرف

(١) الآية ٤٤ من سورة الروم.

بأصحابه، وأحق من دل على مزاياهم؟! فلماذا لا نأخذ بكلامه هذا، ونترك كل ما عداه؟!

ونجيب:

إن علينا أن نأخذ بعين الإعتبار مجموع ما يلي من نقاط واحتمالات:

١ ـ إن من الجائز أن يكون «عليه السلام» قد أجرى كلامه في وصفه لهم على ما هو ظاهر حالهم، ووفق ما هو معروف عنهم بين الناس. ولا يجب أن يكون هذا الظاهر متوافقاً مع الباطن وواقع الأمر. فقد يتظاهر شخص أو جماعة بالزهد والتقوى، والعبادة، وهم إنما يطلبون الدنيا بالدين..

٢ ـ والشاهد على ذلك: ما روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» من أنه قال في وصفهم: «يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم»[1]، فدلنا بذلك: على أن

(١) راجع على سبيل المثال في أمثال هذه العبارات ما يلي: مسند أحمد ج١ ص٨٨ و ٩٢ و ١٠٨ و ١١٣ و ١٣١ و ١٤٧ و ١٥١ و ١٥٦ و ١٦٠ و ٢٥٦ و ٤٠٤ و ٤١١ و ٤٤١ و ٤٣٥ و ٣٨٠ و ٣٩٥ وج٢ ص٢٠٩ و ٢١٩ وج٣ ص٥ و ١٥ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٨ و ٣٩ و ٥٢ و ٥٦ و ٦٠ و ٦٤ و ٦٥ و ٦٨ و ٧٣ و ١٥٩ و ١٨٣ و ١٩٧ و ٢٢٤ و ٣٥٣ و ٤٨٦ وج٤ ص٤٢٢ و ٤٢٥ وج٥ ص٣١ و ٤٢ و ١٤٦ وراجع: ص٢٥٣ ومجمع الزوائد ج٦ ص٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣١ و ٢٧ و ٢٣٠ و ٢٣٢ و ٢٣٥ و ٢٣٩ وج٩ ص١٢٩ ومستدرك الحاكم ج٢ ص١٥٤ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٤٦ و ١٤٥ وكشف الأستار عن مسند البزاز

ج٢ ص٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٣ و ٣٦٤ والجوهرة في نسب علي «عليه السلام» وآله ص١٠٩ والمعجم الصغير ج٢ ص١٠٠ والمصنف للصنعاني ج١ ص١٤٦ و ١٤٨ و ١٥١ و ١٥٤ و ١٥٧ وكنز العمال ج١١ ص١٢٦ و ١٨٠ و ١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٣١ و ١٧٥ و ١٨٢ و ٢٧١ و ٣١٢ عن مصادر كثيرة وكفاية الطالب ص١٧٥ و ١٧٦ وتاريخ بغداد ج١٢ ص٤٨٠ وج١٠ ص٣٠٥ والعقود الفضية ص٦٦ و ٧٠ والمغازي للواقدي ج٣ ص٩٤٨ والإصابة ج٢ ص٣٠٢. والغدير ج١٠ ص٥٤ و ٥٥ عن الترمذي ج٩ ص٣٧ وسنن البيهقي ج٨ ص١٧٠ و ١٧١ وتيسير الوصول إلى علم الأصول ج٤ ص٣١ و ٣٢ و ٣٣ عن الصحاح الستة كلها، وعن أبي داود ج٢ ص٢٨٤ وفرائد السمطين ج١ ص٢٧٦ ونظم درر السمطين ص١١٦ والإلمام ج١ ص٣٥ والخصائص للنسائي ص١٣٦ و ١٣٧ حتى ص١٤٩ وميزان الاعتدال ج٢ ص٢٦٣ ترجمة عمر بن أبي عائشة وأسد الغابة ج٢ ص١٤٠ وتاريخ واسط ص١٩٩ والتنبيه والرد ص١٨٢ وصحيح البخاري ج٢ ص١٧٣ وج٤ ص٤٨ و ١٢٢ ومناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي ص٥٣ و ٥٧ والجامع الصحيح للترمذي برقم ٣٨٩٦ وصحيح مسلم ج١ ص١٠٦٣ و ١٠٦٤ وفي هامش مناقب المغازلي عن الإصابة ج٢ ص٥٣٤ وعن تاريخ الخلفاء ص١٧٢ وراجع: إثبات الوصية ص١٤٧ وذخائر العقبى ص١١٠ والمناقب للخوارزمي ص١٨٢ وأحكام القرآن للجصاص ج٣ ص٤٠٠ ونور الأبصار ص١٠٢.

وراجع: نزل الأبرار ص٥٧ ـ ٦١ والرياض النضرة ج٣ ص٢٢٥ وراجع ص٢٢٦ و

عبادتهم وصلاتهم وقراءتهم القرآن لا تجاوز المظاهر، ولا تدخل إلى القلوب والبواطن..

٣ ـ إن وصف أمير المؤمنين «عليه السلام» لهم: بأنهم «معاشر أخفاء الهام سفهاء الأحلام»(١) يدل على ذلك أيضاً، فإن من كان سفيهاً، خفيف العقل، لا تفيده العبادة في تزكية نفسه، وتصحيح سلوكه، ولا توجب قربه من ربه، لأنه لا يتفاعل مع مضامينها، ولا يسترشد بمعانيها.

٤ ـ إن ما وصف «عليه السلام» به أصحاب النخيلة وحروراء ليس ثناء، إذ قد يكون الأحمق والسفيه، وكذلك الفاسق سداً منيعاً في وجه

---

٢٢٤ والفصول المهمة لابن الصباغ ص٩٤ والبداية والنهاية ج٧ ص٣٧٩ حتى ٣٥٠ عن مصادر كثيرة ومن طرق كثيرة جداً، وتذكرة الخواص ص١٠٤ وشرح النهج للمعتزلي ج١٣ ص١٨٣ وج١ ص٢٠١ وج٢ ص٢٦١ و ٢٦٦ و ٢٦٨ و ٢٦٩ والكامل في التاريخ ج٣ ص٣٤٧. وتتبع مصادر هذا الحديث متعذر، فنكتفي هنا بهذا القدر.

(١) راجع: الموفقيات ص٣٢٧ ونهج البلاغة (بشرح عبده) ج١ ص٨٧ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٣٥٧ ونهج السعادة ج٢ ص٣٩٣ وميزان الحكمة ج١ ص٧٣٤ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٢ ص٢٦٥ وتاريخ الأمم والملوك ج٤ ص٦٣ ومصباح البلاغة للميرجهاني ج١ ص١٠٨ والكامل في التاريخ ج٣ ص٣٤٤ وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» في الكتاب والسنة والتاريخ ج٦ ص٢٧٢ و ٣٦٦ و ٣٧٠ وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج٣٢ ص٥٣٤.

العدو،إذا اتخذ قراراً بمواجهته، ولو لأجل الحصول على حطام الدنيا، أو إذا اتخذ موقفه بدافع العصبية لعشيرته، أو لحزبه، أو لمن له بهم هوى..

٥ ـ أما الفرقة الثالثة، وهم الذين ذهبوا يخبطون الأرض شرقاً وغرباً، وفعلوا ما فعلوا حتى قتلهم «عليه السلام»، وهم أربعة آلاف أو يزيدون، فلا يمنع أن يكونوا أيضاً ممن يكثرون الصلاة والصيام، ويظهرون الزهد في الدنيا، فصارت لهم بسبب ذلك وجاهة واحترام عند الناس، وأحسنوا بهم ظنهم، مع غفلة الناس عن أنهم كانوا مشمولين أيضاً لأقوال النبي «صلى الله عليه وآله»، وأقوال أمير المؤمنين «عليه السلام»..

وبعبارة أخرى: إن جلالة هؤلاء أو بعضهم بين أصحابه «عليه السلام» وكذلك زهدهم الظاهر وعبادتهم الكثيرة لا تدل على استحقاقهم لهذا الإجلال والتكريم.. وقد أظهر فعلهم القبيح بعد ذلك، المتمثل باستحياء من تابعهم وقتل من خالفهم أنهم كانوا لا يستحقون أي شيء من التكريم والتعظيم، وأن باطنهم يخالف ظاهرهم.

٦ ـ على أن من المعلوم عند الخاص والعام: أن هناك من يقضي حياته في الكفر والشرك أو في المعاصي والمآثم، ثم يختار طريق الإسلام والإيمان، والتوبة والطاعة للملك الديان، ويؤثر رضا الرحمان على طاعة الشيطان حتى يصبح من الأبرار الأخيار..

وهناك من يقضي حياته بالطاعة والعبادة ثم ينقلب على عقبيه في آخر عمره فيخسر الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى**

عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[١].

فلماذا لا يكون هؤلاء ممن قضى عمره في الطاعة، ثم خرجوا منها إلى معصية الله وخذلانه، لأن الشيطان استزلهم ببعض ما كسبوا؟! قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾**[٢].

ومن الذي قال: إن ظاهرة إبليس لا تتكرر في أوليائه، فيظهرون الإيمان والطاعة، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون؟!

---

(١) الآية ١٤٤ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١٥٥ من سورة آل عمران.

الباب الخامس:

علي عليه السلام والعمال..

الفصل الأول:

علي عليه السلام ونصب العمال..

الولاةُ الذين أبقاهم عليٌّ عليه السلام:

وقد ذكر اليعقوبي: أنَّ أبا موسى الأشعري هو الوالي الوحيد الذي ظل في منصبه من ولاة عثمان(١).

ونقول:

إنَّ هذا غير صحيحٍ، فقد أبقى «عليه السلام» أيضاً:

١ ـ حذيفة بن اليمان الذي تولى المدائن لعثمان ثم أبقاهُ عليٌّ «عليه السلام» عليها، وكتابُ العهد الذي أرسله إليه معروفٌ ومتداولٌ(٢)، ولكن أيامه لم تطل، حيثُ يُقال: إنَّهُ توفي بعد أربعين يوماً(٣)، وقيل: بعد

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٧٩.

(٢) راجع: إرشاد القلوب ص٣٢١ و٣٢٢ والدرجات الرفيعة ص٢٨٨ وبحار الأنوار ج٢٨ ص٨٧ و ٨٨ وكشف اليقين ص١٣٧ ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٤ ص٩٥ وجامع أحاديث الشيعة ج١٣ ص٢٠٢ ونهج السعادة ج٤ ص١٩ وأعيان الشيعة ج٤ ص٦٠٤.

(٣) المستدرك للحاكم ج٣ ص٣٨٠ والتاريخ الصغير ج١ ص١٠٥ والتاريخ الكبير ج١ ص١٢ وج٣ ص٩٥ ومروج الذهب ج٢ ص٣٩٤ وتاريخ مدينة دمشق

سبعة أيام(١).

٢ ـ حبيب بن المنتجب، فإنَّهُ كان والياً على بعض أطراف اليمن من قبل عثمان، ثم أبقاه عليٌ «عليه السلام»(٢).

ولا ندري إن كان من قال: إنَّ علياً «عليه السلام» لم يبق من ولاة

ج١٢ ص٣٠٠ و ٣٠١ و ٣٠٢ وج٥٥ ص٢٦١ ومستدرك سفينة البحار ج٥ ص٢١٢ وعمدة القاري ج٢ ص١٢ وج١٦ ص٢٨٣ وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ص٧٤ والإكمال في أسماء الرجال ص٤٢ ومعرفة الثقات للعجلي ج١ ص٢٨٩ والثقات لابن حبان ج٣ ص٨٠ ومشاهير علماء الأمصار ص٧٤ وتاريخ بغداد ج١ ص١٧٥ والتعديل والتجريح ج٢ ص ٥٥٢ وأسد الغابة ج١ ص٣٩٢ وتهذيب الكمال ج٥ ص٤٩٩ والإصابة ج٢ ص٣٩ وتهذيب التهذيب ج٢ ص١٩٣ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص٤٩٣ والوافي بالوفيات ج١١ ص٢٥٢ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٦ ص٢٣٢ والدرجات الرفيعة ص٢٨٨ وأعيان الشيعة ج٤ ص٥٩١ و ٥٩٩ و ٦٠٥ والفصول المهمة لابن الصباغ ج١ ص٣٩.

(١) مروج الذهب ج٢ ص٣٩٤ والدرجات الرفيعة ص٢٨٨ وأعيان الشيعة ج٤ ص٥٩١ و ٥٩٩ والفصول المهمة لابن الصباغ ج١ ص٣٩.

(٢) بحار الأنوار ج٤٢ ص٢٥٩ ومستدركات علم رجال الحديث للنمازي ج٢ ص٣٠٤.

عثمان غير أبي موسى قد أراد أن يمنح أبا موسى وسام المقبولية عند الناس وعند عليٍ «عليه السلام»، وأن يؤكد عدالته، وإستقامته، وولاءه، ليُخفف من حدة النقد الموجه إليه بسبب ما فعله في قضية التحكيم، ويزيل من النفوس آثار تصرفاته ومواقفه السيئة في كثيرٍ من الأوقات، والحالات.

علي عليه السلام يرسل عماله إلى البلاد:

ويقولون: إنه «عليه السلام» دعا بابن أخته جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي، فعقد له عقداً، وولاه على بلاد خراسان، وأمره بالمسير إليها، ليفتتح ما بقي منها.

ثم دعا بعبد الرحمان، مولى بديل بن ورقاء الخزاعي، فعقد له عقداً، وأمره بالمسير إلى أرض الماهين (وهي الدينور، ونهاوند وإحداهما: ماه الكوفة، والأخرى ماه البصرة[1]) أميراً وعاملاً عليها.

ووجه بعماله إلى جميع البلاد التي كانت تحت طاعته، فسمع القوم وأطاعوا[2].

---

(١) معجم البلدان (ط دار إحياء التراث العربي) ج٥ ص٣١٣ وفتوح البلدان ج٢ ص٣٧٥ وراجع: معجم ما استعجم ج٤ ص١٤١٢ وبحار الأنوار ج٥٥ ص٣٣٤ عن القاموس ج٤ ص٢٩٣.

(٢) الفتوح لابن أعثم (ط الهند) ج٢ ص٣٦٨ و ٣٦٩ و (ط دار الأضواء) ج٢ ص٤٤٧.

قال ابن حبان: «وأقام بالبصرة خمسة عشر يوماً. ثم خرج إلى الكوفة، وولى على البصرة عبد الله بن عباس، وولى الولاة في البلدان، وكتب إلى المدن بالقرار والطاعة»(١).

وذكروا أيضاً: أن علياً «عليه السلام» ولى عبيد الله بن عباس اليمن، فوصلها وقد خرج يعلى بن أمية بالأموال وبالحامية إلى مكة(٢).

وهذا يشير إلى أن هذا قد حصل بعد البيعة مباشرة.

وكذلك الحال بالنسبة لتولية عثمان بن حنيف البصرة، وإبقاء أبي موسى على الكوفة كما سنشير إليه.

وقال الدينوري: إنه «عليه السلام» بعد أن عاد من حرب الجمل إلى الكوفة: «وجه عماله إلى البلدان، فاستعمل على المدائن وجوخى(٣) كلها يزيد بن قيس الأرحبي. وعلى الجبل وأصبهان محمد بن سليم، وعلى البهقباذات قرظ بن كعب، وعلى كسكر وحيزها قدامة بن عجلان الأزدي، وعلى بهرسير وإستانها عدي بن الحارث. وعلى إستان العالي حسان بن عبد الله البكري. وعلى إستان الزوابي سعد بن مسعود الثقفي. وعلى سجستان

---

(١) الثقات لابن حبان ج٢ ص٢٨٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٤٦٣ والفتنة ووقعة الجمل ص١٠١ والكامل في التاريخ ج٣ ص٢٠٢ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق١ ص١٥٢.

(٣) كورة واسعة في سواد بغداد.

وحيزها ربعي بن كاس. وعلى خراسان كلها خليد بن كاس»[١].

وقال: «واستعمل على الموصل، ونصيبين، ودارا، وسنجار، وآمد، وميافارقين، وهيت، وعانات، وما غلب عليها من أرض الشام الأشتر.

فسار إليها، فلقيه الضحاك بن قيس الفهري، وكان عليها من قبل معاوية بن أبي سفيان. فاقتتلوا بين حران والرقة، بموضع يقال له: المرج. إلى وقت المساء.

فبلغ ذلك معاوية، فأمد الضحاك بعبد الرحمان بن خالد بن الوليد في خيل عظيمة.

فبلغ ذلك الأشتر، فانصرف إلى الموصل، فأقام بها يقاتل من أتاه من أجناد معاوية. ثم كانت وقعة صفين»[٢].

وولى أيضاً: عمر بن أبي سلمة البحرين[٣].

---

(١) الأخبار الطوال ص١٥٣.

(٢) الأخبار الطوال ص١٥٤.

(٣) راجع: نهج البلاغة، الكتاب رقم ٤٢ وقاموس الرجال ٨ ص١٥٦ عنه، وبحار الأنوار ج٣٢ ص١٦٨ و ١٦٩ وج٣٣ ص٥١٥ ونهج السعادة ج٤ ص٢٢٧ وتحفة الأحوذي ج٥ ص٤٨٠ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٦ ص٢١٩ وج١٦ ص١٧٣ وجامع الرواة للأردبيلي ج١ ص٦٣٠ والدرجات الرفيعة ص١٩٨ وتهذيب الكمال ج٢١ ص٣٧٤ والإصابة ج٤ ص٤٨٧ وتقريب التهذيب ج١ ص٧١٨ وتهذيب التهذيب ج٧ ص٤٠١ والأعلام للزركلي ج٥

وقال البلاذري: ولاه علي «عليه السلام» البحرين، ثم على فارس، ويقال: ولاه حلوان، وماه، وماسبذان(١).

متى أرسل عليه السلام عماله إلى البلاد؟!:

يبدو: أن علياً «عليه السلام»، لم يتعامل مع البلاد المختلفة فيما يرتبط بإرسال ولاته إليها بطريقة واحدة، بل بأنحاء متفاوتة، وفق ما تقتضيه الحكمة، وتمليه الأحوال والظروف.

فأما بالنسبة إلى معاوية، فقد أرسل إليه يطلب منه القدوم عليه مع أعيان أهل الشام، لحكمة ستأتي الإشارة إليها.

وأما بالنسبة إلى الكوفة، فقد صبر حتى أتته بيعتهم، ثم رأى أن يبقى أبا موسى عليها، لأمور سنتحدث عنها حين نصل إلى الحديث عن مسيره «عليه السلام» إلى حرب الجمل، وامتناع أبي موسى عليه، وسعيه لتثبيط الناس عنه.

وأعلم حذيفة بن اليمان بأنه أبقاه على المدائن.

وبعد أن بايعه أهل البصرة، وجاؤوا لتهنئته، أرسل عثمان بن حنيف عليها.

كما أنه «عليه السلام» لم يرسل إلى مكة أحداً حتى تحرك نحو البصرة،

ص٥١ والمعارف لابن قتيبة ص١٣٦ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٠١ وتاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٤٧٠ و ٤٧١.

(١) راجع: أنساب الأشراف ج١ ص٤٣٠ وقاموس الرجال ج٨ ص١٥٧ و ١٥٨ عنه.

فأرسل حينئذٍ قثم بن العباس إليها..

أما مصر، فإنه «عليه السلام» لم ير حاجة لإرسال أحد إليها، إلى أن انقضت حرب الجمل، فأرسل إليها قيس بن سعد..

وأرسل بعد حرب الجمل سائر عماله على البلاد كما سنرى.

متى تولى قيس على مصر؟!:

وزعموا: أن قيس بن سعد قد تولى مصر بعد البيعة لعلي «عليه السلام» مباشرة.

وستأتي قصة مفتعلة حول هذا الأمر في الفصل التالي.

غير أننا نقول:

إن ذلك لا يصح. بل كانت ولايته «رحمه الله» لمصر بعد حرب الجمل، ودليلنا على ذلك:

١ ـ سيأتي ذكر قيس بن سعد في رسالته «عليه السلام» لجرير بن عبد الله البجلي.

٢ ـ ورد ذكره «رحمه الله» في سياق كلام المنذر بن الجارود: الذي دل على أن قيساً كان في جملة القادة الذين دخلوا البصرة، وكان على ألف..

فدل هذا وذاك: على أن قيساً لم يكن قد ذهب إلى مصر.

وهو يؤكد ما قلناه، من أنه «عليه السلام» إنما أرسل عماله إلى البلاد بعد حرب الجمل، كما ذكره الدينوري وغيره..

٣ ـ وقد ورد في بعض النصوص التي ستأتي إن شاء الله ذكر قيس بن

سعد في جملة من أرسلهم علي «عليه السلام» إلى الكوفة لعزل أبي موسى، ودعوة أهلها إلى نصرته[١].

٤ ـ وقد خطب قيس في أهل الكوفة في هذه المناسبة[٢].

٥ ـ كما أنه قد حضر حرب الجمل. وله أشعار فيها خاطب بها أمير المؤمنين «عليه السلام»[٣].

سؤال.. وجوابه:

ولكن ما تقدم يتعارض مع قولهم في مقابل ذلك: إنه «عليه السلام» أرسله والياً على مصر بمجرد البيعة له «عليه السلام».

فكيف نجمع بين الأمرين؟! لا سيما وأن البلاذري، وابن الأثير، وابن مسكويه قد أيد هذا القول الأخير، فقد قال البلاذري: «وقال قوم: كان قيس بن سعد بن عبادة مع الحسن وعمار.

والثبت: أن علياً «عليه السلام» ولى قيساً مصر ـ وهو بالمدينة ـ حين

(١) راجع: الجمل للشيخ المفيد ص٢٤٣ و ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٤٦ و ٣٩٨ و (ط مكتبة الدواري ـ قم) ص١٣١ و ١٣٢ والغدير ج٢ ص٧٦.

(٢) الجمل للشيخ المفيد ص٢٤٦ و (ط مكتبة الدواري ـ قم) ص١٣٣ والأمالي للطوسي ص٧١٩ وبحار الأنوار ج٣٢ ص٧٣ .

(٣) الجمل للشيخ المفيد ص٣٤٢ و ٣٤٣ والأمالي للطوسي ص٧٢٠ وبحار الأنوار ج٣٢ ص٧٤ والغدير ج٢ ص٧٦.

ولى عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب اليمن. ثم إنه عزله عن مصر، وقدم المدينة، وشخص هو وسهل بن حنيف إلى الكوفة، فشهدوا صفين والنهروان معه، وأنه لم يوجد مع الحسن إلا عمار بن ياسر»[١].

وقالوا أيضاً: إنه «عليه السلام» بعد البيعة له، واستئذان طلحة والزبير بالذهاب إلى مكة أمر الناس بالتجهز إلى الشام، وكتب إلى قيس بن سعد، وعثمان بن حنيف، وإلى أبي موسى: أن يندبوا الناس إلى أهل الشام[٢].

ونجيب:

أولاً: إنه لا مانع من أن يولى «عليه السلام» قيس بن سعد على مصر بعد البيعة له «عليه السلام» مباشرة، ثم يحضر قيس إلى المدينة بعد أشهر خصوصاً عند ذهاب طلحة والزبير إلى مكة، وكتابة علي له بالقدوم إليه.. ويحضر حرب الجمل، فإن البيعة لعلي «عليه السلام» كانت في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ. ق. كما تقدم.

ثانياً: إنهم يصرحون: بأن مصر كانت بيد محمد بن أبي حذيفة إلى أن قتل، فأرسل «عليه السلام» إليها قيس بن سعد، فدخلها مستهل ربيع الأول، وتولاها مدة أربعة أشهر وخمسة أيام، انتهت في خامس شهر رجب

(١) أنساب الأشراف (بتحقيق المحمودي) ج٢ ص٢٣٥.

(٢) الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٠٤ وتجارب الأمم ج١ ص٣٠١ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٤٧ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص١٥٣ والفصول المهمة لابن الصباغ ج١ ص٣٦٩ و ٣٧٠.

سنة سبع وثلاثين(١).

وكان قتل محمد بن أبي حذيفة في ذي الحجة سنة ست وثلاثين(٢).

ثالثاً: إن تاريخ الكتاب الذي كتبه علي «عليه السلام» مع قيس إلى أهل مصر هو الرابع من صفر سنة ست وثلاثين(٣).

وبذلك يظهر: أن ابن تغري بردى قد غلط وناقض نفسه حين قال: إن السنة التي تولى في بعضها قيس بن سعد على مصر هي سنة ست وثلاثين(٤).

إلا أن يقال: إن كتابة كتاب الولاية كانت في سنة ست وثلاثين، لكن وصول قيس إلى مصر، وإمساكه بالأمور بالفعل كانت في أول شهر ربيع

(١) النجوم الزاهرة ج١ ص٩٧ وراجع ص٩٤ و ٩٥ والولاة والقضاة للكندي ص٢٢ و ٢٠ والخطط للمقريزي ج٩ ص٣٠٠ والغدير ج٢ ص٧١ وراجع: تاريخ مدينة دمشق ج٤٩ ص٤٠٢.

(٢) راجع: تاريخ مدينة دمشق ج٥٢ ص٢٧٣ عن ولاة مصر للكندي ص٤٣ وإمتاع الأسماع ج٦ ص١٥٧ وسير أعلام النبلاء ج٣ ص٤٧٩ ـ ٤٨١ .

(٣) النجوم الزاهرة ج١ ص٩٨ والغارات للثقفي ج١ ص٢١١ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٥٣٥ ونهج السعادة ج٤ ص٢٨ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٦ ص٥٩ والدرجات الرفيعة ص٣٣٧ والبداية والنهاية ج٧ ص٢٨٠ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص١٦٧ .

(٤) النجوم الزاهرة ج١ ص١٠١.

الأول سنة سبع وثلاثين[١].

رابعاً: ظاهر كلام المقدسي: أن علياً «عليه السلام» قد ولى قيساً على مصر بعد انتهاء حرب الجمل..

فقد قال بعد انتهائه من ذكر أحداث حرب الجمل، وخطبته في أهل البصرة:

«يا جند المرأة، يا تُبَّاع البهيمة، رغا فأجبتم، وعقر فانهزمتم، أخلاقكم رقاق، وأعمالكم نفاق، وماؤكم زعاق[٢].

ثم ولاها ـ أي البصرة ـ عبد الله بن العباس، حبر الأمة، وولى مصر قيس بن سعد بن عبادة، وولى خراجها ماهوي، دهقان مرو، قاتل يزدجرد، وخرج علي إلى الكوفة»[٣].

---

(١) الخطط للمقريزي ج٩ ص٣٠٠. وراجع: فتوح مصر وأخبارها ص٤٥٨.

(٢) البدء والتاريخ ج٥ ص٢١٦ وراجع: نهج البلاغة ج١ ص٤٤ ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٢ ص١٨ والأمالي للشيخ الطوسي ص٧٠١ و ٧٠٢ والإحتجاج للطبرسي ج١ ص٢٥٠ وبحار الأنوار ج٣٢ ص٢٢٥ و ٢٣٦ و ٢٤٥ و ٢٥٤ ومستدرك سفينة البحار ج١ ص٣٦١ وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج٥ ص٣٩٢ ونهج السعادة ج١ ص٣٢٢ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١ ص٢٥١ وتفسير القمي ج٢ ص٣٣٩ والتفسير الصافي ج٥ ص٩٧ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص١٧٢ والمناقب الخوارزمي ص١٨٩.

(٣) البدء والتاريخ ج٥ ص٢١٦.

خامساً: هناك ما يدل على حضور قيس حرب الجمل، وله شعر فيها يخاطب به أمير المؤمنين «عليه السلام»، فراجعه[1].

أدلة توليته قيس حين البيعة لعلي عليه السلام:

ونجد في مقابل ذلك: أن ثمة من ينكر ذلك، ويؤكد على عدم صحته، وأن الصحيح هو: أن قيساً قد تولى مصر بعد البيعة لعلي «عليه السلام» مباشرة..

ويستدل على ذلك.. بما يلي:

أولاً: ما تقدم عن البلاذري وابن الأثير، وغيرهما..

ثانياً: قولهم: خرج إلى حرب الجمل، ورجع وقيس على مصر. وتصريحهم: بأنه ولاه إياها بعد مقتل عثمان[2].

ثالثاً: القصة المفصلة التي تذكر ما جرى لعمال علي «عليه السلام» حين أرسلهم إلى البلاد بعد بيعته، وما جرى في الكوفة بين عمارة بن شهاب، أو (عمارة بن حسان بن شهاب)، وطليحة بن خويلد، حيث أجبره طليحة على الرجوع.

---

(١) الجمل للشيخ المفيد ص٣٤٢ و ٣٤٣ و (ط مكتبة الدواري ـ قم) ص١٣٠ و ١٣١.

(٢) تجارب الأمم ج١ ص٣٣١ والغارات للثقفي ج١ ص٢١٢ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٥٣٦ والغدير ج٢ ص٧١ والدرجات الرفيعة ص٣٣٧ وأنساب الأشراف ص٣٩٠ وأعيان الشيعة ج٨ ص٤٥٣.

وقصة إجبار سهل بن حنيف على الرجوع عن الشام.. وتفصيل القصة كما ذكره ابن حبان كما يلي:

«ثم أخذ بما أشار عليه أبو أيوب الأنصاري وعزم على المقام بالمدينة، وبعث العمال على الأمصار، فبعث عثمان بن حنيف على البصرة أميراً، وعمارة بن حسان بن شهاب على الكوفة، وعبيد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد على مصر، وسهل بن حنيف على الشام.

فأما سهل بن حنيف، فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيه خيل من أهل الشام، فقالوا له: من أنت؟!

قال: أمير.

قالوا: على أي شيء؟!

قال: على الشام.

قالوا: إن كان عثمان بعثك فحي هلا بك. وإن كان بعثك غيره فارجع.

قال: ما سمعتم بالذي كان؟!

قالوا: بلى، ولكن ارجع إلى بلدك.

فرجع إلى علي. وإذا القوم أصحاب[١].

وأما قيس بن سعد، فإنه انتهى إلى أيلة، فلقيه طلائع، فقالوا له: من أنت؟!

---

(١) في العبارة سقط، ولعل الأصل: «إذا القوم أصحاب معاوية».

فقال: أنا من الأصحاب الذين قتلوا وشردوا من البلاد، فأنا أطلب مدينة آوي إليها.

فقالوا: من أنت؟!

قال: أنا قيس بن سعد بن عبادة.

فقالوا: امض بنا.

فمضى قيس حتى دخل مصر، وأظهر لهم حاله، وأخبرهم أنه ولي على مصر.

فافترق عليه أهل مصر فرقاً: فرقة دخلت في الجماعة وبايعت. وفرقة أمسكت واعتزلت. وفرقة قالت: إن قيد من قتله عثمان فنحن معه، وإلا فلا.

فكتب قيس بن سعد بجميع ما رأى من أهل مصر إلى علي.

وأما عبيد الله بن عباس، فإنه خرج منطلقاً إلى اليمن لم يعانده أحد، ولم يصده عنها صاد، حتى دخلها فضبطها لعلي.

وأما عمارة بن حسان بن شهاب، فإنه أقبل عامداً إلى الكوفة، حتى إذا كان بزبالة لقيه طليحة بن خويلد الأسدي، وهو خارج إلى المدينة يطلب دم عثمان، فقال طليحة: من أنت؟!

قال: أنا عمارة بن حسان بن شهاب.

قال: ما جاء بك؟!

قال: بعثت إلى الكوفة أميراً.

قال: ومن بعثك؟!

قال: أمير المؤمنين علي.

قال: إلحق بطيتك (كذا)، فإن القوم لا يريدون بأميرهم أبى موسى الأشعري بدلاً.

فرجع عمارة إلى علي، وأخبره الخبر، وأقام طليحة بزبالة.

وأما عثمان بن حنيف، فإنه مضى يريد البصرة وعليها عبد الله بن عامر بن كريز. وبلغ أهل البصرة قتل عثمان، فقام ابن عامر، فصعد المنبر، وخطب، وقال: إن خليفتكم قتل مظلوماً، وبيعته في أعناقكم، ونصرته ميتاً كنصرته حياً. واليوم ما كان أمس [ولي عليكم اليوم ما كان لي بالأمس](١)، وقد بايع الناس علياً، ونحن طالبون بدم عثمان، فأعدوا للحرب عدتها.

فقال له حارثة بن قدامة: يا بن عامر، إنك لم تملكنا عنوة، وقد قتل عثمان بحضرة المهاجرين والأنصار، وبايع الناس علياً، فإن أقرك أطعناك، وإن عزلك عصيناك.

فقال ابن عامر: موعدك الصبح.

فلما أمسى تهيأ للخروج وهيأ مراكبه(٢).

وقد ناقشنا هذه الرواية بما فيه الكفاية.

---

(١) الفتوح لابن أعثم ج٢ ص٢٦٩ والثقات لابن حبان ج٢ ص٢٧٣ وراجع: الفتنة ووقعة الجمل ص٩٩ و ١٠٠ وتاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٤٦٢ والكامل في التاريخ ج٣ ص٢٠١ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٤٦.

(٢) الثقات لابن حبان ج٢ ص٢٧٣ و ٢٧٤.

فأولاً: لو كانت خيل معاوية تبلغ تبوك، لكانت الأردن وفلسطين ومصر تحت سيطرة معاوية، مع أن الأمر لم يكن كذلك..

ثانياً: المفروض: أن الكوفة قد بايعت علياً «عليه السلام» فور علمها بالبيعة له، فما معنى رجوع عامله لقول طليحة؟! وقد أبقى علي «عليه السلام» أبا موسى على الكوفة.

ثالثاً: إن ما ذكر عن طليحة بن خويلد لا يصح أيضاً، وسيأتي الوجه في ذلك في موضع آخر[1].

رابعاً: ولو سلم ذلك فلماذا لم يواصل طليحة مسيره إلى المدينة؟! ولماذا أقام بزبالة؟! وكيف تعامل معه علي «عليه السلام»؟! وماذا كان مصيره؟!

خامساً: إن الطريقة التي يزعمون: أن قيساً دخل فيها إلى مصر غير مقبولة، ولا معقولة، فإنه إذا كان نفوذ أهل الشام تجاوز الأردن، وفلسطين حتى بلغ أيلة وتبوكاً، فقد كان بإمكانهم محاصرة مصر منذئذٍ والإستيلاء عليها، ومنع أي كان من الناس من الوصول إليها، لا سيما مع وجود هذه المسافات الشاسعة، والمساحات الواسعة التي تقع تحت سيطرتهم، ويمكنهم إسقاط ذلك البلد البعيد والإستيلاء عليه بأدنى جهد.. ولا سيما إذا كان الناس فيها ثلاث فرق: فرقة بايعت علياً «عليه السلام». وفرقة أمسكت واعتزلت. وفرقة اشترطت الإقادة من قتلة عثمان.

---

(١) راجع هذا الجزء تحت عنوان: «عمارة بن شهاب وطليحة».

دليل ابن الأثير:

وقد استدل ابن الأثير على أن محمد بن حذيفة كان حين تولية قيس حياً: بأن علياً «عليه السلام» قد ولى قيساً على مصر أول ما بويع له، ولو أن ابن أبي حذيفة قتله معاوية وعمرو قبل وصول قيس إلى مصر لاستوليا عليها، لأنه لم يكن بها أمير يمنعهما عنها(١).

ولا خلاف في أن استيلاء معاوية وعمرو بن العاص على مصر قد كان بعد حرب صفين.

واستشهد برواية تقول: إن محمد بن أبي حذيفة أخرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن مصر، فنزل على تخومها، فطلع عليه راكب، فأخبره بقتل عثمان، والبيعة لأمير المؤمنين علي «عليه السلام»، وبأن عامله قيس بن سعد قادم عليهم، فهرب ابن سرح. فدل ذلك على أن توليته قيس لمصر كانت بعد البيعة لعلي «عليه السلام» مباشرة(٢).

ونقول:

أولاً: إن الوقائع إذا عارضت الأقوال، فالذي يقدم هو الوقائع، لأن احتمال الاجتهاد والتزوير في الأقوال أظهر منه فيها.

وقد تقدم: أن النصوص تذكر: أن علياً «عليه السلام» أرسل قيساً إلى

---

(١) الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٦٦.

(٢) الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٦٦ وراجع: الغارات للثقفي ج١ ص٢٠٦ و ٢٠٧ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٦ ص٥٧ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٩ ص٤١.

الكوفة، وأنه ذهب إليها، وخطب في الناس.

وذكرت **أيضاً**: أنه حضر حرب الجمل، وخاطب علياً «عليه السلام» ببعض الإشعار.

ثانياً: إن تاريخ الكتاب الذي كتبه علي «عليه السلام» إلى أهل مصر حين تولية قيس يبين: أنه لم يرسله فور البيعة له. بل تأخر إرساله من هذا التاريخ حوالي سنة. وهذه حجة دامغة لا مجال للمراء فيها.

ثالثاً: إن من الممكن أن يكون معاوية قد اعتمد على بعض الناس في الإمساك بأمور مصر، ولكنه لما سمع الناس بمجيء قيس غلبوه على أمره، وآثروا الوقوف إلى جانب الخليفة الشرعي، والإنضواء تحت لوائه. وسلموا لقيس، وأهملوا من عداه.

وسيأتي في هذا الفصل، والفصل التالي: حديث عن تولي قيس بن سعد مصر، بعد البيعة لعلي «عليه السلام» مباشرة، وتفنيد مزاعمهم في ذلك.

وسيأتي أيضاً: بعض الحديث عن الكتاب الذي أرسله «عليه السلام» مع قيس إلى أهل مصر.

أحداث لا أساس لها:

تقدم: أن علياً «عليه السلام» أرسل أكثر عماله إلى البلاد بعد حرب الجمل. ولكن بعض الروايات تحاول أن تبتدع أحداثاً خيالية لإظهار أن خلافة علي «عليه السلام» لم تكن مقبولة ولا مرضية عند الناس، فضلاً عن أن تكون مجمعاً عليها.

وهي روايات زبيرية وأموية حاقدة على علي «عليه السلام»، وعلى أهل بيته.. حاولت أن تتلاعب بتاريخ إرسال علي «عليه السلام» عماله إلى البلاد، وتخترع أحداثاً لا أساس لها للتسويق لما ترمي إليه من الطعن في إجماع الناس على خلافته «عليه السلام».

ونريد أن نذكر في هذا الفصل بعض هذه الروايات الخيالية والمسمومة، فلاحظ ما يلي:

من خرافاتهم:

وفي حوادث سنة ست وثلاثين ذكروا ما يلي:

روى الطبري، عن السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد، وطلحة، قالا:

لما دخلت سنة ست وثلاثين بعث علي «عليه السلام» عماله على الأمصار، فبعث عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمارة بن [حسان بن] شهاب على الكوفة، وكانت له هجرة، وعبيد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد على مصر، وسهل بن حنيف على الشام.

فأما سهل، فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل، فقالوا: من أنت؟!

قال: أمير.

قالوا: على أي شيء؟!

قال: على الشام.

قالوا: إن كان عثمان قد بعثك فحيهلاً بك، وإن كان بعثك غيره،

فارجع.

قال: أوما سمعتم بالذي كان؟!

قالوا: بلى.

فرجع إلى علي.

وأما قيس بن سعد، فإنه لما انتهى إلى أيلة لقيته خيل، فقالوا: من أنت؟

قال: من فالة عثمان، فأنا أطلب من آوي إليه، وأنتصر به.

قالوا: من أنت؟!

قال: قيس بن سعد.

قالوا: امض بنا.

فمضى حتى دخل مصر، وأظهر لهم حاله فافترق أهل مصر فرقاً: فرقة دخلت في الجماعة، وكانوا معه.

وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتا. وقالوا: إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم، وإلا فنحن على جديلتنا حتى نُحَرِّك أو نصيب حاجتنا.

وفرقة قالوا: نحن مع علي ما لم يقد إخواننا، وهم في ذلك مع الجماعة.

وكتب قيس إلى أمير المؤمنين بذلك.

وأما عثمان بن حنيف، فسار فلم يرده أحد عن دخول البصرة، ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأي، ولا حزم، ولا استقلال بحرب.

وافترق الناس بها، فاتبعت فرقة القوم، ودخلت فرقة في الجماعة. وفرقة قالت: ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا.

وأما عمارة فأقبل حتى إذا كان بزبالة[1] لقيه طليحة بن خويلد. وقد كان حين بلغهم أمر عثمان خرج يدعو إلى الطلب بدمه، ويقول: لهفي على أمر لم يسبقني، ولم أدركه:

يا ليتني فيها جذع أكر فيها وأضع

فخرج حين رجع القعقاع من إغاثة عثمان في من أجابه حتى دخل الكوفة، فطلع عليه عمارة قادماً على الكوفة، فقال له: ارجع. فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً، وإن أبيت ضربت عنقك.

فرجع عمارة وهو يقول: احذر الخطر ما يماسك، الشر خير من شر منه. فرجع إلى علي بالخبر.

وغلب على عمارة بن شهاب هذا المثل: من لدن اعتاصت عليه الأمور إلى أن مات.

وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن، فجمع يعلى بن أمية كل شيء من الجباية، وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة، فقدمها بالمال.

ولما رجع سهل بن حنيف من طريق الشام وأتته الأخبار، ورجع من رجع دعا علي طلحة والزبير، فقال: إن الذي كنت أحذركم قد وقع يا قوم. وإن الأمر الذي قد وقع لا يدرك إلا بإماتته، وإنها فتنة كالنار، كلما سعرت ازدادت واستنارت.

---

(١) زبالة: مكان معروف بطريق مكة من الكوفة. وهي قرية عامرة بها أسواق بين وابصة والثعلبية.

فقالا له: فأذن لنا أن نخرج من المدينة، فإما أن نكابر، وإما أن تدعنا.

فقال: سأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكي.

وكتب إلى معاوية، وإلى أبي موسى.

وكتب إليه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم، وبين الكاره منهم للذي كان، والراضي بالذي قد كان، ومَنْ بَيْنَ ذلك، حتى كأن علياً على المواجهة من أمر أهل الكوفة.

وكان رسول علي إلى أبي موسى معبد الأسلمي. وكان رسول أمير المؤمنين إلى معاوية سبرة الجهني إلخ..(١).

ثم ذكر الطبري جواب معاوية بالطومار الذي لم يكتب فيه شيء.

ونقول:

إن رواية سيف هذه قد خلطت الغث بالسمين، والصحيح بالسقيم، لأغراض لا تخفى على الناقد البصير، والباحث الخبير، وسنشير إلى شيء من ذلك، ضمن ما يلي من عناوين:

سهل بن حنيف: أميراً!!:

تقدم: أن سهل بن حنيف حين قيل له: من أنت؟!

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٤٦٢ ـ ٤٦٤ والكامل في التاريخ ج٣ ص٢٠١ و ٢٠٢ والفتنة ووقعة الجمل ص٩٩ ـ ١٠٢ والثقات لابن حبان ج٢ ص٢٧٣ و ٢٧٤ وتجارب الأمم ج١ ٢٩٨ و ٢٩٩.

قال: أمير.

ونقول:

أولاً: لا تحسن الإجابة بهذا قبل أن يُعْرَفَ السائل، فلعله عدو ينبغي التحفظ منه.

ويلاحظ أيضاً: أن سهل بن حنيف لم يسم نفسه في هذا الحوار.

ثانياً: لم تذكر الرواية من هم الذين تصدوا لسهل، فإن كانوا من أتباع معاوية، فهل كانت تبوك من أعمال الشام وتحت سيطرة معاوية؟! وكيف بلغت هيمنة معاوية إلى تبوك؟! وإن كانوا من أتباع غيره، فمن هو ذلك الغير المعادي لعلي «عليه السلام»؟!

ثالثاً: إذا صحت هذه الرواية لم يكن معنى لإرسال علي «عليه السلام» كتاباً إلى معاوية بعد هذا يطلب منه أن يقدم عليه مع أشراف أهل الشام. ولم يذكر له من أمر الإمارة شيئاً..

بل في رواية مزعومة أخرى: أنه «عليه السلام» كتب إليه بأنه يؤمره على الشام.

فأرسل إليه معاوية بالطومار الذي لم يكتب فيه شيئاً كما تقدم.

رابعاً: لماذا لم يرو هذه الرواية سوى سيف المعروف بالكذب والوضع، مع أن ما تتضمنه هام، وحساس، ولافت؟!

قيس بن سعد: من فالة عثمان:

أما ما ذكره سيف من ادعاء قيس للخيل التي واجهته بأيلة: أنه من فالة

عثمان، فيرد عليه:

أولاً: من أين علم قيس: أن الخيل التي لقيته كانت من اتباع عثمان، فلعلها من إتباع الثائرين على عثمان وما أكثرهم..

ثانياً: إذا كان محبو عثمان قليلين في مصر إلى حدّ أنهم اعتزلوا إلى خربتا. وسيطر قيس بن سعد على سائر مصر، فلماذا وكيف سيطروا على مداخلها؟! وسمحوا لمن هو من فالة عثمان، ويبحث عن من ينتصر به، ويأوي إليه أن يدخلها؟!

ثالثاً: ألم يكن قيس بن سعد من خُلَّص أصحاب علي «عليه السلام»، ولم يكن من مؤيدي عثمان، بل كان من المنتقدين له، إن لم نقل أكثر من ذلك، ولم يكن قيس رجلاً مغموراً، بل كان معروفاً ومشهوراً، فكيف صدقوه في دعواه: أنه من فالة عثمان، وأنه يبحث عن من يأوي إليه، وينتصر به؟!

رابعاً: حتى الذين اعتزلوا إلى خربتا، فإنهم لم يظهر منهم أنهم يعادون علياً «عليه السلام»، بل هم أعربوا عن توقفهم في أمر البيعة له بانتظار قرار علي «عليه السلام» بشأن قتلة عثمان.

ومعنى ذلك: أن قيس بن سعد لم يكن بحاجة إلى استعمال التقية، وادعاء أنه من فالة عثمان، وأنه يبحث عمن يلجأ إليه، وينتصر به.. لو فرض أن تلك الخيل التي أخذت عليه الطريق كانت من خصوص هذا الفريق الذي في خربتا، الذي لم يكن بالذي يحسب له حساب، لأنه كان جماعة صغيرة جداً..

بل هم يقولون: إن حتى لو كان قرار علي «عليه السلام» هو أن لا يقتل قتلة عثمان، فإنهم سيبقون على جديلتهم، ولا يحركون ساكناً إلا إذا تعمد الآخرون تحريكهم وتهييجهم، وليس هذا من سياسة علي «عليه السلام».

خامساً: إن قيس بن سعد إنما ذهب إلى مصر بعد حرب الجمل كما ذكرناه في الفصل السابق.

عمارة بن شهاب وطليحة:

وأما حديث عمارة بن شهاب وطليحة، فنحن نشير فيه إلى ما يلي:

أولاً: إن حديث لقاء عمارة بن شهاب بطليحة، وتهديد طليحة له لا يصح، لأن طليحة مات في سنة إحدى وعشرين بنهاوند[١]، أي قبل خلافة علي «عليه السلام» بخمس عشرة سنة.

ثانياً: وعلى فرض كون طليحة حياً! هل يجرؤ طليحة على قتل والي علي «عليه السلام»؟! فإن كان يجرؤ على ذلك، فلماذا لم ينصر عائشة في حرب الجمل؟! ولماذا لم يمنع هاشم المرقال، وأبا موسى وسائر أهل الكوفة من البيعة لعلي؟! وهل يمكن أن نعرف إلى أين توجه طليحة بدعوته للأخذ

(١) الإصابة (مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٨هـ) ج٢ ص٢٢٦ و (ط دار الكتب العلمية ـ بيروت سنة ١٤١٥هـ) ج٣ ص٤٤٠ وراجع: سير أعلام النبلاء ج١ ص٣١٧ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٥ ص١٧٢ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص٢٣٠ والبداية والنهاية ج٧ ص١٣٤.

بثارات عثمان؟! ومن الذي استجاب له؟! ولماذا لم يذكر التاريخ شيئاً عن حركته هذه ولا عن جموعه وجماعته؟!

ثالثاً: إن هذه الرواية تقول: إن أهل الكوفة لا يريدون بأميرهم بدلاً، مع أن أهل الكوفة قد بايعوا علياً «عليه السلام»، وفرضوا بيعته على أبي موسى الأشعري، وكانت هناك مراسلات بينه وبين علي «عليه السلام».

إلا أن يدعى: أنه «عليه السلام» أرسل ابن شهاب والياً على العراق، فلما صده طليحة أبقى أبا موسى، حتى سار إلى العراق، فلما وصل إلى ذي قار، أرسل الإمام الحسن «عليه السلام» ومعه عمار إلى الكوفة، وعزلا أبا موسى، بسبب تثبيطه الناس عن المسير مع علي «عليه السلام» لحرب الناكثين؟!

رابعاً: قلنا: إن هذه الرواية إنما رواها الطبري عن سيف المتهم بالكذب والوضع.

خامساً: لا أدري من أين جاء سيف بن عمر بالقعقاع لإغاثة عثمان؟! وكيف أغاثه؟! وبما وبمن أغاثه؟! وما هي نتائج هذه الإغاثة؟! وأين ذهب حين قتل عثمان؟! هل ابتلعته الأرض؟! أم صعد في السماء؟! وهل أظهر شيئاً من بطولاته في الذب عنه؟! وهل قتل أو جرح أحداً من المهاجمين؟! وهل؟! وهل؟!

علي عليه السلام وطلحة والزبير:

وأما ما زعمته الرواية المتقدمة: من أنه لما رجع من رجع من عمال علي «عليه السلام» إليه دعا طلحة والزبير، وقال لهما: إن الذي حذرهما منه قد

وقع.. فهو أيضاً موضع شك وريب، لما يلي:

فأولاً: إن راوي ذلك هو سيف بن عمر المعروف بالكذب والوضع، والمفروض أن أحداثاً كهذه مما يهتم أهل الأخبار بروايته لأسباب مختلفة، فلماذا لم يروها لنا غير سيف؟!

ثانياً: إن أمارات نكث طلحة والزبير كانت ظاهرة للعيان منذ يوم البيعة، حيث امتنع طلحة من إعطاء مفتاح بيت المال إلى علي «عليه السلام»، فاضطر «عليه السلام» إلى كسره، ثم ظهرت بعدما رفض «عليه السلام» تلبية مطالبهما في أن يوليهما الكوفة والبصرة، وأن يميزهما في العطاء. بل إن نفس قتالهما لعثمان من أجل الأموال والمناصب يوجب الظن القوي بأنهما لن يفيا بالبيعة لعلي «عليه السلام».

ثم إن الزبير قد أعد السيف للفتك بعلي «عليه السلام» حين جاءه إلى بيته.. وهذا من أوضح مصاديق النكث. كما أنهما قد امتنعا من أخذ العطاء، إلى غير ذلك من الدلائل والشواهد على ذلك.

ثالثاً: لماذا لم يضم «عليه السلام» إليهما حين دعاهما ليخبرهما بأن الذي حذرهما منه قد وقع ـ لماذا لم يضم إليهما ـ أعيان المسلمين، وخيارهم، مثل عمار بن ياسر، والأشتر، وسائر الصحابة ويخاطب الجميع بذلك الخطاب؟!

إلا أن يقال: إنه «عليه السلام» أراد تحذيرهما من إذكاء نار الفتنة، وإقامة الحجة عليهما على الأقل..

ويجاب: بأن تحذيرهما في ملأ من الناس أقوى وأوقع، وأعظم أثراً.

ويبدو: أن المطلوب من جعل هذه الأباطيل: هو تبرئتهما من الفتنة،

وإظهار براءتهما من تحريك الناس، وجمع الجيوش لحربه، وأن غالب الناس كانوا كارهين لحكمه «عليه السلام»، مع رضاهم عن حكم عثمان، وأن الأمة كلها تريد الاقتصاص من قتلة عثمان. بالاضافة إلى أن المطلوب هو إعلاء شأن عثمان، وإظهار أنهما يضارعان علياً «عليه السلام» في المقام والموقع بين المسلمين باعتراف علي «عليه السلام» نفسه علمياً بذلك.

هل هذا هو السبب؟!:

ويبقى أن نسأل هذا الذي قلب الميسرة على الميمنة والميمنة على الميسرة في تزوير الحقيقة، حتى استعان بالأموات، لماذا فعل ذلك؟! هل يريد بذلك مجرد إظهار اختلال الأمور وعدم انتظامها لعلي «عليه السلام» منذ اليوم الأول؟! والإيحاء بأن حكومته لم يكن مرحباً بها في العديد من الأقطار والأمصار؟!.

أم أنه يريد أن يظهر شدة حب الناس للخليفة القتيل الذي قتله الناس بمرأى ومسمع، وبمشاركة ورضى من صحابة رسول الله «صلى الله عليه وآله». ليعوضه بعض ما فقده من وهج العظمة، وأبهة الخلافة؟!.

أم أراد هذين الأمرين معاً، ليمهد الأمور لتلميع صورة معاوية، بعد أن يكون قد أعطى صورةً باهتةً لا حياة فيها عن علي «عليه السلام» وعن خلافته؟!

غير أننا نقول:

ليقصد ما شاء بتزويره هذا، فإن الله قد أخزى الكاذب، وأذل الباغي، وقد خاب من افترى.

زيادة غير مرضية:

وفي النص الذي ذكره ابن حبان وابن أعثم للرواية ما يزيد الريب في صحتها، فقد قالوا:

وأما عثمان بن ضيف، فانه مضى يريد البصرة وعليها عبد الله بن عامر بن كريز. وبلغ أهل البصرة قتل عثمان، فقام ابن عامر فصعد المنبر، وخطب وقال:

إن خليفتكم قتل مظلوماً، وبيعته في أعناقكم، ونصرته ميتاً كنصرته حياً، ولي عليكم اليوم ما كان لي بالأمس، وقد بايع الناس علياً، ونحن طالبون بدم عثمان. فأعدوا للحرب عدتها.

فقال له حارثة بن قدامة: يا ابن عامر، إنك لم تملكنا عنوة، وقد قتل عثمان بحضرة المهاجرين والأنصار، وبايع الناس علياً، فإن أقرك أطعناك وإن عزلك عصيناك.

فقال ابن عامر: موعدك الصبح.. فلما أمسى تهيأ للخروج، وهيأ مراكبه، وما يحتاج إليه، واتخذ الليل جملاً يريد المدينة، واستخلف عبد الله بن عامر الحضرمي على البصرة، فأصبح الناس يتشاورون في ابن عامر، وأخبروا بخروجه.

فلما قدم ابن عامر المدينة أتى طلحة والزبير، فقالا له: لا مرحباً بك ولا أهلاً، تركت العراق والأموال، وأتيت المدينة خوفاً من علي؟! ووليتها غيرك، واتخذت الليل جملاً؟! أقمت حتى يكون لك بالعراق فئة؟!

قال ابن عامر: فأما إذا قلتما هذا فلكما علي مئة ألف سيف، وما أردتما

من المال الخ..[١].

ونقول:

أولاً: إن عبد الله بن عامر الحضرمي لم يكن في البصرة حين قتل عثمان، بل كان عاملاً لعثمان على مكة، وقد جاء إلى عائشة وهنأها بقتل عثمان[٢].

فكيف استخلفه عبد الله بن عامر بن كريز على البصرة؟!

ثانياً: إن عبد الله بن عامر بن كريز لم يأت من البصرة إلى المدينة، بل جاء منها إلى مكة ومعه مال كثير، فاجتمع بعائشة وطلحة والزبير وغيرهم وهناك ائتمروا، ومن هناك ساروا إلى حرب علي.

ثالثاً: هل يجرؤ ابن كريز أن يأتي المدينة ومعه تلك الأموال الهائلة، وفيها أمير المؤمنين«عليه السلام» الذي يعرف مدى حرصه على إعادة ما استلب من بيوت الأموال، والذي رفع شعار أنه سيستردها حتى لو زوج

---

(١) الثقات لابن حبان ج٢ ص٢٧٤ و ٢٧٥ والفتوح لابن أعثم ج٢ ص٢٦٩ و ٢٧١.

(٢) حرب الجمل ص ٢٢٧ وتاريخ الأمم والملوك ج٤ ص٤٢١ و (ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٤٦٧ و ٤٦٩ والكامل في التاريخ ج٣ ص٢٠٧ والفتنة ووقعة الجمل ص١١٠ و ١١٢ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص١٥٤ وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج٣٢ ص٤٣٣ و ٤٤٧ و ٤٥٧ و ٤٩٩ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص٤٧ وبحار الأنوار ج٣٢ ص١٤٤ والنص والإجتهاد ص٤٢٨.

بها النساء. كما ذكرنا في بعض فصول هذا الكتاب؟!

رابعاً: كيف يجرؤ ابن كريز على تمكين علي «عليه السلام» منه، وهو قد أعلن للناس في البصرة حسب ما ذكره هذا النص نفسه أنه بصدد الطلب بدم عثمان، وطلب من الناس أن يعدوا للحرب عدتها؟!

الفصل الثاني:

رسائل مفتوحة إلى أهل البلاد..

كتابه عليه السلام إلى أهل المدائن:

وذكر المؤرخون كتابه «عليه السلام» الذي أرسله إلى حذيفة بن اليمان «رحمه الله» ليقرأه على أهل المدائن، فذكر أنه لما وصل عهد أمير المؤمنين «عليه السلام» ـ المتقدم ـ إلى حذيفة، جمع الناس فصلى بهم ثم أمر بالكتاب فقرئ عليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى من بلغه كتابي هذا من المسلمين..

سلام عليكم..

فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد..

أما بعد.. فإن الله تعالى اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله، إحكاماً لصنعه وحسن تدبيره، ونظراً منه لعباده، وخص به من أحبه من خلقه، فبعث إليهم محمداً «صلى الله عليه وآله»، فعلمهم الكتاب والحكمة، إكراماً وتفضلاً لهذه الأمة، وأدَّبهم لكي يهتدوا، وجمعهم لئلا يتفرقوا،

ووقفهم[١] لئلا يجوروا، فلما قضى ما كان عليه من ذلك مضى إلى رحمة الله حميداً محموداً.

ثم إن بعض المسلمين أقاموا بعده رجلين رضوا بهديها وسيرتها، فأقاما ما شاء الله ثم توفاهما الله عز وجل.

ثم ولوا بعدهما الثالث، فأحدث أحداثاً، ووجدت الأمة عليه فعالاً.. فاتفقوا[٢] عليه (كذا) ثم نقموا منه، فغيروا، ثم جاؤوني كتتابع الخيل، فبايعوني، فأنا أستهدي الله بهداه، وأستعينه على التقوى.

ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة نبيه «صلى الله عليه وآله» وسلم، والقيام عليكم بحقه (كذا) وإحياء سنته، والنصح لكم بالمغيب والمشهد، وبالله نستعين على ذلك، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وقد وليت أموركم حذيفة بن اليمان، وهو ممن أرضى بهداه، وأرجو صلاحه، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم، والشدة على مريبكم، والرفق بجميعكم، أسأل الله لنا ولكم حسن الخيرة والإسلام ورحمته الواسعة في

---

(١) أي وقفهم على ما أعد الله للمطيعين من الثواب وللعاصين من العقاب والخزي، لأجل أن لا يجوروا ولا يظلموا خوف العقاب، ورجاء الثواب.

وفي الإرشاد: وفقهم.

(٢) أي عدت الأمة عليه فعالاً منكرا غير مألوفة في الشريعة المقدسة.

وفي كتابه «عليه السلام» إلى أهل مصر: «فوجدت الأمة عليه مقالاً، فقالوا: ثم نقموا عليه فغيروا إلخ..». وهو الظاهر.

الدنيا والآخرة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١].

وعن ابن الأثير في كتاب حجة التفضيل، قال: «محمد بن الحسين الواسطي قال: حدثنا إبراهيم بن سعيد قال: حدثنا الحسن بن زيادا الأنماطي قال: حدثنا محمد بن عبيد الأنصاري عن أبي هارون العبدي عن ربيعة السعدي قال: كان حذيفة والياً لعثمان على المدائن، فلما صار علي أمير المؤمنين كتب لحذيفة عهدا يخبره بما كان من أمره وبيعة الناس إياه. فاستوى حذيفة جالساً وكان عليلاً، فقال: قد والله وليكم أمير المؤمنين حقاً.. قالها ثلاثاً»[٢].

ونقول:

تضمن هذا الكتاب أموراً كثيرة، نذكر منها ما يلي:

لماذا يخاطب الناس؟!:

١ ـ إنه «عليه السلام» لم يكل الأمر إلى حذيفة ليكون هو الذي يتواصل مع الناس، ثم يخبره بشؤونهم وحاجاتهم.. بل أراد أن يتصل هو

(١) الدرجات الرفيعة ص٢٨٨ ـ ٢٩٠ وإرشاد القلوب للديلمي ج٢ ص١١٢ ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٤ ص٩٧ و ٩٨ ونهج السعادة ج٤ ص٢٢ ـ ٢٤ وبحار الأنوار ج٢٨ ص٨٦ ـ ٨٩ وأعيان الشيعة ج٤ ص٦٠٤.

(٢) اليقين لابن طاووس ص١٣٧ و (مؤسسة دار الكتاب ـ الجزائري) ص٣٨٤ وكشف اليقين ص١٣٧ وبحار الأنوار ج٣٧ ص٣٢٥ ونهج السعادة ج٤ ص٢٤ ومستدركات علم رجال الحديث ج٢ ص٣٢٠.

بالناس مباشرة، وأن يحدثهم.

وقد كان هذا هو شأنه، وهذه هي سيرته مع ولاته، كما يظهر. ولذلك نلاحظ: أنه «عليه السلام» يعين الوالي، ويرسل رسالتين: إحداهما للوالي، والأخرى لأهل تلك الولاية.

٢ ـ لعل الهدف من هذا التواصل هو:

أولاً: تكريم الناس، وإعلامهم بمدى أهميتهم عنده.

ثانياً: إعلامهم بأن لهم الحق في معرفة الأمور، على قاعدة: «إن لكم على أن لا أخفي عنكم سراً إلا في حرب»(١).

ثالثاً: إنه يريد أن لا يجعل سبيلاً للولاة للاستبداد بمن هم تحت يدهم، بل يريد أن يجعل للناس منافذ يمكنهم من خلالها أن يصلوا إلى الراعي الأصلي، والمسؤول الأول عنهم وعن شؤونهم، فإنه هو الذي يقدر أن يدفع عنهم، وأن يلبي مطالبهم المحقة.. لكي لا يكونون محاصرين بأسباب التسلط، لا يجدون حولهم إلا الضعفاء أمثالهم.

رابعاً: إن وضوح الأمور للناس، وأخذ العلم به من مصدر القرار وهو الإمام «عليه السلام» مباشرة يجعل العلاقة بينهم وبين إمامهم

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٣ ص٧٩ والأمالي للطوسي ج١ ص٢٢١ و (ط دار الثقافة ـ قم) ص٢١٧ صفين للمنقري ص١٠٧ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٧٦ و ٤٦٩ وج٧٢ ص٣٥٤ وميزان الحكمة للريشهري ج١ ص١٢٤ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٦٣ والمعيار والموازنة ص١٠٤ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٧ ص١٦.

وحاكمهم، ومصدر القرار طبيعية وواضحة، ويجعلهم يشعرون بأن عليهم أن يعيشوا القضايا كما يعيشها، وأن لهم دوراً في صنعها، وفي حفظ ما يجب حفظه منها، والتخلص مما يجب التخلص منه.

وبذلك لا تكون العلاقة علاقة حاكم بمحكوم، بل علاقة جزء من كل، وعلاقة تعاون وصدق ومسؤولية. وبذلك يكون قد سبق ولاته إلى العمل بما أمرهم به، وذلك بأن لا يجعلوا بينهم وبين الناس أو الرعية حاجباً يحجبهم عنه، أو يحجبه عنهم[1].

كتابه إلى عامله.. وكتابه إلى الناس:

إن كتابه «عليه السلام» لأهل المدائن قد اقتصر على إيضاح الخط العام، الذي ينبغي أن يسير الناس فيه، لحفظ قضية الإسلام الكبرى وبيان خط سير الأحداث الصحيح من خلال التذكير بالقواعد والضوابط التي لا بد أن تكون هي الحاكمة والمهيمنة على ذلك المسار كله..

وهذه هي سمة كتبه «عليه السلام» للناس، فراجع ما كتبه إلى أهل الكوفة والبصرة، ومصر، والمدائن، وغير ذلك.

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٣ ص١٠٣ وتحف العقول ص١٤٤ ومستدرك الوسائل ج١٣ ص١٦٩ وبحار الأنوار ج٧٤ ص٢٦٠ وجامع أحاديث الشيعة ج١٧ ص٣٣٩ ومستدرك سفينة البحار ج٢ ص١٨٣ وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج١ ص١٠٩ ونهج السعادة ج٥ ص١٠٩ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٧ ص٩٠.

أما كتبه لعماله، فهي تتضمن الضوابط التي يجب عليهم رعايتها، والمعاني التي لا بد من لحاظها في ممارسة التدبير العملي لشؤون الناس..

فلاحظ وقارن بين رسالتيه هنا: التي أرسلها لحذيفة من جهة، ـ وقد تقدمت في الفصل السابق ـ والتي أمره أن يقرأها على أهل المدائن من جهة أخرى.

من عبد الله علي:

إنه «عليه السلام» وإن كان قد بدأ كتابه باسمه كما جرت العادة في مكاتبات الخلفاء آنئذٍ، ولكنه بدأ اسمه بالنص على عبوديته لله تعالى، التي هي ميزان الفضل وعنوان الكمال، والتي كلما أوغل وتحقق فيها الإنسان كلما استحق مقامات القرب والزلفى عند الله تعالى.

وكفى للتدليل على أهمية هذا المقام أن الله تعالى قد رضي لجميع عباده، وإلى قيام الساعة أن يبدأوا في التشهد في الصلاة بعد الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ونفي الشريك، بالشهادة لرسول الله «صلى الله عليه وآله» بالعبودية لله قبل الرسولية، فأمرهم بأن يقولوا: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»، وكأنه قدم الشهادة بالعبودية ليكرس حقيقة أنه «صلى الله عليه وآله» قد نال مقام رسوليته من خلال تلك العبودية.

الإسلام ليس مجرد قانون:

ثم أشار «عليه السلام» إلى عظمة وأهمية دين الإسلام بقوله: «اختار الإسلام ديناً لنفسه، وملائكته ورسله»، فنسب دين الإسلام إلى الله تعالى

وإلى ملائكته ورسله، ليعظم أمر هذا الدين في أعين الناس، وليشير لهم أنه ليس مجرد طقوس، أو حركات، أو أنظمة عملية يطبقها الناس على حركاتهم وسكناتهم، وكأنه بمثابة جهاز آلي يعمل وفق نظام بعينه، ويستمر كذلك إلى أن يتلاشى ذلك الجهاز. أو لا هو مجرد قانون يضبط إيقاع حركة الناس، ويضعها ضمن حدود وقيود معينة للحفاظ على أمر لا يخرج عن نطاق المادة، وليس فيه أية قابلية للخروج من مجاله..

بل هو أطروحة يراد منها مزج العناصر الأرضية بعالم الملكوت، ووصلها باللامحدود وغير المتناهي الإلهي، لينتج مخلوقاً هائلاً في طاقاته، عظيماً في خصائصه وميزاته، فائقاً في كمالاته.. وذلك على قاعدة: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[1].

ولأجل ذلك كان الإسلام ديناً اختاره الله تعالى لنفسه، ولملائكته ورسله، إحكاماً لصنعه، وحسن تدبيره، ونظراً منه لعباده، وخص به من أحب من خلقه وهو أعظم وأجل نعم الله على البشر، وقد اختاره لهم ليصنعهم ولينفعهم به. وخص به المؤمنين الذين أحبهم الله تعالى من بين جميع عباده.

مهمات ووظائف الرسول:

وفي سياق بيانه «عليه السلام» لأهمية الدين بالنسبة للأمة جماعات وأفراداً، ذكر «عليه السلام» مهمات رسول الله «صلى الله عليه وآله» التي

(١) الآية ٣٩ من سورة طه.

أنجزها.. مبيناً أن منها ما يلي:

١ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» قد علمهم الكتاب المشتمل على حقائق الدين، وعلى الشريعة والأحكام وعلى السلوكيات، والأخلاق، وعلى السياسات، والإعتقادات، وعلى المواعظ والعبر، بل فيه تبيان كل شيء.

والمراد بتعليمه ما هو أبعد من إبلاغهم ألفاظه المنتظمة في آيات وسور وأحاديث، وسير، كما هو ظاهر..

٢ ـ لقد علمهم «صلى الله عليه وآله»: الحكمة، ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾(١). فدل ذلك على:

ألف: إن الحكمة ليست مجرد نصائح عملية يدركها الإنسان بعقله، ويقدمها لغيره.

ب: إن الحكمة توقيفية، وتحتاج إلى تعليم.

ج: إن الحكمة وهي ـ كما في بعض تفاسيرها ـ وضع الشيء في موضعه، تحتاج إلى فهم عميق جداً لحقائق الأشياء، وطبيعة الإرتباط القائم فيما بينها، ونوع ذلك الارتباط ومداه.. ولا يتيسر العلم بذلك إلا لأعلم العالمين، وأسرع الحاسبين.

د: يبدو لنا أن ما تعلمه الناس من رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد ضيع في معظمه، ولولا أن أهل البيت، كانوا يعيشون بين ظهراني هذه الأمة لفقدت الحكمة بصورة تامة..

---

(١) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

هـ: صرح «عليه السلام»: بأن تعليم الحكمة للأمة هو من مفردات إكرامها، والتفضل عليها، والإحسان إليها، لتنال بذلك الخير الكثير من خلال حسن وسلامة التدبير.

٣ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» قد أدب الناس لكي يهتدوا، فدل بذلك على أن ثمة ارتباطاً بين الهداية وبين الأدب، وأنه لا هداية بدون أدب.

وهذه حقيقة مهمة جداً، فإن الأدب هو الذي يسهل الهداية، ويجعلها ميسورة، لأن الأدب يعني الإلتزام بضوابط. ويقابله الإنفلات، وعدم إعطاء قيمة لأي قيد وضابطة. والهداية تحتاج إلى هذا الالتزام، كما أن هذا الالتزام يكشف عن أن ثمة سيطرة للقوة العاقلة، وأنها قادرة على لجم جامح الهوى، وكبح طغيان الشهوات، ووضعها ضمن ضابطة معينة، ولا يطلب في الهداية أكثر من ذلك.

٤ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» قد أنجز مهمة أخرى كانت منوطة به، وهي مهمة جمع الناس تحت راية الإسلام، وإبعاد شبح التفرق عنهم، وجمعهم هذا ينتج تمركزاً في قوتهم، وتعاظماً لها، كما أنه يحصن هذه القوة بالقوى التي تنضم إليها، ويمنعها بذلك من التآكل والتلاشي.

٥ ـ ومن المهمات التي أنجزها «صلى الله عليه وآله» أنه وقفهم على ما أعد الله تعالى من ثواب للمطيعين، ومن عقاب للعاصين، لكي يستقيموا على خط الصلاح، فلا يتنكبوه ولا يخرجوا عنه إلى المتاهات، وظلم الجهالات، لئلا يقعوا في المهالك.

المسلمون أقاموا الخلفاء:

وقد بين «عليه السلام» أمراً آخر كان لا بد للناس من الوقوف عليه. وهو أن الخلفاء الذين سبقوه لا يمكن اعتبارهم امتداداً للهدى النبوي بكل ما لهذه الكلمة من معنى.. ولا يصح ولا يجوز وضع تصرفاتهم وسياساتهم في هذا السياق، بل لا بد من مراجعة السياسات التي انتهجوها، والتصرفات التي مارسوها، والتأكد من سلامتها، وموافقتها للخط الرسالي الذي رسمه الله تعالى في كتابه، ورسوله «صلى الله عليه وآله» في توجيهاته وسيرته، وحياته العملية، ثم يحكم عليها بالموافقة لها أو عدمها..

وقد أكد «عليه السلام» على هذه الحقيقة حين صرح للناس بأن عليهم أن لا يتوهموا أن لله ورسوله أي دور في استخلاف أو في الرضا بخلافة من سبقه من الخلفاء. بل الناس هم الذين أقاموهم في مواقعهم..

ويلاحظ هنا دقة التعبير بكلمة: «بعض المسلمين أقاموا..»، فقد دلت هذه الكلمة على عدة أمور، هي:

الأول: إنه لا إجماع على خلافة أبي بكر وعمر، بل ولا رضاً من الأكثرية.

الثاني: إن مصدر سلطاتهما هو بعض الناس..

الثالث: إن سائر الناس الذين لم يشاركوا في إقامتهما لم يكونوا راضين بهما.. فلا يصح دعوى: أن الناس قد رضوا بهما بعد إقامتهما..

وهذا البيان منه «عليه السلام»، يبين لنا حقائق يثير أسئلة كثيرة لا حاجة لتعدادها.. أهمها: أن تصدي الناس لإقامة حاكم لا يعني أنه يصير

حاكماً وذا سلطة بالفعل، إذ لم يثبت أن للناس الحق في التصدي لنصب الحكام.. بل قد يثبت أنه ذلك ليس من حقهم..

فكيف إذا كان بعض الناس قد فعل ذلك، وليس كلهم؟! وكيف إذا لم يرض سائر الناس بفعل هذا البعض؟!

سيرة الخلفاء قبله عليه السلام:

ولم يتعرض لسيرة الخليفتين الأولين وأبي بكر بتأييد، ولا بتفنيد، ولكنه حين وصل إلى عثمان ألحقه بالخليفتين الأولين فيما يرتبط بطريقة توليه، وقال: إن مصدر ولايته هو بعض الناس.. ولكنه أشار إلى سيرته بقوله: «أحدث أحداثاً، ووجدت الأمة عليه فعالاً إلخ..».

فيلاحظ هنا ما يلي:

أولاً: قد يسأل سائل، فيقول: إنه «عليه السلام» حين اكتفى بالسكوت عن سيرة عمر وأبي بكر، هل أراد لنا أن نفهم أن الناس لم ينقموا عليهما ما نقموه على عثمان؟!

وهل كان «عليه السلام» يرى أن سيرتهما موافقة للشرع؟!

ويجاب:

أولاً: إنه «عليه السلام» قد ذكر: أن الناس رضوا بسيرة عمر وأبي بكر.. والمقصود بالناس: ليس كل الناس، فإننا نعلم: أنه وكثير ممن معه لم يرضوا بسيرتهما، بل كانت لهم عليها اعتراضات كثيرة، سجل التاريخ شطراً منها، فدل ذلك على أن المقصود بالناس هو الذين أعانوهما على أخذ الأمر من علي «عليه السلام»، وهم قريش، ومن يدور في فلكها، أو يسير

على نهجها.

ثانياً: إنه «عليه السلام» وإن كان قد سكت هنا عن ذكر سيرتهما بشيء، ولكن اعتراضاته الكثيرة على ما كان يصدر منهما، ومن ذلك قضية فدك، وسائر ما جرى عليه منهما يعطي: أن سكوته «عليه السلام» هنا يدل على أنه لا يريد أن يثير حفيظة محبيهما في هذا الظرف بالذات، لأنه يريد أن يجمع الناس كما جمعهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» ، ولغير ذلك من أسباب.

ثالثاً: يلاحظ: أنه «عليه السلام» وإن ذكر أن البعض هم الذين أقاموا عثمان ورضوا به خليفة، ولكنه حين ذكر أحداثه قال: إن الأمة قد وجدت تلك الأحداث والفعال ونقمتها عليه، وليس خصوص الذين أقاموه.

رابعاً: إنه «عليه السلام» حين تحدث عن النقمة على عثمان، وقتله، قد أورد الضمير بصيغة الجمع، فقال: نقموا.. قتلوه.. فهل قصد بالذين نقموا عليه وقتلوه، خصوص الذين أقاموه خليفة ورضوا به، أم أراد آحاد الأمة كلها؟! ربما يقال: إن هذا الثاني هو الأظهر.

ولعله أبقى الأمر على إبهامه، لأنه ربما يريد أن يبين اشتراك الذين أقاموه خليفة ورضوا به مع غيرهم من بعض من وقع عليهم الظلم، ونقموا سيرته. وإن قتله جاء نتيجة سوء فعله، فهو مرضي من أكثر الناس، ولأن عزله هو الذي كان مطلوباً قبل قتله.

جاؤوني فبايعوني:

وبعد ما ذكر «عليه السلام» ما دل على عدم شرعية خلافة الذين سبقوه، حسبما أوضحناه قال: «ثم جاؤوني كتتابع الخيل، فبايعوني، فأنا

استهدى الله بهداه، واستعينه على التقوى».

ونذكر مما فهمناه من هذه الفقرة، الأمور التالية:

١ ـ بين «عليه السلام» أن الناس جاؤوه كتتابع الخيل، فدل ذلك على عفوية حركتهم، وأنه لم يكن هناك تدبير مسبق في البين. وإن كان «عليه السلام» لم يرض بقبول البيعة منهم إلا بعد لَأْيٍ، وتعب وإصرار منهم..

٢ ـ إنه «عليه السلام» لم يقل عن نفسه: إنهم هم الذين أقاموه خليفة، بل اكتفى بالإشارة إلى البيعة الاختيارية العفوية، التي تأتي في العادة استجابة للوجدان، ومن دون تأثر بالآراء والاتجاهات.

٣ ـ إن الأمة هي التي بايعته، ورضيت به، وأصرت عليه، وليس بعض الناس دون بعض..

٤ ـ إنه «عليه السلام» لم يدع لهم أنه يريد أن يسير فيهم بآرائه، أو اجتهاداته الظنية، بل قال لهم: إنه يستهدي بهدى الله..

٥ ـ تدل هذه الكلمة على أن هدى الله كان متوفراً لديه حاضراً عنده.

٦ ـ إنه حتى في ميزاته الشخصية واندفاعاته السلوكية يلتزم خط الاستقامة والتقوى..

٧ ـ إنه لا ينسب هذه التقوى لنفسه، ولا يدعي أنها نتاج قدرات ذاتية، بل يستعين بالله تعالى على التحلي بها، والتمكن منها..

ما تعهد به عليه السلام للرعية:

ثم إنه «عليه السلام» لم يغدق على الناس الوعود، ولم يفسح المجال

للتوقعات، التي تبلغ حد التوهمات والتخيلات.. بل اكتفى «عليه السلام» بالالتزام بما يلي:

١ ـ العمل في الناس بكتاب الله تعالى.

٢ ـ العمل بسنة نبيه.

٣ ـ القيام عليهم ـ أي تدبير أمورهم ـ بحق الله تعالى..

٤ ـ إحياء سنة الله فيهم.

٥ ـ النصح لهم بالمغيب والمشهد.

ثم أشار إلى أنه حتى حين يتعهد بهذه الأمور، فإنه لا يرى أنه قادر عليها بنفسه، بل هو بحاجة إلى الاستعانة بالله على ذلك كله.

وهو ـ كما قال «عليه السلام» ـ حسبنا وهو يكفينا عن كل ما عداه..

وهو أيضاً نعم الوكيل، والناظر في الأعمال، العارف بحسن القيام عليها، وبأي تقصير فيها..

ولو أن الولاة عملوا بهذه الأمور الخمسة، فإنها ستوصلهم إلى أعلى درجات الرقي والكمال، والسعادة والنجاح في الفعال، في الدنيا والآخرة..

حذيفة عاملهم:

وحين أشار إلى حذيفة نرى أنه «عليه السلام»:

١ ـ أخبرهم بأنه ولىَّ حذيفة أمورهم، وقد تحاشى أن يقول: ولىَّ عليهم حذيفة، ربما لأنه لم يرد أن يتوهم متوهم: أن للعامل ولاية على أشخاص الناس على حد ولاية الآباء على صغار الأبناء. كما أنه لم يرد أن يستفاد من

هذا التعبير مفهوم العلو والطبقية.

٢ ـ إنه «عليه السلام» بين لهم خصوصية ترتبط بمعارف حذيفة، وطريقته في النظر إلى الأمور، فقال: إنه يرضى هداه، فدل ذلك على أنه لا يرى وهنا، أو انحرافاً في المعارف المؤثرة في سلوك حذيفة، وفي الهدى الذي يرضاه لنفسه..

٣ ـ ولكن بما أن المعارف قد تكون صحيحة والرؤية قد تكون واضحة، ولكن الإنسان قد يدفعه هواه إلى العدول عن الصواب إلى الخطأ.. وبما أن نفس الإنسان أمارة بالسوء، فلا يمكن لأحد من الناس أن يضمن استمرار التوافق بين ما يختاره وبين ما يعرفه، فلعل النفس الأمارة غلبته، ولو في بعض الأحوال ـ من أجل ذلك ـ لم يستطع «عليه السلام» أن يخبرهم إلا بما توافرت لديه الإمارات والدلائل عليه، وهو أن حذيفة لم يزل مرضي النهج، ظاهر الصلاح، سليم العقل، صحيح الفكر، والمتوقع من أمثاله الاستمرار على طريقة الصلاح والفلاح، ولذلك قال لهم: «وأرجوا صلاحه».

أوامره عليه السلام لحذيفة:

وقد أخبرهم أنه أمر حذيفة، بأمور ثلاثة، هي:

١ ـ الإحسان إلى محسنهم.

٢ ـ الشدة على مريبهم.

٣ ـ الرفق بجميعهم..

مع أنه أمره بأمور أخرى أيضاً.

والسبب في اقتصاره «عليه السلام» على هذه الأمور الثلاثة: أن هناك توجيهات تخص الوالي نفسه في حالاته، وفي سلوكياته، وهناك أمور يجب أن تذكر للناس، لا لمجرد الإعلام، بل لأجل أن يفيد هذا الإخبار في انقيادهم، وصلاح حالهم.. وهذا ما فعله «عليه السلام» هنا.

كتاب تولية قيس على مصر:

وهناك كتاب كتبه أمير المؤمنين «عليه السلام» إلى أهل مصر، أرسله إليهم مع قيس بن سعد بن عبادة، لما بعثه أميراً عليهم وحاكماً.

فقد روى الثقفي «رحمه الله» في كتاب الغارات(١) قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان الثقفي، قال: حدثني علي بن محمد بن أبي سيف، عن الكلبي:

أنه لما ولي علي «عليه السلام» الخلافة، قال لقيس بن سعد بن عبادة ـ وكان من شيعته ومناصحيه ـ: سر إلى مصر فقد وليتكها، واخرج إلى

---

(١) نقل العلامة الشيخ محمد باقر المحمودي في كتابه نهج السعادة ج٤ ص٣٥ عن كتاب تلخيص الغارات ص١٢٧ وقال: مع مغايرات يسيرة في السند والمتن، ونحن إنما نقلنا عنه ما نقلناه بوساطة المجلسي «رحمه الله» عنه في البحار، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، والمحقق المدني في الدرجات الرفيعة، وقد لخصنا العبارة المحكية عنه بعض التلخيص وزدنا عليها في بعض الموارد ما يوضحها.

ظاهر المدينة، واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتي مصر ومعك جند، فإن ذلك أرعب لعدوك، وأعزّ لوليّك.

فإذا أنت قدمتها إن شاء الله، فأحسن إلى المحسن، واشدد (واشتد) على المريب، وارفق بالعامة والخاصة، فالرفق يمن.

فقال قيس: رحمك الله يا أمير المؤمنين، قد فهمت ما ذكرت.

[أما قولك: اخرج إليها بجند: فوالله إن لم أدخلها بجند آتيها به من المدينة لا أدخلها أبداً] فأما الجند فإني أدعه لك، فإذا احتجت إليهم كانوا قريباً منك، وإن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كان لك عدة، ولكني أسير إلى مصر بنفسي وأهل بيتي.

وأما ما أوصيتني به من الرفق والإحسان فالله تعالى هو المستعان على ذلك.

قال: فخرج قيس في سبعة نفر من أهله حتى دخل مصر، فصعد المنبر، وأمر بكتاب معه (من أمير المؤمنين «عليه السلام» أن) يقرأ على الناس [وكان فيه]:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المسلمين، سلام عليكم. فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو.

أما بعد.. فإن الله بحسن صنعه وقدره وتدبيره اختار الإسلام ديناً لنفسه، وملائكته، ورسله. وبعث به أنبياءه إلى عباده، وخص من انتجب من خلقه، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة، وخصهم به من

الفضل، أن بعث محمداً «صلى الله عليه وآله»، فعلمهم الكتاب والحكمة، والفرائض والسنة[(١)]، وأدبهم لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيما لا يتفرقوا[(٢)]، وزكاهم لكيما يتطهروا[(٣)].

فلما قضى من ذلك ما عليه، قبضه الله إليه، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه إنه حميد مجيد.

ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا أمرأين منهم صالحين، [عملا بالكتاب، و][(٤)] أحسنا السيرة[(٥)]، ولم يعدوا السنة.

---

(١) هذا هو الظاهر المؤيد بنقل الطبري، دون غيره.

(٢) وفي نسخة ابن أبي الحديد ج٦ ص٥٨: «وجمعهم لكيلا يتفرقوا».

(٣) وزاد في تاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٥٥٠ بعده: «ورفههم لكيما لا يجوروا». أي نفَّس عنهم، ووسع عليهم كي لا يظلم بعضهم بعضاً لأجل الضيق والشدة.

(٤) من تلخيص الغارات ص١٢٩ وإمارات التقية والمداراة للناس في الكلام ظاهرة.

(٥) وفي الدرجات الرفيعة ص٣٣٦: «ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا أميرين منهم، أحسنا السيرة، ثم توفيا فولي من بعدهما والٍ أحدث أحداثاً فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا، ثم نقموا فتغيروا الخ..».

وزاد في نسخة ابن أبي الحديد ج٦ ص٥٨ بعد قوله: «صالحين»: «فعملا بالكتاب والسنة».

ثم توفيا فولي من بعدهما من أحدث أحداثاً[١]. فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا، ثم نقموا عليه فغيروا، ثم جاؤوني فبايعوني، وأنا أستهدي الله الهدى، وأستعينه على التقوى.

ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، والقيام بحقه، والنصح لكم بالغيب، والله المستعان، وحسبنا ونعم الوكيل.

وقد بعثت لكم[٢] قيس بن سعد الأنصاري أميراً، فوازروه وأعينوه على الحق[٣]. وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم، والشدة إلى مريبكم[٤]،

---

(١) قال المحمودي في نهج السعادة هامش ج٤ ص٢٩: مثل تسفير أبي ذر إلى الشام ثم إلى الربذة، ومثل تبعيد صلحاء الكوفة إلى الشام، وضرب عمار حتى غشي عليه وصار ذا فتق، وضرب عبد الله بن مسعود، وتحريق المصحف، ورد الحكم بن أبي العاص إلى المدينة وقد أخرجه رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى غير ذلك مما تواتر عنه من الأحداث التي لا تحصى.

(٢) كذا في بحار الأنوار ج٣٣ ص٥٣٥ وشرح ابن أبي الحديد ج٦ ص٥٩. وفي تاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٥٥٠ والدرجات الرفيعة ص٣٣٧: «وقد بعثت إليكم قيس بن سعد إلخ..».

(٣) وفي تاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٥٥٠: «فوازروه وكاتفوه وأعينوه على الحق، وقد أمرته إلخ..».

(٤) وفي تاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٥٥٠ وشرح نهج البلاغة ج٦ ص٥٩ والدرجات الرفيعة ص٣٣٧: «والشدة على مريبكم».

والرفق بعوامكم وخواصكم.

وهو ممن أرضى هديه، وأرجو صلاحه ونصحه. نسأل الله لنا ولكم عملاً زاكياً، وثواباً جزيلاً[١]، ورحمةً واسعةً.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب عبيد الله بن أبي رافع، في صفر سنة ست وثلاثين[٢].

ونقول:

يبدو: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» كان يكتب نصاً واحداً ويرسله إلى عماله..

ويبدو أيضاً: أن بعض الرواة قد حاولوا التصرف في هذا النص كما سيظهر هنا بالنسبة لبعض الفقرات.

---

(١) وفي تاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٥٥١: «وثواباً جميلاً إلخ..».

(٢) الغارات للثقفي ج١ ص٢٠٨ ـ ٢١١ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٥٣٣ ـ ٥٣٥ و (ط حجرية) ج٨ ص٦٤٣ ونهج السعادة ج٤ ص٢٥ ـ ٢٨ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٦ ص٥٧ ـ ٥٩ والدرجات الرفيعة ص٣٣٦ ـ ٣٣٧ وتاريخ الأمم والملوك (ط مصر ـ ومؤسسة الأعلمي ـ بيروت) ج٣ ص٥٤٩ ـ ٥٥١ وراجع: البداية والنهاية ج٧ ص٢٥١ ومنهاج البراعة ج٥ ص١٠٦ وأنساب الأشراف ج١ ص٤٠١ و (ط١) ج٢ ص٣٨٩.

العزة والقوة:

وقد ذكر «عليه السلام»: أنه يريد من قيس أن يظهر بمظهر العزة والقوة، فأمره أن يذهب إلى مصر، ومعه جند، ليعز بذلك الولي، ويكبت العدو.

وليس هذا تفكيراً دنيوياً، إذ هو يأتي في سياق إعزاز المؤمنين، وكبت أعدائهم، وإضعاف عزائمهم، وبعث الرعب والخوف في قلوبهم.. على قاعدة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ**﴾(٢).

وهذا أمر يحبه الله، ويرضاه، ويثيب عليه..

فظهر أنه لا مانع من السعي في هذا الإتجاه. وقد ذكر ذلك «عليه السلام» في رسالته لحذيفة أيضاً..

ويؤكد الحاجة إلى هذا المعنى: أن أهل مصر الذين عاشوا في ظل الملوك والعمال الذين تولوها بعدهم، كابن أبي سرح وعمرو بن العاص، كانوا يشاهدون حرص هؤلاء على إظهار الأبهة لأنفسهم، وتكريس عزتهم، وتقوية شوكتهم.. فإذا رأى الناس الضعف والخمود في الجهة الأخرى،

---

(١) الآية ٥ من سورة المجادلة.

(٢) الآيتان ١٢٦ و ١٢٧ من سورة آل عمران.

فإنهم سيترددون في الإلتحاق بها، لأنهم لا يشعرون بقدرتها على حمايتهم، وإرضاء طموحاتهم.

علي عليه السلام يوافق قيساً:

قد يقال: لقد أمر علي «عليه السلام» قيساً بأن يستصحب جنداً إلى مصر، ليظهر العزة، ويخيف ويكبت بهم العدو.

فلما أظهر قيس عدم رغبته بذلك، لم يعترض عليه أمير المؤمنين «عليه السلام»، فهل كان هذا لأجل أنه تبين له خطؤه، وإصابة قيس في تقدير الأمور؟! وهل يخطئ المعصوم، ويصيب غير المعصوم؟!

ويجاب:

بأنه «عليه السلام» قد عامل قيساً بما يعامل به غيره، فأعلمه بأنه على استعداد لأن يؤثره على نفسه بذلك الجند، الذي كان يعلم بأنه سيحتاج هو إليه..

وجاء موقف قيس الرافض للجند، ليظهر ـ عن غير قصد منه ـ تميزه عن كثير من الرجال، فهو قادر على أن يدبر الأمور بنحو يستغني به عن الجند، وليدل على أن إرساله بدون جند لا يعد تغريراً به، ولا يلام علي «عليه السلام» في ذلك، لأن قيساً أهل لأن يتولى مهمته على هذا النحو، ولأنه هو الذي رفض استصحاب الجند.

وكان سكوت علي «عليه السلام»،ورضاه بقرار قيس دليلاً على أنه يعرف أن قيساً«رحمه الله» أهل لذلك ولأكثر منه، وأن النجاح سيحالفه في مهمته.. ولولا ذلك لكان أصر«عليه السلام» عليه، وفند أقواله ولم يصغ إليه..

كتاب علي عليه السلام إلى المصريين:

وعلينا أن نشير هنا إلى ما يلي:

١ ـ يلاحظ: أن الكتاب السابق هو ـ تقريباً ـ نفس الكتاب الذي أرسله «عليه السلام» إلى حذيفة بن اليمان ليقرأه على أهل المدائن. فدل ذلك على أنه «عليه السلام» كان قد أرسل نسخة واحدة إلى البلدين معاً.. وربما يكون قد أرسل نفس هذه النسخة إلى البلاد الأخرى التي أرسل إليها عماله..

٢ ـ إن الاختلافات اليسيرة التي تسجل بين الكتاب المرسل إلى المدائن، وبين هذا الكتاب المرسل إلى مصر لا تضر، ولا توجب اعتبارهما نصين مختلفين، إذ قد يختلف نقل نص الكتاب الواحد، حتى عن الراوي الواحد، لأن الراوي قد ينقل بالمعنى، وقد ينسى وقد يتذكر، وقد يقدم ويؤخر ويزيد وينقص، ومع اختلاف الناقلين، قد يتفاوت الأمر بينهم بصورة أكبر، ولعل بعضهم يحرف أو يضيف بعض التعابير من عند نفسه لأغراض شتى.. ولعل.. ولعل..

هل عمل الخلفاء بالسنة؟!:

تقدم في نص الكتاب الذي أرسله «عليه السلام» إلى المدائن: أن الناس أقاموا أبا بكر وعمر، ورضوا بهما، ثم مضيا، فاستخلف عثمان..

ولكن الكتاب المرسل إلى المصريين أضاف هنا عبارة أخرى تقول: عن الناس أقاموا «امرأين منهم صالحين، عملا بالكتاب، وأحسنا السيرة، ولم

يعدوا السنة».

ونحن نرى: أن هذه العبارات مقحمة في النص من قبل الرواة المحبين لأبي بكر وعمر، دليلنا على ذلك إعتراضه «عليه السلام» على كثير مما فعلاه. وقد بقي يذكِّر الناس ببعض ذلك طيلة حياته.

ومن ذلك ما جرى لمالك بن نويرة، وزوجته، ومن معه، على يد خالد بن الوليد، وحماية أبي بكر لخالد. ومنه ما قاله «عليه السلام» في خطبته الشقشقية.. ومنه اغتصابهم فدك منه ومن الزهراء «عليهما السلام»، وغير ذلك كثير، وقد ذكرنا بعضه في كتابنا هذا.

أعينوه على الحق:

واللافت: أنه «عليه السلام» حين ذكر قيس بن سعد في كتابه للمصريين، قال: «فوازروه وأعينوه على الحق»..

فإنه «عليه السلام» وإن كان يعلم: أن قيساً لا يعدو الحق في سيرته وعمله فيهم، ولكنه أراد أن لا تساء الاستفادة من إطلاق الكلام، فإنه لو اكتفى بالقول: فوازروه وأعينوه. لا تخذ الآخرون قوله هذا ذريعة لإلزام الناس بطاعة عمالهم، ولو كان أفسق وأظلم، وأشر الناس. ولكنه «عليه السلام» حين قيد الموازرة والمعونة بكونها على الحق، يكون قد حصن الناس من عملية خداع قد يتعرضون لها..

هذا مع العلم بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

المحسن والمريب:

ومن الواضح: أن الإحسان يشجع العامل على مواصلة السير في طريق الإحسان، ثم هو يشجع غيره على سلوك نفس هذا الطريق، لجاذبية الإحسان في نفسه، وللرغبة في حسن الذكر وطيب الأحدوثة، والاعتزاز بالكفاءة والمقدرة.

أما الشدة على المريب فالمراد بها عدم التساهل معه، والعمل بالحزم، وملاحقته بسيئاته ليجد صعوبة في تلك السيئات، وإفهامه أن ثمن هذا الاستمرار هو الحرمان من الراحة، ومواجهة المصاعب والمتاعب التي لا تنتهي..

وليس المقصود بالشدة عليه ظلمه، وهدر حقوقه.. بل إن إيصال حقوقه كاملة إليه يجعله يدرك الفرق بين خط الانحراف وخط الاستقامة..

قيس في مصر:

وبعد قراءة كتاب أمير المؤمنين «عليه السلام» على أهل مصر، صعد قيس المنبر، وخطب الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال:

الحمد لله الذي أمات الباطل، وأحيا الحق، وكبت الظالمين.

أيها الناس..

إنا بايعنا خير من نعلم بعد نبينا «صلى الله عليه وآله»، فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه، فإن نحن لم نعمل فيكم بكتاب الله وسنة رسوله، فلا بيعة لنا عليكم.

فقام الناس فبايعوا. واستقامت له مصر، وأعمالها، فبعث عليها عماله، إلا أن قرية منها قد أعظم أهلها قتل عثمان، وبها رجل من بني كنانة، يقال له يزيد بن الحارث، فبعث إلى قيس بن سعد: ألا إنا لا نأتيك، فابعث عمالك، والأرض أرضك. ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس.

قال: ووثب مسلمة بن مخلد، بن صامت الأنصاري، فنعى عثمان، ودعا إلى الطلب بدمه.

فأرسل إليه قيس: ويحك، أعلي تثب؟! والله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر، وأني قتلتك [فاحقن دمك].

فأرسل إليه مسلمة: إني كاف عنك ما دمت أنت والي مصر..

قال: وكان قيس له حزم ورأي، فبعث إلى الذين اعتزلوا: إني لا أكرهكم على البيعة، ولكني أدعكم، وأكف عنكم.

فهادنهم، وهادن مسلمة بن مخلد، وجبا الخراج، وليس ينازعه أحد..

قال: وخرج علي «عليه السلام» إلى الجمل، وهو على مصر، ورجع إلى الكوفة من البصرة، وهو مكانه، فكان أثقل خلق الله على معاوية لقربه من الشام، مخافة أن يقبل إليه علي «عليه السلام» بأهل العراق، ويقبل إليه قيس بأهل مصر فيقع بينهما(١).

---

(١) الغارات للثقفي ج١ ص٢١٢ ـ ٢١٣ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٥٣٥ وشرح نهج البلاغة ج٦ ص٥٧ ـ ٦٠ والدرجات الرفيعة ص٣٣٦ و ٣٣٧ وأنساب

وبدأ يعمل الحيلة في عزله. وسيأتي إن شاء الله الكلام حول ذلك بعد انتهاء الحديث عن حرب الجمل.

ونقول:

تستوقفنا في هذا النص أمور عديدة، نذكر منها ما يلي:

مسلمة بن مخلد:

إن قيس بن سعد بعث لمسلمة بن مخلد ـ وهو من صغار الصحابة ـ يقول له: «ويحك أعلي تثب؟! ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر، وإني قتلتك، فاحقن دمك».

ونلاحظ الأمور التالية:

١ ـ قد توهم هذه الرسالة: أن قيساً كان يعظم مسلمة إلى حد كبير، أو أنه كان يحبه حباً جماً دعاه إلى أن يكتب إليه بهذه الطريقة..

غير أن الحقيقة هي: أن ذلك لم يكن، فقد كان قيس يعلم ميول مسلمة، وأنه غير مرضي الطريقة، بل كان واضح الجنوح إلى الباطل، وقد أثبتت الوقائع المستقبلية ذلك، لأنه كان من أنصار معاوية، ولم يكن مع معاوية في صفين سواه وسوى النعمان بن بشير. وهو ممن شهد قتل محمد بن أبي بكر، وكان مسلمة بن مخلد عامل معاوية على مصر والمغرب[(١)].

الأشراف ج٢ ص٣٩٠ وتاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٥٥١ والكامل في التاريخ ج٣ ص٢٦٩.

(١) قاموس الرجال للتستري (ط جماعة المدرسين) ج١٠ ص٧٢ والإستيعاب (ط

وقبل ذلك كله.. إنه بخروجه على قيس إنما خرج على علي «عليه السلام»، الذي هو إمام زمانه، فيجب دفعه ولو بقتله، ويكون قتله من موجبات المثوبة عند الله تعالى. ولعل قيساً أراد أن يقول له: إنه لو أعطي ملك مصر والشام على أن يقتله وهو في حال الإستقامة على جادة الحق، لم يحب ولم يرض بقتله..

وعلى مسلمة بعد هذا أن يقارن ويوازن بين معاوية الذي لا يهمه موت مسلمة وخيانته إلا بمقدار ما يخدم ذلك مصالحه ومطامحه.. وبين قيس الذي يهتم بسلامة مسلمة إلى هذا الحد.

فعلى مسلمة وغيره أن يفهموا: أن أتباع علي «عليه السلام» وأنصاره ليسوا كغيرهم من مناوئيه، فإنهم غير متعطشين لسفك دماء مخالفيهم بسبب، وبلا سبب.

بل هم يريدون أن يحقنوا دماء جميع الناس، وهم أحرص الناس على هذا الأمر إلا إن ألجأتهم ضرورة الدفاع عن أنفسهم إلى هذا الأمر.

دار الجيل) ج٣ ص١٣٩٧ و ١٣٩٨ وفتوح مصر وأخبارها ص٣٣٣ و ٤٦٣ وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص٩٩ و (ط مؤسسة الأعلمي) ج٤ ص١٧٨ والكامل في التاريخ ج٣ ص٤٦٥ وعمدة القاري ج٢٣ ص٢٣١ وتاريخ مدينة دمشق ج٤٠ ص٥٣٢ وج٥٨ ص٦٣ وسير أعلام النبلاء ج٣ ص٤٢٤ وتهذيب التهذيب ج١٠ ص١٣٤ والأعلام للزركلي ج٧ ص٢٢٤ وأخبار القضاة ج٣ ص٢٢٣ ومعجم البلدان ج٤ ص٢٦٥.

٢ ـ إن قيساً قد صرح في آخر كلامه بأنه لا يمانع في قتل مسلمة إن استمر على حالة العصيان والتمرد، ولذلك قال له: «فاحقن دمك».

٣ ـ إنه «رحمه الله» قد شاب كلامه لمسلمة بما دل على أن قتله يعز عليه، وعلى أنه لا يرضى بقتله، ولأجل ذلك تعجب من خروجه عليه، فتركت كلماته هذه أثرها في نفس مسلمة، فتراجع عن مناجزته، وأعطاه وعداً بعدم التحرك ضده ما دام قيس والياً على مصر.

٤ ـ إن هذا الوعد الذي أعطاه مسلمة إن دل على شيء فإنه يدل على أن تحركه لم يكن نصرة للدين وأهله، وإنما كان عن هوى وعصبية، فلما صادف لدى قيس منفعة شخصيه آثرها على كل الشعارات التي رفعها، والدعاوى العريضة التي أطلقها، وإلا فقد كان يجب أن لا يستكين أمام هذا الكلام، ولا يتخلى عما يراه تكليفاً إلهياً، ولوجب عليه أن يدعو قيساً لنصرة الحق الذي رفع شعاره، وأن ينضم إليه لحرب علي «عليه السلام» التي أوشك أن يوقد نارها

البيعة مشروطة:

إن المصريين قد اعتادوا على الملوك الطغاة الذي يتخذون أرباباً من دون الله، ويرون الفخامة والأبهة، والشوكة والبطش والجبروت عنواناً لوجودهم، ومن أجلى مكونات سلطانهم، ثم جاءهم ولاة من المسلمين لا يبتعدون كثيراً عن هذه الأجواء، إن لم نقل: إنها جزء لا يتجزأ من ذهنيات بعضهم.

مثل عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

وقد أثبتوا عملياً أيضاً: أن منطقهم التسلط والقهر والبطش، والانتقام، وفرض حكمهم على الناس، وممارسة جميع أنواع التعديات، وارتكاب الجرائم بحق الأمة باسم الدين والشرع بالسيف والسوط..

إن المصريين الآن يسمعون لأول مرة من قيس بن سعد لغة جديدة لا عهد لهم بها وكلاماً يناقض ما عرفوه وألفوه، فلم يحدث في التاريخ لا قبل ذلك ولا بعده أن طُلِبْتِ البيعة من الناس مشروطة يكون الإخلال بالشرط مسقطاً للبيعة بصورة تلقائية، وبدون الحاجة إلى بحث وجدال، بل وبلا حاجة إلى جعل حَكَمٍ ينظر في الأمر..

كما أن انحلال البيعة بهذا النحو يجعل التحرك ضد الحاكم المخالف للشرط، لإعادته إلى جادة الصواب، أو لتنحيته عن مقام أصبح في موقع الغاصب له ـ يجعله ـ أمراً مشروعاً، بل ـ يجعله ـ واجباً يثاب الناس على فعله، ويعاقبهم الله على التهاون فيه وتركه..

واللافت في الأمر: أن ما يتعهد به هذا الحاكم للناس أمر ميسور وقريب المأخذ، يستطيع الناس كلهم أن يدركوه وأن يميزوه. وليس هو من الأمور الخفية التي تقتصر معرفتها على طبقة معينة، ولا هو من الأسرار التي يختص بالاطلاع عليها بعض الناس دون بعض..

كما أن إطلاق هذا الشرط يعطي أنه البيعة تسقط، بمخالفة الحاكم ولو مرة واحدة لأي حكم من أحكام الكتاب والسنة.. ولا يحتاج إلى الصبر إلى حين تكرر المخالفات لتصبح ظاهرة عامة، تطبع سياساته وتصرفاته..

وهذا الشرط يبيِّن:

أولاً: أن العصمة التامة شرط في الحاكم.

ثانياً: إن الخلفاء الذين سبقوا علياً «عليه السلام» لم يكونوا معصومين، فلا شرعية لخلافتهم، وكذلك الحال بالنسبة للخلفاء بعد أمير المؤمنين وبعد الإمام الحسن المعصوم «عليهما السلام» أيضاً بدلالة آية التطهير، فإن جميع من استخلف بعدهما لم يكن حائزاً على صفة العصمة، فالبيعة له تسقط بمجرد مخالفته للكتاب والسنة، إلا إذا فرض إمضاء ولايته من قبل المعصوم، وكان يملك صفة العدالة، التي تصونه عن تعمد المخالفة..

ثالثاً: إن هذا يدل على لزوم معرفة الخليفة بالأحكام إلى حد الإحاطة التامة بها، لكي يتمكن من إدارة الأمور بنحو صحيح، ومن دون أن يقع في مخالفة أي حكم منها.

بايعنا خير من نعلم:

ثم إن قيس بن سعد لم يقل بايعنا خير الناس في عصرنا هذا، بل قال: بايعنا خير من نعلم بعد نبينا، فدل ذلك على ما يلي:

١ ـ إن علياً «عليه السلام» أفضل الناس بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فلا معنى لادعاء أفضلية أحد غيره عليه، ومساواته له.

بل لعل هذا التسالم الذي أشار إليه قيس يدلنا على أن ادعاء أفضيلة، أو مساواة أحد لعلي «عليه السلام» في الفضل إنما هو نتاج الحقب اللاحقة في سياق التسويق لسياسات، تهتم بل تقوم على إسقاط الهيمنة العلوية في مختلف جهات الكمالات والفضائل، والملكات، والمزايا..

٢ ـ إن البيعة لعلي «عليه السلام» كانت تقوم على معيار الفضل والكمال، والمزايا والملكات، ولا تقوم على رعاية المصالح الفئوية، أو السياسية، أو التعصبات القبلية، أو المناطقية أو ما إلى ذلك..

٣ ـ إن قيساً رضوان الله تعالى عليه قد أخذ البيعة لعلي من أهل مصر على نفس هذا الأساس الذي دعا الصحابة وغيرهم إلى إعطائه البيعة بعد قتل عثمان.

وهذا أمر لم يحدث لغير علي «عليه السلام» على الإطلاق، إذ كانت البيعات تفرض على الناس فرضاً، انطلاقا من معايير ليس فقط لا تنسجم مع هذا المعيار، وإنما هي تتناقض معه ومع الواضحات من أحكام الشريعة الإسلامية الغراء.

البيعة على الكتاب والسنة:

وغني عن البيان أن بيعة أمير المؤمنين في الحجاز والعراق، ومصر، وفي جميع بلاد الإسلام قد تمت على أساس العمل بالكتاب والسنة، ولم تذكر سنة أبي بكر، ولا اجتهاد الرأي، لا من قريب ولا من بعيد.

وبذلك يكون «عليه السلام» قد أبطل السياسة التي كان يراد تكريسها في الأمة، والتي تقضي بضم سنة غير سنة الرسول «صلى الله عليه وآله» إلى مضمون البيعة.

وقد تقدم في هذا الكتاب: أن رفضه «عليه السلام» لهذا الشرط كان هو السبب الظاهري لعدول ابن عوف عن البيعة لعلي «عليه السلام» إلى البيعة لعثمان الذي بويع على هذه الشروط، ثم قتل لأنه لم يف لهم بها، كما اتضح

في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب.

سياسات قيس:

وقد أجاب قيس فيما فعله مع يزيد بن الحارث ومن هم على مثل رأيه من الاكتفاء بمهادنة الذين لم يبايعوا، وعدم التعرض لهم بعد أن رضوا بأن يكونوا سامعين مطيعين، غير منابذين، ولا محاربين. فإن المهم هو حفظ نظام الأمة، وتوفير الأمن للناس، وحفظ أموالهم وأعراضهم ودمائهم ودينهم، ولا بد أن تترك سياسته هذه الأثر الطيب في نفوسهم.

كما أن سيرته في الناس، والعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله، ورؤيتهم الفرق بين سياسات أهل العدل وبين سياسات غيرهم.. سيزيد في رضا الناس وأنسهم بهذا الحكم الجديد، وسيرون أن نفس رضاه منهم بهذا المقدار، وكفه عنهم إحساناً لهم ورفقاً بهم، وسيترك أثراً طيباً في نفوسهم، وسيحبب لهم دولة العدل والإيمان، والرفق والإحسان.

هذا بالإضافة إلى أنهم سوف يكتشفون حقيقة الأمور تدريجياً، وستصلهم أنباء الحوادث، وسيعرفون الأجواء والمناخات التي انتهت بقتل عثمان..

كما أنهم سيجدون الفرصة للتعرف على أمير المؤمنين «عليه السلام»، بهدوء وروية، وبعيداً عن أجواء التشنج والعصبية.

فكأن قيساً «رحمه الله» استفاد مما جرى في صلح الحديبية، وأراد أن يطبق مضمونه العام في سياساته مع هؤلاء، فإن بعض الناس وجد في صلح الحديبية خطأً فادحاً، واعتبره ذلاً لا يطاق، ولكن الله تعالى اعتبره

نصراً وفتحاً مبيناً، كما صرح به في الآية الأولى من سورة الفتح..

واعتبر أن المبادرة لرفض هذا الصلح سببه الحمية غير المحمودة..

وقد أراد سعد أن يهيئ هؤلاء الناس لاكتشاف الحقائق بصورة عملية لتترسخ القيم في نفوسهم، وليندفعوا إلى البيعة بكل رضا وحرص وانتباه..

ولكن بعض الناس لم يدركوا هذه الحقيقة، رغم أن أمير المؤمنين «عليه السلام» عبر لهم عن ثقته بقيس، وبسياساته كما سنرى إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث:

من أوامر علي عليه السلام لعماله..

كتب إلى عماله بعد قتل عثمان

وكتب «عليه السلام» إلى عماله بعد قتل عثمان:

أما بعد.. فإنما أهلك من كان قبلكم: أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه[1].

ونقول:

لاحظ ما يلي:

١ ـ قال الشيخ محمد باقر المحمودي:

جملة: «من كان قبلكم» فاعل لقوله: «أهلك»، ومفعوله محذوف، أي أهلك الناسَ من كان قبلكم من الأمراء، من أجل أنهم منعوا حقوق الناس، فاشترى الناس حقهم منهم بالرشا والأموال.

وروي: «فاستروه» بالسين المهملة، بمعنى اختاروه، فالضمير راجع

---

(١) نهج البلاغة ج٣ ص١٣٨ (بشرح عبده) قسم الكتب، الكتاب رقم ٧٩ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٤٨٧ ونهج السعادة ج٤ ص٢٩ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٨ ص٧٧ وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج١٢ ص٥٩.

إلى الأمراء والظلمة ـ لا إلى الناس ـ أي منعوا الناس حقهم من الأموال، واختاروها لأنفسهم فاستأثروا بها(١).

غير أننا نرى: أن جملة «من كان قبلكم» في موقع المفعول به، وعبارة: أنهم منعوا الناس هي الفاعل. أي أن منعهم الناس الحق هو الذي أهلك الحكام الذين كانوا في الأمم السالفة، لأن هذا المنع قد تسبب بدفع الناس إلى الرشوة بالأموال ليحصلوا على حقهم الذي منع عنهم.

٢ ـ وقال المحمودي أيضاً عن أخذ الأمراء الناس بالباطل: أي حملوا الناس على الباطل فاقتدوا بهم، لأن الناس دائماً يحذون حذو الأمراء، لا سيما إذا كانت رويتهم ملائمة لشهوات الناس(٢).

ونقول:

إن ما ذكره المحمودي هو أحد المفردات. وهناك معنى آخر أظهر من هذا المعنى، وهو أنهم يفرضون عليهم الباطل بقوة سلطانهم، ثم يصير ذلك الباطل سنة جارية فيهم، وعلى قاعدة: «الناس على دين ملوكهم».

٣ ـ إنه «عليه السلام» يريد تحذير الولاة الذين أرسلهم إلى البلاد من أن يمنعوا الناس من حقوقهم، فإن ذلك من شأنه أن يفسد البلاد والعباد، ويفقد الناس الثقة بحكامهم، ويزيد في شره الناس إلى الأموال، ولا يبقى معيار ينتهي الناس إليه..

---

(١) نهج السعادة ج٤ هامش ص٣٩.

(٢) نهج السعادة ج٤ هامش ص٣٩.

كما أن من يحصل على حقه بالرشوات، فإنه سيحصل على الباطل بالرشوات أيضاً.

هذا عدا عن أن هذا الأسلوب يسقط الأخلاق والقيم عن القيمة والتأثير، لتحل محلها أضدادها، وتتحكم رذائل الأخلاق، وينتهي الأمر إلى استعمال الرشا، والوقوع في الفوضى، والاستغلال، وما إلى ذلك ليصبح ذلك هو القيمة التي يقوم عليها بناء المجتمع، وهي في الحقيقة السم القاتل لكل نبضات الحياة والقوة في المجتمع الإسلامي

كتب إلى عماله كافة: أدقوا أقلامكم:

قال علم الشيعة، وشيخ الشريعة محمد بن علي بن الحسين قدس الله نفسه: حدثني محمد بن علي ماجيلويه رضي الله عنه، قال: حدثنا محمد بن يحيى العطار، قال: حدثني سهل بن زياد الأدمي، عن يعقوب بن يزيد، عن محمد بن إبراهيم النوفلي، رفعه إلى (الإمام الصادق) جعفر بن محمد [«عليه السلام»]، أنه ذكر عن آبائه «عليهم السلام»: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» كتب إلى عماله:

أدقوا أقلامكم، وقاربوا بين سطوركم، واحذفوا عني فضولكم، واقصدوا قصد المعاني، وإياكم والإكثار، فإن أموال المسلمين لا تحتمل الإضرار(١).

---

(١) راجع: الخصال ج١ ص٤٩ و (ط أخرى) ص٣١٠ وبحار الأنوار ج٤١ ص١٠٥ وج٧٣ ص٤٩ وج١٠١ ص٢٧٥ ومستدرك نهج البلاغة ص١١١

ونقول:

١ ـ إن المطلوب من الكتاب هو إبلاغ المقاصد للمكتوب إليه بصورة صحيحة وواضحة

٢ ـ إن تدقيق الأقلام يفسح المجال لتصغير الأحرف، وتقليل المساحة التي تحتاج الكلمات إليها لتتميز حروفها عن بعضها البعض. وهذا يقلل من مساحة الرقعة التي يحتاج إليها في كتابة الرسائل. كما أنه يقلل كمية المداد الذي يحتاج إليه في إبلاغ المقاصد

٣ ـ إن المقاربة بين السطور تفيد في اختصار المساحة التي يحتاج إليها في الكتابة

٤ ـ إن حذف فضول الكلام يزيد في تقليل الكمية التي يحتاج إليها من المداد، ومن مقدار الرق الذي يستفاد منه..

٥ ـ إنه إذا كانت أوامره «عليه السلام» لعماله قد بلغت هذه الحدود من التدقيق، في شأن بيت المال.. وملاحقة حتى هذه الجزئيات التي لا يكاد أحد يشعر بوجودها، فضلاً عن أن يشعر بخطرها، أو بضررها، وقد لا تخطر على بال أحد سوى علي «عليه السلام»، فما بالك بجلائل الأمور، وما

ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٧ ص٤٠٤ و (الإسلامية) ج١٢ ص٢٩٩ وجامع أحاديث الشيعة ج١٨ ص٩ ومستدرك سفينة البحار ج٣ ص١٣٢ والإمام علي بن أبي طالب للهمداني ص٦٦٧ ونهج السعادة ج٤ ص٣٠.

يكثر الإبتلاء به والتعرض له من قضايا الناس، مما له ارتباط بالأموال، أو بالأعراض أو الدماء، أو غير ذلك من المصالح، أو المفاسد التي تعرض لحياة الناس..

لا تسخروا المسلمين:

ومما كان يكتبه «عليه السلام» إلى عماله، ما رواه الكليني:

محمد بن يعقوب رضوان الله تعالى عليه، عن أبي علي الأشعري، عن محمد بن عبد الجبار، عن صفوان، عن ابن مسكان، عن الحلبي، عن أبي عبد الله [الإمام الصادق] «عليه السلام»، قال: كان أمير المؤمنين «عليه السلام» يكتب إلى عماله:

لا تسخروا المسلمين، ومن سألكم غير الفريضة فقد اعتدى فلا تعطوه.

[قال] وكان [«عليه السلام»] يكتب ويوصي بالفلاحين ـ وهم الأكارون ـ خيراً[1].

ونقول:

---

(١) الكافي ج٥ ص٢٨٤ وذيله رواه الحميري في قرب الإسناد ص٦٤ وتهذيب الأحكام ج٧ ص١٥٤ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٩ ص٦٢ و (الإسلامية) ج١٣ ص٢١٦ وجامع أحاديث الشيعة ج١٨ ص٤٥٩ وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج١ ص٣٠٢ ونهج السعادة ج٤ ص٣١ وراجع: مستدرك الوسائل ج١٣ ص٤٧٢ وبحار الأنوار ج١٠٠ ص١٧٢.

١ ـ المقصود بغير الفريضة، ما كان يُفْرَضُ لآحاد المسلمين من بيت المال، فمن طلب الزيادة عليها، فهو معتد، يريد أن يأكل مالاً لا يستحقه، ومن دون مبرر، ومن يكون كذلك يستحق العقوبة بالحرمان على أقل تقدير.

٢ ـ تضمن هذا النص النهي عن سخرة المسلمين، بمعنى حملهم على العمل من دون أجر، فإن عمل المسلم محترم عند الشارع، ولا يصح استلابه منه من دون رضا، وطيب نفس.

وعمل السخرة يكرس الشعور بعدم الاحترام لدى العامل، فتختل العلاقة بينه وبين من يسخره. وتصاب نظرة كل منهما إلى الآخر بالتسمم، الذي يفقدها الكثير من حيويتها وفعاليتها.

٣ ـ إنه «عليه السلام» يكتب إلى عماله، ويوصيهم بالفلاحين خيراً. والفلاحون هم المنتجون الحقيقيون بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وفي جميع الأحوال، وهم عصب أساسي في الحياة، لأن قوت المجتمع يتوقف في أكثره على ما ينتجونه ويقدمونه.

أما الصناع وأصحاب الحرف، فإنهم يتصرفون غالباً في منتجات الفلاحين، أو بما يستخرج من الأرض، من مواد خام، ويحولونها إلى أدوات يستفيد منها الناس في مصالحهم ومعاشهم، بما فيهم الزارع والفلاح أيضاً، وكذلك التجار..

فلا بد من حفظ هذا النوع من الناس، وهم من يعمل في الأرض، يعمرها، ويزرعها، ويستخرج خيراتها، والعمل على تسيير أمورهم،

وتمكينهم من الاستمرار، لأن ضعفهم أو توقف حركتهم يؤدي إلى الإرتهان للغير، ويمكنه من الإمساك بالشريان الحيوي، الذي يمد المجتمع بالحياة، ويمكنه من البقاء والاستمرار..

كتابه عليه السلام إلى حذيفة:

وقد كتب «عليه السلام» إلى عامله على المدائن يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى حذيفة بن اليمان، سلام عليك.

أما بعد.. فإني وليتك ما كنت عليه لمن كان قبلي من حِرف المدائن(١)، وقد جعلت إليك أعمال الخراج والرستاق، وجباية أهل الذمة، فاجمع إليك ثقاتك ومن أحببت ممن ترضى دينه وأمانته، واستعن بهم على أعمالك، فإن ذلك أعز إليك ولوليك، وأكبت لعدوك.

وإني آمرك بتقوى الله وطاعته في السر والعلانية، وأحذرك عقابه في المغيب والمشهد.

وأتقدم إليك بالإحسان إلى المحسن، والشدة على المعاند، وآمرك بالرفق في أمورك، واللين والعدل في رعيتك، فإنك مسؤول عن ذلك، وإنصاف المظلوم، والعفو عن الناس، وحسن السيرة ما استطعت، فإن الله يجزي المحسنين.

---

(١) هو جمع الحرف ـ كفلس ـ وهو من كل شيء طرفه وشفيره وحده وأعلاه، ومنه حرف الجبل: أعلاه المحدد.

وآمرك أن تجبي خراج الأرضين على الحق والنصفة، ولا تجاوز ما تقدمت به إليك، ولا تدع منه شيئاً، ولا تبدع فيه أمراً، ثم اقسمه بين أهله بالسوية والعدل.

واخفض لرعيتك جناحك، وواس بينهم في مجلسك، وليكن القريب والبعيد عندك في الحق سواء، واحكم بين الناس بالحق، وأقم فيهم بالقسط، ولا تتبع الهوى، ولا تخف في الله لومة لائم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وقد وجهت إليك كتاباً لتقرأه على أهل مملكتك، ليعلموا رأينا فيهم وفي جميع المسلمين، فأحضرهم واقرأه عليهم، وخذ البيعة لنا على الصغير والكبير منهم إن شاء الله تعالى»(١).

ونقول:

في هذا الكتاب مواضع عديدة حبذا لو سنحت الفرصة للتوقف عندها، غير أننا نقتصر منها هنا على نقطتين هما:

---

(١) الدرجات الرفيعة ص٢٨٨ و ٢٨٩ ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٤ ص٩٥ و ٩٦ وبحار الأنوار ج٢٨ ص٨٦ ـ ٨٨ ونهج السعادة ج٤ ص١٩ ـ ٢١ ومستدرك نهج البلاغة ص١١٧ وإرشاد القلوب للديلمي ج٢ ص١١٧ ومستدرك الوسائل ـ كتاب الجهاد ـ ج٢ ص٢٦٠ و (ط مؤسسة آل البيت) ج١١ ص٩٢ عن الديلمي، وجامع أحاديث الشيعة ج١٣ ص٢٠١ و ٢٠٢.

١ ـ المعيار في العمَّال: الدين والأمانة:

أمر «عليه السلام» حذيفة بن اليمان بالإستعانة على أعماله بثقاته ومن أحب ممن يرضى دينه وأمانته. فإن ذلك أعز إليه ولوليه، وأكبت لعدوه. ونستخلص من الكلمات اليسيرة هنا أموراً جليلة، ومهمة وكبيرة، فنذكر منها:

١ ـ أنه لا بد أن تراعى في من يراد الاستعانة به على الأمور خصوصيات ومواصفات، أهمها: أن يكون من ثقات من يستعين به. ولا يصبح الإنسان عادة من الثقات، إلا بعد العشرة الطويلة، والإختبار المتواصل.

فالمعيار عنده «عليه السلام» هو الوثاقة لا القرابة، ولا الصداقة، ولا الغنى، ولا الوجاهة، ولا كونه ابن فلان الزعيم، أو الرئيس، أو ما إلى ذلك..

٢ ـ ربما يستنفذ الإنسان جهد هذه الفئة من الناس في الأعمال المختلفة، فيحتاج إلى توسعة دائرة الإستعانة إلى غيرهم، ففتح «عليه السلام» أمام حذيفة باباً آخر يمكنه أن يلج منه محيط يجد فيه الكثير ممن يمكنه أن يستعين بهم أيضاً، فأرشده إلى لزوم الاستفادة من طاقات وخبرات أولئك الذين يمكنه أن يفحص عنهم ويكشف حالهم، إذا كانوا حائزين على صفتين:

أولاهما: أن يرضى دينهم..

الثانية: أن يرضى أمانتهم..

٣ ـ لم يشر أيضاً هنا إلى أية صفة أخرى، كالقرابة والصداقة، والزعامة،

والغنى، وما إلى ذلك، وإن كانت يمكن أن تلتقي أحياناً بهاتين الصفتين، فيكون الصديق أو القريب، أو الغني، أو الرئيس، أو الزعيم من أهل الدين والأمانة، من الثقات. ولكن المعيار هو هذه الخصوصيات، لا تلك، لأن تلك قد تكون عبئاً على هذه، وعائقاً أمام فاعليتها.

٤ ـ كان يمكن أن يقتصر «عليه السلام» على قوله: «ومن ترضى دينه وأمانته»، ولكنه لم يفعل ذلك، بل أضاف إليها كلمة: «من أحببت». وحاشا أمير المؤمنين «عليه السلام» أن يريد للهوى، وللعلاقة الشخصية أن يكون لها دور في اختيار الأعوان، بل أراد «عليه السلام» أن يجعل له الإختيار حين يكثر هذا الصنف من الناس إلى حد يزيد عن حاجته، فأوكل أمر التعيين إلى فراسته، وترجيحاته الشخصية، أو لبعض الإعتبارات التي قد يرى أنها تريحه، أو تريح الناس أكثر. وإنما يعطيه هذا الخيار بعد التأكد من توفر العنصرين الأساسيين، وهما: أن يرضى دينه، وأمانته حسبما تقدم.

٥ ـ ثم إنه «عليه السلام» بيَّن لحذيفة: أن العمل الجماعي، مع نخبة من الثقات، ومن يكون مرضي الدين والأمانة.. سيكون من موجبات ازدياد العزة، والشعور بالكرامة ومن موجبات كبت العدو، إذ سيسوؤه أن يرى أهل الدين ممسكين بالأمور، ويهيمنون على مسارها، عاملين فيها وفق ما يفرضه الشرع والدين، ويسعده أن يرى المفسدين، والظالمين وأهل الأهواء، وطلاب اللبانات يعبثون بأمن الناس، ويضيعون مصالحهم، ويفسدون حياتهم.

٢ ـ لا تجاوز ولا تبتدع:

وبعد أن أصدر «عليه السلام» لحذيفة أوامره المرتبطة بجباية الخراج على الحق، والنصفة. وبعد أن قال: «..ولا تجاوز ما تقدمت به إليك، ولا تدع منه شيئاً، ولا تبدع فيه أمراً».

فألزمه «عليه السلام» بما يلي:

١ ـ ضرورة الإلتزام الحرفي بتوجيهات القيادة، والمنع الصارم من تجاوزها..

٢ ـ التطبيق الشامل، لجميع الأوامر الصادرة، بحيث لا يدع منها شيئاً.

٣ ـ لا يحق للعامل الإجتهاد وإعمال الرأي، بإضافة أي شيء إلى ما أمره به، فإن الزيادة تعادل النقيصة في السوء والإفساد..

٤ ـ إن هذا يؤكد مفهوم الإنضباط في جميع المراتب، ولا يقتصر لزوم ذلك على العامة، أو على الفئات في المراتب الدنيا، أو في شأن دون آخر..

٥ ـ إن الإلتزام بحرفية الأوامر يمكّن القيادة العليا من اتخاذ القرارات الصحيحة ما دام أن الواقع العيني ماثل أمامها، ولا يخفى عليها منه شيء.

ولو كان للعامل أن يجتهد ويزيد وينقص لامتنع على القائد اتخاذ أي قرار، ولأضحت حركته مشلولة، يحتاج دائماً إلى حضور عماله، ليعرف منهم حقيقة الأمور، ولعل في إعاقة أو تأخير اتخاذ القرارات الضرر البالغ، والفساد العظيم..

ابن المنتجب عامل عليٍ عليه السلام:

قال العلامة المجلسي «رحمه الله»:

«روى أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد البكري، عن لوط بن يحيى، عن أشياخه وأسلافه، قالوا:

لما توفي عثمان وبايع الناس أمير المؤمنين «عليه السلام»، كان رجلٌ يُقال له: حبيب بن المنتجب والياً على بعض أطراف اليمن من قبل عثمان، فأقره عليٌ «عليه السلام» على عمله، وكتب إليه كتاباً يقولُ فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى حبيب بن المنتجب.

سلامٌ عليك..

أما بعد، فإني أحمدُ الله الذي لا إله إلا هو، وأُصلي على محمد عبده ورسوله. وبعد:

فإني وليتُك ما كنت عليه لمن كان من قبل. فامسك على عملك، وإني أُوصيك بالعدل في رعيتك، والإحسان إلى أهل مملكتك.

واعلم أنَّ من وليِّ على رقاب عشرة من المسلمين ولم يعدل بينهم، حشره الله يوم القيامة ويداهُ مغلولتان إلى عنقه، لا يفكها إلا عدله في دار الدنيا.

فإذا ورد عليك كتابي هذا، فاقرأه على من قبلك من أهل اليمن. وخذ لي البيعة على من حضرك من المسلمين؛ فإذا بايع القوم مثل بيعة الرضوان فامكث في عملك، وأنفذ إليَّ منهم عشرة يكونون من عقلائهم، وفصحائهم،

وثقاتهم. ممن يكون أشدهم عوناً. من أهل الفهم. والشجاعة عارفين بالله، عالمين بأديانهم، وما لهم وما عليهم، وأجودهم رأياً.

وعليك وعليهم السلام.

وطوى الكتاب وختمه وأرسله مع أعرابي.

فلما وصل إليه قبله، ووضعه على عينيه ورأسه، فلما قرأه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه إلخ..»[1].

ونقول:

تضمن هذا النص أموراً تحسن الإشارة إلى بعضها.. فلاحظ ما يلي:

العدل.. والإحسان:

قد أوصى «عليه السلام» عامله بأمرين:

أولهما: العدل في رعيته.

الثاني: الإحسان إلى أهل مملكته.

وعلينا أن نُلاحظ ما يلي:

ألف: إنَّه «عليه السلام» لم يستثن من العدل والإحسان أحداً، ولم يخص أحداً بشيءٍ، مما يعني: أنَّ العدل والإحسان يجب أن يكونا شاملين.

ب: إنَّهُ «عليه السلام» أضاف العدل إلى الرعية، ليدل على أن عدله هذا له منشأ واقعي يقتضيه، ويفرضه عليه، من حيث أنَّهُ حاكمٌ وراعٍ لهم،

(١) بحار الأنوار ج٤٢ ص٢٥٩.

وأنَّهم رعيةٌ له، فليس في هذا العدل تفضُل، كما أنَّهُ ليس له خيار في منعه وبذله حين يشاء، بل هو واجبٌ لا بُد له من أن يؤديه.

ج: إنَّهُ لا يُمكنُ استثناء أحد من هذا العدل، قَرُب أو بعد، أَحْسَنَ أم أساء، صَغُر أم كبر، لأنَّ مقتضى العدل ـ وهو كونهم رعيته ـ قائمٌ وفعليٌ في كل موردٍ، وفي كل إنسان.

د: أما الإحسان، فأضافه «عليه السلام» إلى أهل المملكة. ولم يُميز فيه أيضاً بين مسلمٍ وغيره، أو كبيرٍ أو صغيرٍ.

ولكنَّ الإحسان إنَّما يكونُ لمن يستحقه، فإن وجد مقتضي الإحسان في موردٍ فقد صدر الأمرُ إليه مسبقاً من أمير المؤمنين «عليه السلام» بأن يُبادر إلى العمل به. وإن لم يوجد مُقتضٍ له، فلا يُطالب به.

هـ: إنَّ الأمر بالعدل يكونُ تأكيدياً، وحقاً للإنسان على كل إنسان، فيجب على العامل، وعلى غيره أن يعملوا بما يجب عليهم.

أما الأمر بالإحسان فهو تأسيسي، أو فقُل: هو رفعٌ لمستوى الإقتضاء، من حد الإستحباب إلى حد الإلزام استناداً إلى أمر الإمام نفسه.. إذ إنَّهُ حتى لو وُجد مقتضي الإحسان في موردٍ فإنَّهُ لا يكفي للإلزام بالإستجابة له. نعم.. يُستحبُ ذلك لمن أراد الإستزادة من الخير. فإذا ألزمه الإمام بالعمل بما يتطلبه المُقتضي، صار العمل به واجباً عليه.

و: ويؤكدُ هذا المعنى: أنَّهُ «عليه السلام» لم يتوعد ابن المنتجب على عدم إحسانه، بل توعده على عدم عدله. كما أنَّ ما توعد به هو العقوبة الإلهية في الآخرة.

أما العقوبة في الدنيا، فإنما هي أحكام شرعية، ويتوقعونها حين تصدر منهم أية مخالفة تستوجب العقوبة، وهي لا تنحصر في سنخ واحد من العقوبات، بل يكون لكل جرم عقوبة تناسبه، فلا حاجة إلى التوعد والتهديد بها فضلاً عن ذكر أصنافها المختلفة باختلاف موجباتها.

ز: ويلاحظ هنا: أنَّ العقوبة في الآخرة ـ وهي أن يأتي إلى المحشر ويداهُ مغلولتان إلى عنقه ـ تتناسبُ مع ما فرط به في دار الدنيا، فإنَّ الرعية تكونُ فاقدةً للاختيار لنفسها، ويكونُ راعيها هو الذي يختارُ لها. فقد يختار لها الصالح، وقد يختار لها غير الصالح.. وهو ـ بحسب زعمه ـ قادرٌ على أن يفعل بها ما يشاء. فإذا لم يعدل فيها فإنَّهُ يأتي يوم القيامة أيضاً فاقداً للاختيار، غير قادرٍ على أي تصرفٍ، ويكونُ غيره هو الذي يتحكم ويتصرف به.

ح: أما الإحسان، فإنَّهُ حتى لو تم مقتضي تأثيره بواسطة أمر الإمام والخليفة، في جعل الداعي لدى الوالي، فإنَّ مخالفته قد لا تقتضي العقوبة في الدنيا، لأنَّ المخالفة تكونُ على أنحاءٍ، ولدوافع مُختلفة، فلعل ذلك المأمور لا يرى لزوم طاعة أمثال هذه الأوامر، حتى لو صدرت من الحاكم الذي ولاه، لأنَّه يرى أنها مجرد تكاليف شخصية، وأخلاقية لا ربط لها في حفظ النظام. أي أنَّهُ يُعاني من قصورٍ في فهمه لمعنى الإمامة والإمام، ومدى الارتباط به والإنقياد له.

وقد يكونُ أيضاً ممن لا يعتقد بالإمامة بمعناها الاعتقادي والإيماني الذي فرضه الله تعالى عليه وعلى الناس، فيرى أنَّ علياً «عليه السلام» حاكمٌ

كسائر الحُكام الذين سبقوه، فيتعامل معه على هذا الأساس.

فلعل الإمام علياً «عليه السلام» قد راعى هذا الجانب أو ذاك في رسالته هذه لابن المنتجب.

وقد يكونُ عارفاً بالإمام والإمامة، ومُعتقداً بها المستوى المطلوب، ولنفرض أنه يستحق العقوبة في الدنيا لمجرد مخالفته أمر الإمام «عليه السلام»، فما المانع من أن يكون «عليه السلام» قد أوكل الأمر إليه، ثقةً منهُ بحُسن اختياره، أو رفقاً به، أو لغير ذلك من اعتبارات.

ط: وقد أمر «عليه السلام» حبيب بن المنتجب: بأن يقرأ على الناس كتابه هذا، ربما ليُعرفهم بحقوقهم هذه، ويفتح أمامهم أبواب المُطالبة بها، ولتكون لديهم الجُرأة على أن يشكوا إليه لو قصَّر في أداء هذه الحقوق لهم.

بيعةٌ كبيعة الرضوان:

وقد أظهرت هذه الرسالة: أنَّ أمير المؤمنين «عليه السلام» كان يأخذ البيعة من الناس على حد بيعة الرضوان التي بايع المُسلمون فيها رسول الله «صلى الله عليه وآله» على نصرته، وقتال عدوه، وعلى أن يكونوا معه في العُسر واليُسر، في المنشط والمكره، وهذه هي شروط بيعة الرضوان.

أما البيعة على منع رسول الله مما يمنعون منه أنفسهم.. فهي بيعة العقبة.

وأخذ البيعة من الناس على هذا الأمر، أي على النصرة والقتال، لكي

لا يدعي أحدٌ منهم بعد ذلك: أَنَّهُ لو علم أنَّ الأمور ستنتهي إلى الحرب والقتال، وخوض اللُجج، وبذل المُهج لم يُبايع، ولم يدخل في هذا الأمر.

وأنَّ علياً «عليه السلام» قد استغل غفلتهم وسذاجتهم، وأَنَّهُ يُكلفهم أمراً لم يسبق أن التزموا به له.

لماذا الوفد، ولماذا هذه المواصفات؟!:

ونلاحظ هنا ما يلي:

ألف: أنه طلب «عليه السلام» من حبيب بن المُنتجب: أن يُوفد إليه عشرة تكونُ فيهم عشرُ صفاتٍ، وسمات، هي التالية:

١ ـ أن يكونوا من عُقلاء قومهم.

٢ ـ من نُصحائهم.

٣ ـ من ثقاتهم.

٤ ـ من أشدهم عوناً.

٥ ـ من أهل الفهم.

٦ ـ من أهل الشجاعة.

٧ ـ من العارفين بالله.

٨ ـ من العالمين بأديانهم.

٩ ـ من العالمين بما لهم وما عليهم.

١٠ ـ من أجودهم رأياً.

ب: نحسب أَنَّهُ «عليه السلام» كان يرى: أنَّ إيفاد هؤلاء العشرة،

الذين لهم هذه السمات والصفات سيكونُ مُفيداً جداً في أكثر من اتجاه، ويتضحُ المُراد بمُلاحظة ما يلي:

١ ـ إنَّ هذه السمات والصفات هي صفاتُ أهل النباهة ونفوذ الكلمة والسيادة، والذين يستحقون أن يكونوا رؤساء وقادة في عشائرهم ومُحيطهم.

٢ ـ إنَّ مُلاحظة الأوصاف العشرة التي طلب «عليه السلام» من عامله أن يُراعيها في اختياره للأشخاص تعطي: أَنَّهُ «عليه السلام» يُريد أن يفهمهم: أنه يُهيء لأمرٍ عظيمٍ وهام يحتاج فيه لأمثال هؤلاء، وأنهم سيكونون بحاجة فيه إلى الإعداد المُسبق، روحياً ونفسياً، وثقافياً، وإيمانياً بنحوٍ يزيدُ من بصيرتهم ومعرفتهم للأمور. كما لا بد له من أن يربط بينهم ليكونوا يداً واحدةً، ورأياً واحداً، حتى لا تضيع أو تتشتت القوى بسبب تشتت الآراء، وتتباين التفسيرات لما يجري من أحوال، وتقع بينهم الاختلافات في فهم الأمور، لأن الأمور ستكون حساسة ودقيقة، يُحتاجُ فيها إلى الروية والتعقل، وعدم الانسياق وراء الانفعالات، والعصبيات، وعدم الرعونة، ولا بد فيها من الابتعاد عن التسرع، وعن الإستسلام إلى الميول غير المُستندة إلى روية وتأمل ودراسة مقبولة، ومعقولة.

٣ ـ إنَّ هذه المواصفات قادرة على أن تُبين لهم معالم المُهمات التي ستوكل إليهم، وطبيعة الأوضاع في المجالات التي سيواجهونها. وترسم لهم طريق المُستقبل، وتعرفهم بمسؤولياتهم الكُبرى قبل أن يتحركوا من بلدهم في مسيرهم إليه «عليه السلام».

٤ ـ لقد وصفُهُم بأنَّهُم عُقلاء الناس، مع علمنا بأنَّ الحاجة إلى العُقلاء، إنَّما هي لُمعالجة الأُمور الصعبة، ومواجهة الأمور المشكلة والحساسة، فكأنَّهُ بذلك قد أخبرهم بأنَّهُ يُريدهم لأمرٍ عظيمٍ.

٥ ـ إنَّ مطلوبية الفصاحة في العشرة تُعطي: أنَّهم سيحتاجون إلى خُطبٍ بليغةٍ: حماسية أو احتجاجية، وإلى قُدرات تعبيرية عالية، وبيانات قوية، ومُقنعةٍ.

٦ ـ أما مطلوبية الوثاقة، فهي من البداهة بمكان، فإنَّ القضايا الحساسة والأساسية لا يُمكنُ وضعها في أيدٍ غير أمينةٍ، أو خائنةٍ، لأنَّ ذلك نقضٌ للغرض، وتعريضٌ للقضايا الكُبرى إلى خطر الضياع، ويكون من يفعل ذلك كمن يسير إلى حتفه بظلفه.

٧ ـ واشتراط كونهم أشد المُسلمين عوناً.. يدل على أنَّ ما سيُقدمون عليه ليس من الأُمور التي يقوم بها شخصٌ، أو فريقٌ، بل هو أمرٌ هام، يحتاجُ إلى التعاضد والتعاون، وجمع القوى ورصد الإمكانات الكبرى لانجازه.

٨ ـ إنَّ التعبير بكلمة «أشد» في قوله «عليه السلام»: «أشدهم عوناً»، قد يُشير إلى أنَّ هذا الأمر الذي سيواجهونه سيكونُ من أثقل الأمور، وأعظمها مؤونة، وأنَّهُ لا يُمكنُ السيطرة عليه، والوصول إلى النتائج الإيجابية فيه إلا ببذل أقصى الطاقات، وأعظم الإمكانات.

٩ ـ كما أنَّ التعبير هُنا بكلمة «عوناً» لعله يُشير إلى أنَّ المطلوب هو المعونة بالنفس. إذ لو قال: «معونة» فلرُبما فُهم منه: أنَّ المطلوب هو الإعانة المالية.

١٠ ـ وقد ضم «عليه السلام» صفة الفهم إلى صفة كونهم عُقلاء، ليُعرِّفهم: أنَّ الأمور ستكون من الدقة بحيث تحتاج إلى فهم دقيق لجزئياتها وإيحاءاتها، ومراميها، ودلالاتها، وإشاراتها، ودوافعها.

وملكةُ الفهم هذه هي التي تُهيء للعقول المرتكزات التي تنتزع منها الكليات والمعاني العامة، وتضع أمامها العناصر المختلفة التي تتكون منها الخيارات المطلوب تدوالها والموازنة بينها، وتُعطي النتائج المتوافقة مع المصالح والمفاسد الكُبرى، وفق ضوابط الشرع، والدين، والحكمة، وما تقضى به العقول.

وبعبارةٍ أوضح: إنَّ الفهم يرتبطُ بالجُزئيات. فإذا فُهمت، وعرف مغزاها ومعناها فإنه يُنتزعُ من مجموعها معنى أو مفهومٌ كليٌ، يُعرضُ على العقل والعُقلاء، وربما تعرض عليه بعض مفردات لخيارات عملية يتخيل أنها تفيد في المعالجة. فيعرف العقل منها ما هو حسن وما هو قبيح، ويوازن بين مصالحه ومفاسده، وقد يُقارن بينه وبين غيره في ذلك. فيعطي نتائجه النهائية بتحديده الصالح والفاسد، والأفسد والأصلح.

كما أنَّ أهل الفُهّم هم الذين يتولون تحديد التطبيقات العملية للحلول والمُعالجات التي تُلقى إليهم على صورة ضوابط أوامر، عامة وكُلية.

١١ ـ أما صفةُ الشجاعة، فإنَّما يحتاجُ إليها في الإقدام والإحجام في الأمور الجسام، المحفوفة بالمخاطر، والمُحتاجة إلى التضحيات.

١٢ ـ والمعرفة بالله تعالى، تضع هؤلاء الأشخاص أمام مهمات وأعمال خطيرة، تقعُ في دائرة الرضا والسخط الإلهي. والعارفُ بالله تعالى، هو

الذي ينقادُ له، ويتوخى ما يُرضيه، ويتجنبُ ما يُسخطُهُ.

١٣ ـ أما الشرط والصفة الثامنة التي أراد «عليه السلام» أن تتوفر في أولئك العشرة؛ فهي أن يكونوا من العالمين بأديانهم.. ويبدو لنا: أنَّ المُراد هو المعرفة بما يعم الشريعة، والشؤون الإيمانية، والعقائدية، والقيم والمفاهيم العامة التي ينبغي أن تحكُم سلوك الأفراد، وتُهيمنُ على مواقفهم.

وهذا يُشير إلى أنَّ المُهمات التي يُريدهم «عليه السلام» لها تحتاج إلى هذه المعرفة، وليست أعمالاً عادية، ولا هي أنشطة دنيوية أو معيشية، أو ما إلى ذلك.

١٤ ـ أما العلم بما لهم وما عليهم، فيُشيرُ لهم إلى أنَّ الأمور تعنيهم بأشخاصهم، وتُرتِبُ عليهم أعمالاً لا ينوب عنهم بها سواهم. فليس لهم أن يتوانوا عنها، وأن يُفرطوا بها.

كما أنَّ لهم حقوقاً جعلها اللهُ تعالى لهم كسائر الناس. وقد يستدرج لهم جهدهم وجهادهم حقوقاً تُضافُ إليها.. فلا بُد لهم من معرفة حدود ما لهم فلا يتجاوزوه، ويطلبوا ما ليس لهم بحق. فإنَّ ذلك من موجبات اختلال الأحوال، وتطرق الفساد إلى الكثير من المواقع التي لا يجوز أن تتعرض لذلك.

١٥ ـ وكانت آخر صفة أراد «عليه السلام» أن تتوفر في أولئك العشرة هي: جودة الرأي في أقصى مدى ممكن، فطلب أن يكونوا الأجود رأياً..

تخيل.. وجوابه:

وقد يتخيلُ البعضُ: أنَّ الحديث عن العقل والعُقلاء، والفهم وأهل الفهم كان يكفي عن التصريح مرة أُخرى بأَنَّهُ يُريدُ الأجود رأياً..

ونُجيب:

بأنَّ الفهم كما قدمنا يرتبط بإدراك المعاني الجزئية التي لها مساس بما هو موضوع الإهتمام والرصد.

وبعد انتزاع المفهوم العام من تلك الجزئيات، وتحديد دلالاتها وإيحاءاتها ودوافعها وغير ذلك مما هو موضع الإهتمام، وبعد وضع اقتراحات عملية للتعاطي مع ذلك الواقع، فإنَّ العُقلاء هم الذين يصنفونها بعقولهم إلى صالحٍ وفاسد، وصحيحٍ وسقيمٍ، وحسنٍ وقبيح، وما إلى ذلك من معانٍ يكونُ للعقول فيها مجالٌ، فيقولون: الإقدامُ راجحٌ أو مرجوحٌ، أو حسنٌ أو قبيحٌ، وما إلى ذلك.

ورُبما احتاج الأمرُ إلى مستوى عالٍ من التفكير لاستنباط الحلول الناجعة، أو ابتكار وخلق أساليب قد يكونُ بعضُها لم يخطر على قلب الناس العاديين، فيحتاج إلى ذوي الفهم، والآراء الجيدة ليكونوا هُم الذين يستنبطونها ويبتكرونها.

فكان لابد من ذكر الأمور الثلاثة لأجل بيان الحاجة إلى هذه الخصوصيات المختلفة.

الفصل الرابع:

ولائم الناس للعمال..

كتابه عليه السلام في الولائم للعمال:

وكتب «عليه السلام» إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري وقد بلغه «عليه السلام» أن بعض المترفين من أهل البصرة دعاه إلى وليمة، فأجابه ومضى إليها.

أما بعد يا بن حنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قومٍ عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو. فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه.

ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمها بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهادٍ، وعفة وسدادٍ، فو الله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه إلا كقوت أتانٍ دبرةٍ، ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرةٍ.

بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قومٍ، وسخت عنها نفوس قومٍ آخرين، ونعم الحكم الله.

وما أصنع بفدكٍ وغير فدكٍ، والنفس مظانها في غدٍ جدث، تنقطع في ظلمته آثارها وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر، وسد فرجها التراب المتراكم، وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق.

ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنةٍ وحولك أكباد تحن إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال [لي] أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تَقَمُّمُها، تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى، وأهمل عابثاً، أو أجر حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة.

وكأني بقائلكم يقول: «إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران، ومنازلة الشجعان».

ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً، والروائع الخضرة أرق جلوداً، والنباتات البدوية أقوى وقوداً، وأبطأ خموداً، وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو، والذراع من العضد.

والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها، ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها، وسأجتهد في أن أطهر الأرض من هذا الشخص المعكوس، والجسم المركوس حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد.

ومن هذا الكتاب وهو آخره:

إليك عني يا دنيا، فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك، وأفلت من حبائلك، واجتنبت الذهاب في مداحضك، أين القوم الذين غررتهم بمداعبك، أين الأمم الذين فتنتهم بزخارفك؟! ها هم رهائن القبور، ومضامين اللحود.

والله لو كنت شخصاً مرئياً، وقالباً حسياً، لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأماني، وأمم ألقيتهم في المهاوي، وملوك أسلمتهم إلى التلف، وأوردتهم موارد البلاء، إذ لا ورد ولا صدر.

هيهات، من وطئ دحضك زلق، ومن ركب لججك غرق، ومن أزور عن حبالك وفق، والسالم منك لا يبالي إن ضاق به مناخه، والدنيا عنده كيوم حان انسلاخه.

أعزبي عني، فوالله لا أذل لك فتستذليني، ولا أسلس لك فتقوديني.

وأيم الله ـ يميناً أستثني فيها بمشيئة الله ـ لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً، ولأدعن

مقلتي كعين ماءٍ نضب معينها، مستفرغةً دموعها.

أتمتلئ السائمة من رعيها فتبرك؟! وتشبع الربيضة من عشبها فتربض؟! ويأكل علي من زاده فيهجع؟! قرت إذاً عينه، إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة، والسائمة المرعية!

طوبى لنفسٍ أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، في معشرٍ أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ﴿**أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١].

فاتق الله يا بن حنيفٍ، ولتكفك أقراصك، ليكون من النار خلاصك[٢].

---

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

(٢) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٣ ص٧٠ ـ ٧٥ المختار من كتبه، الكتاب رقم٤٥ وربيع الأبرار، الباب٤٤ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٤٧٣ ـ ٤٧٦ وج٤٠ ص٣٤٠ ـ ٣٤٢ وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج٧ ص١٦٥ وج٨ ص٤٢٥ ـ ٤٢٧ ونهج السعادة ج٤ ص٣٢ ـ ٤١ وينابيع المودة ج١ ص٤٣٩ ـ ٤٤٢ وجواهر المطالب لابن الدمشقي ص٥٠ وراجع ص١٠٤ و (ط مجمع إحياء الثقافة الإسلامية ـ قم ـ إيران) ج١ ص٣١٢ ـ ٣١٤ وراجع: زين الفتى، أواسط الفصل الخامس تحت عنوان: وأما علم المكاتبة، وراجع: والخرائج

ونقول:

نحتاج إلى لفت النظر إلى الأمور التالية:

توضيحات:

عائلهم: محتاجهم.

الطمر: الثوب الخلق البالي.

الوفر: المال.

الدبرة: القرحة تحدث في ظهر الدابة.

العفصة: صمغ شجرة البلوط.

المقر: الشيء إذا صار مراً أو حامضاً.

القد: سير من الجلد غير المدبوغ. أو فقل: هو اللحم المجفف.

جشوبة العيش: خشونته وصعوبته.

سدى: أي مهمل.

الإعتساف: ركوب الطريق من غير مبالاة.

الصنوان: النخلتان يجمعهما أصل واحد.

الغارب: الكاهل، وما بين السنام والعنق.

المداحض: المساقط. والمكان الزلق، الذي لا تثبت فيه الأرجل.

ازورَّ: مال وتنكب.

السائمة: الحيوان الذي يأكل ويرعى حيث شاء من النبات، من دون تدخل من أحد في أمره.

والجرائح ص٥٤٢.

الهاملة: المسترسلة.

عركُ الجنب بالبؤس والفقر: الصبر على الفقر.

ضابطة قبول دعوات الولائم:

لقد قرر أمير المؤمنين «عليه السلام»: أن لقبول الدعوة إلى الولائم شروطاً، لا بد من رعايتها، وهي:

١ ـ أن لا يكون صاحب الطعام ممن يدعو الأغنياء، ويتجاهل الفقراء والمحتاجين ويجفوهم.

ولعل السبب في ذلك أن هذا النوع من الناس لا يقيم ولائمه، استجابة لشعور إنساني، نشأ من إحساسه بحاجة الطرف الآخر للطعام..

كما أنه لا يدعو من يدعوهم إلى وليمته بهدف تكريمهم، وتقديرهم، لصفات إنسانية، وميزات أخلاقية، وفضائل نفسانية لديهم، بل هو يدعوهم للتدليل على خصوصية الغنى فيهم، وهي خصوصية قد تكون من موجبات ذمهم إذا كان مصدر تلك الأموال غير مشروع، أو إذا كان صاحب المال لا يؤدي حقوق الله منه، أو إذا كانوا يبخلون بأموالهم عن المحتاجين إليها، وهم واقفون على تلك الحاجة، وغير مبالين بها..

فتقدير أمثال هؤلاء والإستجابة لدعواتهم قد يكون بمثابة تشجيع لهم على هذا السلوك، وقد يفهمه الناس على أنه رضا به وإمضاء له، وقبول به. بل هو تعبير عن أن من يستجيب لدعوة أولئك الأغنياء يشاركهم في نفس النظرة، ونفس الشعور، ونفس السياسة والسلوك، لو حصل على مثل

الأموال التي في حوزتهم.

٢ ـ إنه لا بد من التأكد من مشروعية مصدر المال الذي استفيد فيه في تهيئة ذلك الطعام، وتحصيل اليقين بشرعيته، وبطيب وجوهه.

٣ ـ إن هذا يعني أن مجرد الشبهة في مصادر الأموال يفترض أن تمنع من النيل منه.

وطبيعي أن يكون تنزه الولاة والحكام عن الشبهات، والمشتبهات، يؤدي إلى الإقتداء بهم، وتكريس ذهنية التدقيق والاحتياط في الأمور المالية، وتصحيح وتصويب مصادرها، والتأكد من طيب وجوهها..

٤ ـ إنه «عليه السلام» أمره بلفظ ما اشتبه عليه علمه.. فدل ذلك على مدى خطورة النيل منه مع بقاء الشبهة، فإنه «عليه السلام» لم يكتف بنهيه عن النيل من ذلك المال، بل أمره حتى بلفظ ما يكون منه في فمه، وهو يلوكه، ويعده للازدراد.

٥ ـ إنه «عليه السلام» لم يجر قاعدة حمل فعل المسلم على الصحة، ولا قاعدة اليد أمارة على الملكية في مثل هذا المورد.. مما يعني أنه يريد حصر مدلول أمثال هذه القواعد في حكمنا على تصرفات صاحب المال نفسه فيما يرتبط بتصرفاته فيه..

أما بالنسبة لتصرفنا نحن بالنسبة لما في يد ذلك الغير، فإن هذا التوجيه يعطي أن علينا أن نحتاط، ولا نتصرف إلا بناءً على اليقين بطيب وجوه تلك الأموال.. أو على الأقل: إن ذلك هو الأمثل والأفضل بالنسبة للولاة الذين يقتدي الناس بهم..

الإمامة: القدوة والمعرفة:

وقد قرر «عليه السلام»: أن النظام الحياتي الاجتماعي يقوم على مفهوم الإمامة والقدوة.

ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعرفة ومصادرها.

وهذه هي الحالة الطبيعية، والحركة العفوية للمجتمعات.. حتى قيل: الناس على دين ملوكهم، وقيل: كما تكونوا يولى عليكم، وأرقى وأدق تعبير عن هذا الواقع هو هذا الذي نقرؤه ها هنا عن أمير المؤمنين «عليه السلام».

غير أن ذلك يعني أن الإمامة القدوة في السلوك، والمؤثرة في التكوين الفكري. لا بد أن تكون معصومة لأن أي خطأ في السلوك، أو أي إخلال في التكوين الفكري سوف يدخل الناس في متاهات، ومواجهة أخطار جسام، وربما يؤدي إلى انهيار البناء الاجتماعي كله..

وهذا يشير إلى أن غير المعصوم، وغير الأعلم لا يمكن أن يكون إماماً وحاكماً.. لأنه لا يمكن أن يكون قدوة، ولا أن يستضاء بنور علمه..

وهو يدل على عدم صحة إمامة غيره «عليه السلام»، وغير من دلت آية التطهير على عصمتهم، ودلت كلمات الرسول «صلى الله عليه وآله» على أنهم هم علماء الأمة، وأمر الله ورسوله بالتعلم منهم، ونهى عن التصدي لتعليمهم..

أعينوني بورع واجتهاد:

وقد انتقل «عليه السلام» من الحديث عن النظام العام إلى الحديث عن

الواقع القائم، الذي يعنيه مباشرة، فقال: «ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمها بقرصيه. ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد».

وقد تضمنت هذه الفقرات حقائق مهمة، نجمل الإشارة إلى بعضها فيما يلي:

١ ـ إنه «عليه السلام» لم يقل: «ألا وإني قد اكتفيت»، بل قال: «ألا وإن أمامكم» ربما ليشير إلى لزوم الإقتداء به في هذا الأمر، لأنه يفعله من موقع الإمامة التي تقتض لزوم الاقتداء..

غير أن ذلك لا يعني البحث عن العيش الذليل، واختيار الطريقة الصعبة فيه مع توفر ما هو أيسر وأسهل، ولا إهمال تحصيل ما يعين على تذليل مصاعب الحياة. بل المطلوب هو أن لا يجعلوا الدنيا أكبر همهم، وأن لا يضحوا بآخرتهم في سبيل دنياهم، وأن لا تكون الملذات هي الهدف، والغاية.. بل يكون الهدف هو رضا الله تعالى، وتحصيل الكمالات، والتحلي بالفضائل،

٢ ـ إنه «عليه السلام» قد تحدث عن نفسه بصفته إماماً لهم، ولكن بصيغة الغائب. فلم يقل: ألا وإني إمامكم، وقد اكتفيت. ربما لأنه لم يرد لهم أن يتوهموا أنه جعل من صفة الإمامة لنفسه ذريعة لتلذذه بهذا التوصيف، أو سبيلاً للثناء، أو إظهار الاعتزاز بالمقام، وتمييز نفسه عليهم حباً منه بالدنيا.. ولعل له أغراضاً أخرى لم نهتد إليها كانت مقصودة له أيضاً..

٣ ـ إنه «عليه السلام» اكتفى بذكر ما يؤثر على الحالة الجسدية بصورة

مباشرة، وهو أمران:

أحدهما: اللباس، الذي يشعر الجسد بنعومته، وخشونته، ويقيه من الحر والبرد، ويستر ما ينبغي له ستره منه..

وقد بين لهم: أنه اكتفى من هذا اللباس بمجرد طمرين باليين، لا يفيدان شيئاً في غير الستر والوقاية، وبلينهما وخشونتهما شعور الشخص، فليس فيهما ما يعجب الناظر، ولا ما يصلح للتباهي به.

الثاني: المطعوم الذي يحتاج الجسد للتقوي به، ويعين على حفظ خيط الحياة له، فإنه هو الآخر، ليس مما يستطاب، أو يطلب للتلذذ به، لا من حيث الطعم، ولا من حيث سهولة إساغته، لأنه مجرد قرصين من الشعير، ليس معهما من الإدام ما يثير الرغبة في الاستزادة منهما.. مع ملاحظة ما هما عليه من القلة، فإنهما مجرد قرصين، لا أزيد.

أيأمرهم بالإقتداء به، وهم عاجزون عنه؟!:

١ ـ وهنا سؤال مهم يطرح نفسه، وهو: أنه إذا كان الإمام قدوة للمأمومين، وكان ما يفعله الإمام مقدوراً له، ويفترض بالناس أن يتابعوه فيه، فما معنى قوله «عليه السلام»: إنهم لا يقدرون على ذلك؟!

وكيف يطلب منهم أن يقتدوا بإمامهم؟!

ولماذا كان هذا الأمر مقدوراً له دونهم؟!

ويجاب:

بأن هناك قدرة حقيقية واقعية، من حيث أن العقل لا يرى مانعاً من

اقتداء الناس بإمامهم حتى في هذا الحد من القناعة والزهد..

وهناك قدرة عادية، يلاحظ فيها نظرة الناس إلى الأمر، وعرضهم له على أحوالهم، وما يرونه من الصعوبة في الالتزام به. بسبب مستوى مقاومتهم للمغريات، والشهوات. ومقدار ما لديهم من بصيرة في دينهم، ووضوح في رؤيتهم، وعمق إيمان، وبخوع وتسليم، وغير ذلك من طاقات وقدرات، ومعرفة وإيمان، والتزام. وما يواجهونه من صوارف ومعوقات، ومغريات، وطموحات وشهوات.

وهذه هي القدرة التي أرادها «عليه السلام» هنا.

٢ ـ إن هذا البيان يعطي: أن الإسلام يلحظ أمثال هذه الأمور، ويعطي الفرصة للإنسان لامتلاك القدرة على تجاوزها، ولو بصورة تدريجية، من خلال امتلاك أسباب القوة، وتنامي المعرفة، وتحسين المستوى الإيماني، وتربية النفس، وتنمية الملكات، والتحلي بالفضائل والأخلاق والكمالات، وتحصيل المناعة أمام دواعي الشهوات، والصمود أمام المغريات، بعد أن يكون قد التزم بالبقاء خلف الخطوط الحمراء فيما يرتبط بالعمل بالواجبات، والابتعاد عن المحرمات..

صلاحهم إعانة لإمامهم:

وقد طلب «عليه السلام» من الناس أن يعينوه، ولم يطلب منهم أن يعينوا أنفسهم، ربما ليفهمهم أن تجاوز هذه المراحل في مسيرتهم نحو الله سبحانه يحتاج إلى جهدٍ من ناحيتين:

إحداهما: منه هو كحاكم ومسؤول عن تعليمهم، وتربيتهم، وتوفير

المناخات الملائمة لاكتساب المزيد من المناعة، والحصول على المزيد من الطاقات والملكات، وخصال الخير..

والأخرى: من الناس الذين يطلب منهم أربعة أمور، هم الذين يمارسونها باختيارهم، ولا يمكن أن يقوم بها غيرهم، وهي:

الأول: الورع عن محارم الله.

الثاني: الإجتهاد والعمل الدائب على تحصيل الكمالات، والتحلي بالفضائل، ومحاربة هوى النفس، والشهوات.

الثالث: العفة عن دنيات الأمور، والترفع والشعور بالكرامة، فإن ذلك يحسم الأمر في مجال واسع يستسهل فيه الناس ممارسة بعض الأمور التي يرونها غير ذات أهمية، مع أنها قد تشكل مدخلاً إلى ما هو أشر وأضر..

الرابع: التزام طريق السداد، الذي يعني تحري الصواب في الأمور، والحذر من التورط في الأخطاء، لنفس السبب الذي ذكرناه آنفاً، من حيث أن الخطأ الذي يحسبه الإنسان غير ذي أهمية قد ينتهي به إلى التورط فيما هو أكبر وأخطر..

فترى أنه «عليه السلام» قد ركز على تزويد الناس بالمناعات، وبصمامات الأمان من جهة، وركز في خط مواز آخر على قوة الدفع، ومواصلة التحرك باتجاه الهدف. متوخياً في كلا الأمرين أن يكون ذلك جزءاً من التكوين الذاتي. الذي تواكبه إمامة معصومة، ترفده بالهدايات والمعارف الصحيحة، وتغنيه بالقيم، وتمده بكل ما يغنيه، ويزيده كمالاً

وجمالاً، وقوةً ورسوخاً، وتوفر له المناخات التي يحتاجها في مسيرته السليمة والقويمة نحو الله سبحانه وتعالى..

قوت الأتان الدبرة:

وقد قال «عليه السلام»: «ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة».

فقد تضمنت هذه الفقرة الإشارة إلى أمور عديدة، منها:

١ ـ أنه ضرب لهم مثلاً بالأتان: وهي أنثى الحمار.

والدَّبَرُ: هو القرحة تكون في ظهر الدابة، فإذا كانت الأتان دبرة، فذلك يعني أنها قد حملت أثقالاً صعبة تسببت بجرحها، وبتقرح ظهرها، الأمر الذي يسبب لها آلاماً مبرحة، حتى إنها لم تعد تلتذ بطعام، وضعفت شهيتها، وقلَّ أكلها.

ولا ندري لماذا خص الكلام بالأتان، ولم يعممه لمطلق الدابة، هل لأن الأتان بالصبر على الجوع وعلى الشدائد؟! وهل لأن الأتان إذا قيست بغيرها من أصناف الدواب أضعف بنية من غيرها من الدواب التي تحمل الأثقال؟! كما أنها أكثر صبراً وتحملاً، حتى يبلغ الأمر بها في ذلك إلى أن تضعف شهيتها للقوت، وهي مع ذلك لا تأكل إلا ما يحفظ به قوام وجودها وينتهي الأمر بها إلى الموت؟!

٢ ـ إنه «عليه السلام» إنما عبر بـ «قوت» الأتان، والقوت هو ما تحفظ به الحياة، ولا تطلب فيه الزيادة.

ولم يقل «علف» الأتان، لأن المطلوب بالعلف سمن الدابة، وزيادة قوَّتها..

٣ ـ لعله «عليه السلام» اختار الحديث عن هذا النوع من الحيوان، ولم يذكر الإنسان ربما لأن الحيوان، ولا سيما الأتان الدبرة إذا حصلت لها هذه الحالة، فإنها لا تسعى للخروج منها، ولا تهتم لابتكار الأدوية لها، ولا تفكر بمداراة حالها، ولا التحايل على نفسها لتعويض نقص الطعام، ولو بأن تقسر نفسها على تناوله، ولو من غير رغبة فيه..

٤ ـ وتكتمل الصورة في تأكد الصدود عن القوت حين ينضم إلى هذا وذاك أن يكون القوت عفصة مقرة، أي مشحونة بالمرارة وشديد الأذى.

بلى كانت في أيدينا فدك:

ثم إنه «عليه السلام» أشار في هذا المورد بالذات إلى فدك، فقال: «بلى، كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين ونعم الحكم الله.. وما أصنع بفدك وغير فدك، والنفس مظانها في غد جدث، تنقطع في ظلمته آثارها إلخ..».

ونقول:

التذكير بفدك:

تحدثنا في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب عن موضوع فدك بما لعله يكفي عن الدخول في هذا الموضوع مرة أخرى.. غير أننا نظن: أن تذكير أمير المؤمنين «عليه السلام» بهذا الموضوع يهدف إلى:

ألف: دفع توهم أن تكون مطالبتهم بفدك تنافي هذا الزهد بالدنيا، الذي ألمح إليه في كتابه لابن حنيف.. فإن حياته العملية قد أثبتت أن ما كان لديه من بساتين وأراضٍ زراعية مختلفة، لم يخرجه عن الحالة التي كان عليها، ووصفها في كلامه السابق، فلم يكن يتملى من الطعام، ولا كان يتخير الألبسة الفاخرة، ولا كان ممن تستطاب له الألوان، أو تقدم له الجفان.. لا قبل فدك ولا بعد فدك..

بل هو قد وقف كل تلك العقارات والبساتين على الفقراء والمحتاجين، وقد أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة في كتابنا هذا وغيره. ولعل رغبته في إبقاء فدك في يده كانت تنبع من حب الاستمرار في استجلاب الثواب بما ينفقه منها على أهل الحاجة، ثم من الرغبة بالإحتفاظ بآثار الرسول «صلى الله عليه وآله»، بالرغم من أنه لم يكن ينفق غلتها على نفسه، ولا على أولاده.

ب: إنه «عليه السلام» أراد أن يذكر الناس باغتصاب فدك منه، ليدلهم على أن من سبقوه لم يتعاملوا معه وفق ما يحبه ويريده الله ورسوله. وليذكرهم أيضاً بمظلوميته، وبصبره، وحيطته على الإسلام ورغبة فيما عند الله تعالى.

اليد دليل أم أمارة على الملكية:

إنه «عليه السلام» قال: «كانت في أيدينا فدك»، ولم يقل كانت لنا فدك.. مع أنه في مقام تسجيل الاعتراض على أخذها منهم، ومع أن ملكيتهم «عليهم السلام» لها لا تشوبها شائبة، لأن فدك كانت مما أفاءه الله

على رسوله، ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب. وله «صلى الله عليه وآله» أن يعطيها لمن شاء. لما نزلت آية: وآت ذا القربى حقه أمر الله تعالى رسوله بأن يعطيها، وقد أعطاها لابنته فاطمة «عليها السلام»، وتسلمتها منه في حال حياته، وكان عمالها فيها عدة سنوات.. وهذا هو الدليل القاطع على ملكيتهم «عليهم السلام» فدكاً، وليست قاعدة اليد كما توهمه بعضهم.

وقد أراد «عليه السلام» بعبارته «كانت في أيدينا» هذه أن يثبت أن فاطمة «عليها السلام» لم تدَّعِ ملكية أرض كانت في يد غيرها، أو ملكية أرضٍ لم تكن عليها يد أخرى، لكي تطالَبَ بالبينة والدليل.. بل كانت الأرض في يدها تتصرف فيها تصرف المالك لعدة سنوات، فمن يدعي خلاف ذلك هو الذي يجب أن يأتي بالبينة. فما معنى طلب أبي بكر البينة منها إذن؟!

وبعبارة أخرى: قد يقال لبعض الناس: هذا لك، فإن قبضه وأصبح في يده، فقد حسم الأمر، وإن لم يقبضه، فقد يتوهم متوهم أن الهبة أو الهدية أو العطاء لا يلزم إلا بعد أن يقبضه الموهوب أو المهدى له، فإذا قال «عليه السلام»: «بلى كانت في أيدينا»، فإنه يكون قد دلنا على أن هذه النحلة أو الهدية أو الهبة أو العطاء قد تجاوز دائرة الإنشاء اللفظي ليصل إلى تنجيز العطاء بالقبض والتصرف، وبذلك يعلم عدم صحة ما توهمه بعضهم، من أن كلمة «في أيدينا» لا تدل على ملكيتهم فدكاً، لأن اليد أمارة على الملكية وليست دليلاً قطعياً عليها.

قبح الشح:

إن قوله «عليه السلام»: «فشحت عليها نفوس قوم» يشير إلى أن الدافع إلى أخذهم فدكاً من علي والزهراء «عليهما السلام» لم يكن هو إجراء الحكم الشرعي، أو توهم أن لهم الحق في أخذها.. بل كان الداعي هو شح نفوسهم عليها رغم أنها ليست ملكهم، بل هي ملك نفس هؤلاء الذين أخذت منهم.. ثم أكد صحة ذلك بسائر الفقرات التي يقرر فيها حقيقة زهده «عليه السلام» في مقابل شره الغاصبين، وشحهم على ما لا يملكونه، ليأخذوه من أصحابه الحقيقيين..

حقيقة الزهد بنظر علي عليه السلام:

وقد بين لنا «عليه السلام» حقيقة الزهد في بضع عبارات وردت في هذه الرسالة الرائعة، فقال: «ولو شئت لاهتديت إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز. ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة، من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع إلخ..».

وفي هذه الكلمات إشارات لأمور كثيرة، منها:

١ ـ أنه «عليه السلام» حين عف عن مصفى العسل، ولباب القمح، ونسائج القز، وإنما عف عنه، وهو موجود بالفعل وميسور، ومقدور له، ولم يعف عما عجز عنه، أو عن أمر مفقود، أو عما تمنعه عن النيل منه ملامة الناس، أو الخجل منهم، أو غلاء قيمته، أو لأنه يجافي ذائقته، أو ما إلى ذلك..

وقد استفاد من كلمة «هذا» ليدل على هذا الحضور، وعلى اليسر، والقدرة كما قلنا.

٢ ـ إنه «عليه السلام» يصرح: بأن ما يدعوه إلى الزهد هو الرغبة في نيل رضا الله سبحانه وتعالى. كما أن حبه مواساة أهل الحاجة هو الذي دعاه إلى هذا الأمر، وحببه إليه، ورجحه لديه، وهو شعور إنساني، واندفاع إيماني صحيح وعميق.

٣ ـ إنه «عليه السلام» قد ذكر هذه الأمور الثلاثة: «مصفى العسل، ولباب القمح، ونسائج القز»، ليجمع بين اللذائذ الأساسية كلها، وهي أفضل وألذ الطعام والأدام وأفخر وألين اللباس. مؤكداً على أنه لم يزهد بشيء دون شيء. ليدل بذلك على: أنه ينطلق من ملكة الزهد وحقيقته، غير متأثر بأي مانع قد يعرض له في مجال دون آخر..

٤ ـ وقد بين لنا «عليه السلام» أيضاً: أن ما يضاد الزهد الواقعي أمران:

أحدهما: غلبة الهوى.. والهوى رغبة عارضة يحركها تخيل لذة، أو يقظة غريزة، تتلمس ما يثيرها في المحيط الذي هي فيه، وربما تنشأ هذه الإثارة عن أحلام اليقظة وأوهامها، أو ما إلى ذلك..

الثاني: سيطرة الجشع على الإنسان.. والجشع: أشد الحرص وأسوأه. ولعل من أسبابه، قوة الشره، وضعف الدين(١)، كما عن علي «عليه السلام».

---

(١) غرر الحكم، الحكمة رقم ٥٧٧٢ وعيون الحكم والمواعظ ص٢٩٧ و ٣٢٨.

وعنه «صلوات الله عليه»: «على الشك وقلة الثقة بالله مبني الحرص والشح»[١].

وعن النبي «صلى الله عليه وآله»: اعلم يا علي، أن الجبن، والبخل، والحرص، غريزة واحدة، يجمعها سوء الظن[٢].

من مسؤوليات الحاكم:

دل هذا النص على أن مسؤولية الحاكم تشمل:

ألف: لزوم رعاية حال الناس كلهم ومن دون استثناء: قريبهم وبعيدهم، مهما اختلفوا نسباً، وموطناً، وعشيرة، وسكناً، ومقاماً، ومكانة، من دون فرق بينهم في أديانهم، وطبقاتهم، ودرجاتهم، وسائر أحوالهم..

ب: لا بد للحاكم من أن يعرف حال كل فرد في مملكته.

ج: على الحاكم أن يساوي نفسه بأضعف من هم تحت يده في الناحية

---

(١) غرر الحكم، الحكمة رقم ٦١٩٥ وعيون الحكم والمواعظ ص٣٢٨.

(٢) علل الشرايع ج١ ص٥٥٩ و (ط المكتبة الحيدرية) ج٢ ص٥٥٨ والخصال ص١٠٢ ومن لا يحضره الفقيه ج٤ ص٤٠٩ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٢ ص٤٧ و (الإسلامية) ج٨ ص٤٢٩ وبحار الأنوار ج٦٧ ص٣٨٦ وج٧٠ ص١٦٢ و ٣٠٤ وج٧٢ ص٩٩ وجامع أحاديث الشيعة ج١٣ ص٥٩٨ وج١٦ ص٨٥ وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج٢ ص٢٠ و ٣٥١ وج٦ ص٣٦١ وج٨ ص٩٧ وج١٠ ص٢٦٤.

المعيشية على وجه الخصوص.

د: حتى لو لم يكن وجود بعض الفئات متيقناً، فإن احتمال وجودها يحتم عليه مراعاة حالها، وتطبيق معيشته على الحال التي يحتمل أن تكون عليها في الواقع ونفس الأمر.

هـ: إن الخروج على هذه الطريقة، وعدَّ من غلبه هواه في جملة من هيمن عليه الهوى، وقاده الجشع يسقطه عن الصلاحية للمقام الذي هو فيه، بدليل أنه «عليه السلام» قد بين في مورد آخر: «أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء، والمغانم، والأحكام، وإمامة المسلمين: البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل، فيضلهم بجهله، ولا الجافي، فيقطعهم بجفائه، ولا الخائف للدول، فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم، فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة..»(١).

ملاحظة: المراد بالخائف للدول: من يخشى تقلبات الأحوال.

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٢ ص١٤ ودعائم الإسلام ج٢ ص٥٣١ وكتاب الأربعين للشيرازي ص١٩٥ وبحار الأنوار ج٢٥ ص١٦٧ وج٣٤ ص١١١ وجامع أحاديث الشيعة ج٢٥ ص١٥ وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج٤ ص٢١٨.

لماذا خلقنا؟!:

ثم بين أمير المؤمنين «عليه السلام» الهدف من خلق الله تعالى لنا بقوله: «فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها.

أو أترك سدى، أو أهمل عابثاً؟!

أو أجر حبل الضلالة؟!

أو أعتسف طريق المتاهة»؟!

وهذا بيان منه «عليه السلام» لقوله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**..﴾[1].

وقد ضمنه إشارات لعدة أمور، منها:

١ ـ أن ثمة هدفاً جليلاً لا ينبغي أن يشغل الإنسان أي شيء عنه، حتى أكل الطيبات.

٢ ـ لقد أورد «عليه السلام» مثالين لمن يشغله طعامه عن هدف خلقته، يستوعبان البشر كلهم:

أحدهما: يراد به الأغنياء، الذين شبههم بالبهيمة التي وفر القائمون عليها لها كل ما تحتاج إليه لاكتساب القوة والعافية.

الثاني: يراد به الفقراء الذين لم يهيئ لهم أحد شيئاً، بل إن عليهم أن

---

(١) الآية ١١٥ من سورة المؤمنون.

يبحثوا عن لقمة هنا، ولقمة هناك، مما لهى عنه غيرهم، فهم كالبهيمة السائمة التي لا علف لها، فهي تدور من مكان إلى مكان بحثاً عن مرعى، أو شيء من العشب لتجد على المزابل بعض الفضلات التي لا يرغب بها أهل النعمة، فتلقي ما يسنح لها من ذلك في كرشها لكي تملأه به، فإن التقمم هو تتبع القمامة، وهي الأوساخ وفضلات الخضار والفاكهة، كقشور البطيخ وغيره تلقى في المزابل، لتتناول منه ما تسد به جوعتها.

٣ ـ إن الدابة المشغولة بالعلف، والتقمم لا تدري ما يؤول إليه حالها، فإما أن تذبح لسمنها، أو تستخدم، وكذلك الإنسان اللاهي عن الهدف من خلقه سيواجه المفاجآت، وسيدرك مدى خسارته، ويحاسب على أعماله، وعلى إهماله..

٤ ـ كما أنه «عليه السلام» لم يخلق ليترك سدى، أو يترك ليعبث ويلعب، بل لينجز عملاً له قيمة حقيقية، وأثر جليل..

٥ ـ إنه تعالى قد وفر له الهدايات والدلالات التامة على تلك الأهداف العالية والجليلة. وهيأ له سبل الوصول إليها، وما يحفظه من الوقوع في المتاهات عنها..

تأثير القوت في القوة:

وقد أشار «عليه السلام»: إلى أن البعض قد يتوهم أن ما يتناوله «عليه السلام» من القوت نزر ويسير، لا يعطيه القوة على منازلة الأقران، إلا إن كان «عليه السلام» يورد هذا الكلام على سبيل الافتراض، أو التمني. أو أنه قد استعمل أسلوب التورية، ليوهم الناس إرادة معنى، والحال أنه يريد غيره..

ثم أجاب عن ذلك:

أولاً: إنه «عليه السلام» قد بين أن القوة والضعف ليسا بسبب جودة الغذاء ورداءته، أو فقل: إن اللباس الفاخر، والطعام اللذيذ ليس هو مصدر القوة، ليكون فقدانه مصدراً للضعف، وحيث إن توضيح ذلك لهم بصورة علمية متعذر، فقد عدل «عليه السلام» إلى تقديم النموذج العلمي الحي، الذي يشاهدونه، ويتلمسون فيه صحة قوله «عليه السلام».

فإن الشجرة البرية لا تجد من الماء ما يكفيها، ولا من الأسمدة ما يغذيها، ثم تكون أصلب عوداً. كما أن النباتات البدوية، وهي التي لا يسقيها إلا ماء المطر أبطأ خموداً، مما يعني أن النار تحتاج إلى وقت أطول لتستهلك أجزاءها.

ونجد في مقابل ذلك: أن الروائع الخضرة ـ وهي الأشجار التي تروع بخضرتها ونضارتها بسبب إمدادها المتواصل بالماء وغيره من المنشطات ـ تكون ذات قشر رقيق لين، ولكنه ضعيف عن مقاومة ما هو صلب وحاد، ولا يتحمل الكثير من الضغط والتحدي.

والنتيجة هي: أنه «عليه السلام» سيكون الأقوى، وسيكون خصومه المهزومون والعاكفون على ملذات الدنيا، على درجة من الضعف.

فلا مبرر إذن، لتوهم أن نتائج الحرب ستكون على خلاف ما يقرره «عليه السلام» لهم..

ثانياً: إنه «عليه السلام» يستدل على قوته وشدة بأسه: بأنه من رسول الله «صلى الله عليه وآله» كالصنو من الصنو، والذراع من العضد..

وفي نص آخر: «كالضوء من الضوء».

ويظهر المقصود بملاحظة ما يلي:

١ ـ إنه «عليه السلام» قد ذكر مثالاً آخر يؤكد على أن الميزان ليس طيب الطعام، ولين اللباس، وما إلى ذلك، وقد أظهر هذا المثال: أن منازلة الشجعان لها محفزات ومقومات أخرى تجعل الإنسان قادراً على أن يهاجم البطل أو الأبطال مهما علا شأنهم ومهما كثروا كما فعل القاسم بن الحسن في كربلاء، فإنه برز إلى القتال وعمره ثلاث عشرة سنة، وقتل خمسة وثلاثين رجلاً[1].

بل تجعل الشيخ الذي أدرك النبي «صلى الله عليه وآله» يهاجم جيش يزيد في كربلاء ويقتل اثنين وستين رجلاً من أبطاله وشجعانه.. كما هو الحال بالنسبة لحبيب بن مظاهر في كربلاء[2].

بل إن الأشتر حين عارك ابن الزبير في حرب الجمل، وأراد أن يقتله، كان في يومه ذاك صائماً، وقد طوى من قبل يومين، فأدركه الضعف، فأفلت

---

(١) وسيلة الدارين في أنصار الحسين ص٢٥٢ و ٢٥٣ وبحار الأنوار ج٤٥ ص٣٥ و ٣٦ ولواعج الأشجان للسيد محسن الأمين ص١٧٤ و ١٧٥.

(٢) وسيلة الدارين ص١١٨ ـ ١٢٤ ومناقب آل أبي طالب (ط المكتبة الحيدرية) ج٣ ص٢٥٢ وبحار الأنوار ج٤٥ ص٢٦ و ٢٧ والعوالم، الإمام الحسين «عليه السلام» ص٢٧٠.

ابن الزبير من يده، وهو يظن أنه غير ناج منه(١).

وهذا وأشباهه يدل على أن المعرفة بالله، ونيل الكمالات النفسانية، وإشراقة نور الهدى الإلهي على قلب الإنسان وكل وجوده، والإستفادة من علم النبوة، والتأسي والإقتداء به «صلى الله عليه وآله»، وتصفية النفس وتزكيتها، والزهد بالدنيا، إن ذلك كله من شأنه أن يجعل الإنسان يستهين بالصعاب، ولا يقيم وزناً للأبطال، ولا يكترث بهم في ساحات النزال.

٢ ـ إنه حين يكون الدافع دينياً وأمراً إلهياً، وتكليفاً شرعياً، فإن القدرات الكامنة تظهر نفسها، وتسترفد التوفيق والرضا الإلهي، ليكون هو الآخر المدد الذي لا ينتهي، والمعين الذي لا ينضب.

فإذا كان الهدف هو نصرة الدين، وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» هو الأصل والمصدر للقوة والعضد، فإن علياً «عليه السلام» هو وسيلة ذلك العضد، وذراعه الذي يتصرف ويبطش، ويدمر الكفر وأهله، ويحفظ الدين وأهله..

فلا معنى للحديث بعد هذا عن زخارف الدنيا وملذاتها، وتخير الأطعمة والألبسة اللينة منها، بل المطلوب هو طرح ذلك جانباً، والاشتغال بما هو أهم، ونفعه أعم.

---

(١) كتاب الجمل للشيخ المفيد ص٣٦٢ والفتوح لابن أعثم ج٢ ص٣٣٢ و ٣٣٣ و (ط دار الأضواء) ج٢ ص٤٨٢ وتاريخ الأمم والملوك ج٤ ص٥٣٠ وشجرة طوبى ج٢ ص٣٢٠ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١ ص٢٦٢.

توضيح:

العضد: هو من المرفق إلى الكتف(١).

والمرفق: هو موصل الذراع بالعضد(٢).

والذراع: من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى(٣).

لو تظاهرت العرب على قتالي:

١ ـ ثم أضاف «عليه السلام» ما تكتمل به عناصر تقرير هذه الحقيقة، ومقومات إثباتها، وهو القسم الذي أكد على أن العرب لو اجتمعت على قتاله لما ولى عنها، وبذلك يكون قد جعل مصيره عند الله مرهوناً بصواب وصدق ما قرره «عليه السلام»، وذلك بعد أن استدل عليه بالسنة الإلهية التكوينية أولاً، بانياً ذلك على واقع ملموس، وأمثلة عملية حية. ومقتنعاً بأن القوة والشجاعة لا تستند إلى عامل واحد، بل لها مؤثرات مختلفة. وهو هنا يضيف ضمانة وجدانية نابعة من الإيمان، والإعتقاد..

(١) كتاب العين للفراهيدي ج١ ص٢٦٨ والصحاح للجوهري ج٢ ص٥٠٩ والنهاية في غريب الحديث ج٣ ص٢٥٢ والقاموس المحيط ج١ ص٣١٤.

(٢) القاموس المحيط ج٣ ص٢٣٦ ومجمع البحرين ج٢ ص٢٠٥ وتاج العروس ج١٣ ص١٦٧.

(٣) غريب الحديث للحربي ج١ ص٢٧٧ ولسان العرب ج٨ ص٩٣ والقاموس المحيط ج٣ ص٢٢ وتاج العروس ج١١ ص١٢٣.

٢ ـ إنه «عليه السلام» في نفس الوقت الذي يواجه فيه احتمال عدم كفاية قوته لمواجهة الأقران، ومنازلة الشجعان يعلن أنه على أتم الاستعداد لمواجهة العرب بأجمعها إذا اجتمعت على قتاله، ولا يولي عنها..

وهذا شاهد رابع على بطلان دعوى ضعف من يكتفي من دنياه بطمريه، ومن عيشه بقرصيه عن خوض الحروب، ومواجهة الأقران.

وقوام هذا الشاهد هو وضع قدراته «عليه السلام» أمام التجربة، وقبول الإمتحان العملي لها، ليس فقط في مستوى مواجهة بطل لنظيره، وإنما في مستوى وضع رجل في مقابل أمة من الناس..

ويمكن خوض هذه التجربة في أي مستوى يراد اختياره واختباره..

ولكن هذا الاختبار إنما هو مع توفر شرائط المواجهة، وأهمها: أن تكون هذه المواجهة تحقق رضا الله تعالى، بما تتضمنه من نصرة للدين، وكسر شوكة الطغاة والجبارين.

٣ ـ إنه «عليه السلام» قد قرر: أن ما يذكره عن مواجهة العرب بأجمعهم ليس مجرد ادعاء، بل ستكون هذه هي سياسته الفعلية، التي سينتهجها في حربه لأعداء الدين، وسيكون هو المتعرض لهم، وللوثبة عليهم، وكسر شوكتهم، ولن ينتظر هجومهم عليه، وزحفهم إليه..

معاوية هو الأخطر:

وبعد أن أكد «عليه السلام» على مدى ثقته بقدرته، استناداً إلى تلك الأمور التي ألمحنا إليها آنفاً، أراد أن يستفيد من ذلك لمحاصرة أوهام

وطموحات الرجل الذي يرى أنه الأخطر على دين الله، وعلى مستقبل عباده، وبلاده، وهو معاوية بن أبي سفيان، المتربص في الشام، ويوجه له تهديداً قوياً، فإنه يتحكم بذلك البلد الذي لم يعرف علياً «عليه السلام»، ولا عاش قيم الإسلام بمعناها الصحيح، بل عاش إسلام معاوية، وبني أمية، ومن هم على شاكلتهم ممن يتخذ من الدين ذريعة للحصول على الدنيا، ويعيشون مفاهيم الجاهلية متلفعين بعباءة الإسلام..

إن هذا النوع من الناس خطرون على الدين وأهله، لأن دعوتهم تروق لطلاب اللبانات، ويرغب باللحاق بهم أهل الدنيا.. ومعاوية يعيش في بلد رباه على أفكاره ومفاهيمه، وصنعه وفق أهوائه، ولخدمة طموحاته.

وهو شخص معكوس، وجسم مركوس، لأنه اهتم بملذاته الجسدية، ولم يهتم بالكمالات الروحية، فانعكس عن الكمالات ليتجه إلى الجهات السافلة، وارتكس في الرذائل، وهوى في بؤر الشهوات، وأوغل في متاهات الضلال.

وحسبنا ما ذكرناه حول هذا الكتاب المرسل لعثمان بن حنيف، ونسأل الله أن يوفقنا لمعاودة الحديث عنه، بنحو أدق وأشمل، وأوفى وأفضل.

الفصل الخامس:

معاوية يماطل ويتآمر..

عليٌّ عليه السلام يؤمر معاوية على الشام!!:

قال البلاذري: إنَّ علياً «عليه السلام» كتب إلى معاوية: «إن كان عثمان ابن عمك، فأنا ابن عمك، وإن كان وصلك، فإني أصلُك، وقد امرتُك على ما أنت عليه، فاعمل فيه بالذي لحق عيلك»(١).

ولعل الصحيح: يحق عليك: أي يجب عليك. أو أن المعنى: اعمل بالذي يجوز لك.

وقال ابن قتيبة: إنَّ علياً «عليه السلام» كتب إلى معاوية:

«أما بعد، فقد وليتُك ما قبلك من الأمر والمال، فبايع من قبلك، ثُم أقدم إليَّ في ألف رجلٍ من أهل الشام..».

فلما أتى معاوية كتابُ عليٍ دعا بطومار، فكتب فيه:

«من معاوية إلى علي.

أما بعد، فإنَّهُ:

(١) أنساب الأشراف ج٣ ص ١٣ و (ط مؤسسة الأعلمي سنة ١٣٩٤هـ) ص٢١٢.

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلي وضرب الرِّقاب»[١]

ونقول:

لا شك في أنَّ هذا مكذوبٌ على عليٍ «عليه السلام» جُملةً وتفصيلاً.. ويظهرُ ذلك من خلال ملاحظة مجموع ما نذكره فيما يلي:

١ ـ ما الحاجة في أن يُقدم ألفُ رجُلٍ مع معاوية إلى عليٍ «عليه السلام» في المدينة؟! وما هي الأعمال التي رصدها لهم؟! وكم هي الأموال التي يحتاجها لضيافتهم؟!

٢ ـ إنَّ هذا لا ينسجم مع رفضه «عليه السلام» ما عرضه عليه المغيرةُ وابنُ عباس من إبقاء معاوية على الشام، فإنَّهُ قال لهما: ﴿**وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا**﴾[٢]»[٣]. وقد تكلمنا عن هذا الموضوع في أواخر الجزء

(١) الإمامة والسياسة (تحقيق الشيري) ج١ ص٦٨ و (تحقيق الزيني) ج١ ص٤٨ ومكاتيب الإمام علي للأحمدي «رحمه الله» ج١ ص٥٧ عنه، والغدير ج١٠ ص٣١٦. وراجع: أنساب الأشراف ج١ ص٢١٢ وج٣ ص١٠ وجمهرة رسائل العرب ج١ ص٣٨٥.

(٢) الآية ٥١ من سورة الكهف.

(٣) راجع حول نص الحديث المصادر التالية: تاريخ الأمم والملوك ج٤ ص٤٣٩ و٤٤٠ و٤٤١ و(ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٤٦٠ و٤٦١ و٤٦٢ والغدير ج١٠ ص٣١٦ وراجع: مروج الذهب ج٢ ص٣٦٤ والكامل في التاريخ ج٢ ص٣٠٦ وج٣ ص١٩٧ و ١٩٨ والبداية والنهاية ج٧ ص٢٢٩ وراجع:

العشرين من هذا الكتاب فراجع.

وكتب «عليه السلام» إلى جرير بن عبد الله البجلي: «وإن المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليَّ أن أستعمل معاوية على الشام، وأنا حينئذٍ بالمدينة، فأبيتُ ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلين عضداً»[1].

٣ ـ ذكر ابن قتيبة: أنَّ علياً «عليه السلام» قال لابن عباس في طلحة والزبير: «ولو كنتُ مُستعملاً رجلاً لضره ونفعه لاستعملتُ معاوية على الشام»[2].

٤ ـ ولا يخفى: أنَّ معاوية لم يكن من أهل الاستقامة، وكان عليٌ «عليه السلام» يعرفه حق المعرفة، وقد دلت تصرفاته على ذلك، حيثُ قتل حجر

الفصول المهمة لابن الصباغ ج١ ص٣٥٨ ـ ٣٦١ وسير أعلام النبلاء ج٣ ص١٣٩ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص٥٣٨.

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٣ ص٨٤ وبحار الأنوار ج٣٢ ص٣٧٨ ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٤ ص٢٤٥ ونهج السعادة ج٤ ص٩٦ وصفين للمنقري ص٥٢ وراجع: الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج٢ ص٥١٥ وتاريخ مدينة دمشق ج٥٩ ص١٣١ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٧٠ و٤ ص٧٤.

(٢) الامامة والسياسة (تحقيق الزيني) ج١ ص٥١ و(تحقيق الشيري) ج١ ص٧١ وحياة الإمام الحسين للقرشي ج١ ص٤٢١ والمعيار والموازنة للإسكافي ص٩٨.

بن عدي ومن معه[١]، وشن حرباً على إمام زمانه، ذهب ضحيتها سبعون ألفاً[٢]، ودس السم للأشتر، وقتل محمد بن أبي بكر، وغير ذلك.

---

(١) تاريخ الكوفة للسيد البراقي ص٣١٥ ـ ٣١٩ والغارات للثقفي ج٢ ص٨١٢ و ٨١٣ و ٨١٤ والاحتجاج ج٢ ص١٩ وبحار الأنوار ج١٨ ص١٢٤ وج٤٤ ص١٢٩ وشرح الأخبار ج٢ ص١٦٩ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٢ ص٢٦٢ وج١٦ ص١٧ و ١٩٣ وج١٨ ص٣٠١ والدرجات الرفيعة ص٤٣٠ والنص والإجتهاد ص٤٧٢ والغدير ج١٠ ص٢٢٥ وج١١ ص١٠ و ٦٠ و ٧٩ وقاموس الرجال للتستري ج١٠ ص١٢٢ ومستدرك سفينة البحار ج٢ ص٢٢٥ والاستيعاب ج١ ص٣٢٩ و ٣٣١ وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج١٣ ص٥٨٧ وفيض القدير ج٤ ص١٦٦ وتاريخ خليفة بن خياط ص١٦٠ والأخبار الطوال ص٢٢٤ وتاريخ مدينة دمشق ج١٢ ص٢٢٩ و ٢٣١ وج٣٤ ص٢٧٠ وأسد الغابة ج١ ص٣٨٦ وتهذيب الكمال ج١٧ ص٤٢ والإصابة ج٢ ص٣٣ وتاريخ الأمم والملوك ج٤ ص٢٠٨ والكامل في التاريخ ج٣ ص٤٨٦ و ٤٨٧ وينابيع المودة ج٢ ص٢٧ وصلح الحسن للسيد شرف الدين ص٢٦٩ و ٣٣٧ والوافي بالوفيات ج١١ ص٢٤٨ والبداية والنهاية ج٨ ص٥٨ و ٥٩ وإمتاع الأسماع ج١٢ ص٢١٩ وج١٤ ص١٢٧ وكتاب الفتوح ج٤ ص٣١٦ وإعلام الورى ج١ ص٩٣ وسبل الهدى والرشاد ج١٠ ص١٥٦ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٣ ص١٦٣ وخلاصة عبقات الأنوار ج٣ ص٢٨٩

(٢) راجع: أنساب الأشراف ص٣٢٢ ومناقب آل أبي طالب ج٢ ص٣٦٣ والصراط

وكان عليٌ «عليه السلام» يعتبرُ نفسه شريكاً لعامله فيما يصدر منه، فقد كتب لعبد الله بن عباس يلومه على تنمره لبني تميم: «فأربع أبا العباس ـ رحمك الله ـ فيما جرى على لسانك ويدك، من خيرٍ وشرٍ، فإنا شريكان في ذلك»(١).

٥ ـ وقد كتب «عليه السلام» لمعاوية: «وأما طلبك إلى الشام، فإني لم أكن لأعطيك ما منعتك أمس»(٢).

المستقيم ج٣ ص١٢٠ وبحار الأنوار ج٢٩ ص٤٧٠ وج٣٢ ص٥٨٩ وشجرة طوبى ج٢ ص٣٢٥ وسير أعلام النبلاء ج٣ ص١٤٢ والأعلام للزركلي ج٤ ص٢٩٥ ومعجم البلدان ج٣ ص٤١٤ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص٥٤٥ والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج٢ ص٧٠٧ وعمدة القاري ج١٦ ص١٤١ وفتح الباري ج١٣ ص٧٥ وتاريخ مدينة دمشق ج٤٣ ص٤٨٢ وتهذيب الكمال ج٢١ ص٢٢٦ والثقات لابن حبان ج٢ ص٢٩١ ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٣ ص١٠ وجواهر المطالب لابن الدمشقي ج٢ ص٤٤ و ٦٠.

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٣ ص١٨ الكتاب رقم١٨ وبحار ج٣٣ ص٤٩٢ و ٤٩٣ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٥ ص١٢٥ ومكاتيب الإمام علي ج١ ص١٨١ ـ ١٨٢ عنهم، ونهج السعادة ج٥ ص١٧٢ .

(٢) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٣ ص١٦ الكتاب رقم١٧ وصفين للمنقري ص٤٧١ ومناقب آل أبي طالب ج٢ ص٣٦١ وكنز الفوائد ص٢٠١ وبحار الأنوار ج٣٢ ص٦١٢ وج٣٣ ص١٠٥ و ١٣٠ والمحاسن للبيهقي ص٥٣

٦ ـ لم يتضح لنا ما هو الداعي للتصريح بتوليته «عليه السلام» معاويةَ الأمر والمال. مع أنَّ العادة لم تجر بالتصريح فيهما معاً.

إلا إن كان المُراد إطلاق يد معاوية في التصرف في أموال المسلمين وفقاً للتخويل الذي منحه إياه عمر بن الخطاب من قبل، وجرى عليه معاوية في عهد عثمان أيضاً.

على أنَّ نفس تولية عامل على بلدٍ إنما تعني إيكان إدارة الأمور، وجباية الأموال إليه، فلا حاجة إلى التصريح بتولي هذا وذاك، فإنّهما ليسا أمرين منفصلين، يتولى أحدهما شخصٌ، ويتولى الآخر شخصٌ آخر، ليحتاج إلى هذا التنصيص، ولم نحد هذا التنصيص في أية رسالة من علي «عليه السلام» إلى أيّ من عماله الآخرين.

٧ ـ إنَّ هذه الرسالة أو تلك تعني: أنَّ معاوية قد حصل على ما كان

وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٥ ص١١٧ وشرح نهج البلاغة للآملي ج١٨ ص٢٤٨ ـ ٢٥٣ والإمامة والسياسة (تحقيق الزيني) ج١ ص١٠٣ و (تحقيق الشيري) ج١ ص١٣٨ ومروج الذهب ج٤ ص١٤ والغدير ج١٠ ص٣٢٤ ومكاتيب الإمام علي ج١ ص٦٠ عنهم، ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٤ ص٤٦ والمناقب للخوارزمي ص٢٥٦ وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج٣١ ص٣٧٨ و كتاب سليم بن قيس (تحقيق الأنصاري) ص٣٣٧.

يتمناه من عليٍ «عليه السلام»، فلماذا يُجيبُ علياً بهذا التهديد والوعيد؟! ألا يخشى من إعلان عليٍ «عليه السلام» كتابه هذا، ويَعرف الناس طغيانه وبغيه؟!.

نصوص أخرى ومؤاخذات:

وبعد ما تقدم نقول ظهر من ذلك كله أن النص المذكور لا أساس له من الصحة، وسنذكر فيما يلي نصاً آخر قد خُلط فيه الغث بالسمين، والصحيح بالسقيم، وسنذكر هذا النص أولاً بطوله، ثم نذكر مآخذنا عليه، وذلك على النحو التالي:

علي عليه السلام يدعو معاوية للبيعة:

قال البلاذري:

قال أبو مخنف وغيره: وجه علي «عليه السلام» المسور بن مخرمة الزهري إلى معاوية لأخذ البيعة عليه، وكتب إليه معه:

إن الناس قد قتلوا عثمان عن غير مشورة مني، وبايعوا لي [عن مشورة واجتماع]، فبايع رحمك الله موفقاً. وفِدْ إلي في أشراف أهل الشام.

ولم يذكر له ولاية.

فلما ورد الكتاب عليه، أبى البيعة لعلي واستعصى، ووجه رجلاً معه صحيفة بيضاء، لا كتاب فيها ولا عليها خاتم ـ ويقال كانت مختومة ـ وعنونها: من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب.

فلما رآها علي قال: ويلك ما وراؤك؟!

قال: أخاف أن تقتلني.

قال: ولم أقتلك، وأنت رسول.

فقال: إني أتيت من قبل قوم يزعمون أنك قتلت عثمان، وليسوا براضين دون أن يقتلوك به.

فقال علي: يا أهل المدينة، والله لتقاتلن، أو ليأتينكم من يقاتلكم.

فبايع علياً أهل الأمصار، إلا ما كان من معاوية وأهل الشام، وخواص من الناس(١).

ونقول:

ويقول ابن حبان وغيره:

«ثم كتب علي إلى معاوية:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو..

أما بعد.. فإنه قد بلغك ما كان من مصاب عثمان، وما اجتمع الناس عليه من بيعتي، فادخل في السلام كما دخل الناس، وإلا فأذن بحرب كما يؤذن أهل الفرقة، والسلام..

---

(١) أنساب الأشراف (بتحقيق المحمودي) ج٢ ص١٢١.

وبعث كتابه مع سبرة الجهني، والربيع بن سبرة، فلما قدم سبرة بكتاب علي ودفعه إلى معاوية جعل يتردد في الجواب مدة، فلما طال ذلك عليه دعا معاوية رجلاً من عبس يدعى قبيصة، فدفع إليه الخ..» (١).

حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر دعي معاوية رجلاً من بني عبس يدعي قبيصة، فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه: من معاوية إلى علي، وقال له: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم أوصاه بما يقول، وأعاد رسول علي معه، فخرجا، فقدما المدينة في ربيع الأول بغرته، فدخلها العبسي كما أمره قد رفع الطومار، فتبعه الناس ينظرون إليه: وعلموا: أن معاوية معترض، ودخل الرسول على علي فدفع إليه الطومار، ففض ختمه، فلم يجد فيه كتاباً، فقال للرسول: ما وراءك؟!

قال: آمن أنا؟!

قال: نعم.. إن الرسول لا يقتل.

قال: ورائي أني تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود.

قال: ممن؟!

قال: من خيط رقبتك، وتركت ستين ألف شيخ تبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق.

قال: أمني يطلبون دم عثمان؟! ألست موتوراً كترة عثمان؟! اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان.. نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله، فإنه إذا أراد

---

(١) الثقات لابن حبان ج٢ ص٢٧٧.

أمراً أصابه. أخرج.

قال: وإني آمن؟!

قال: وأنت آمن.

فخرج العبسي وصاحت السبئية، وقالت: هذا الكلب رسول الكلاب اقتلوه!

فنادى يا آل مضر، يا آل قيس، الخيل والنبل، أقسم بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي، فانظروا كم الفحول والركاب!

وتعاونوا عليه، فمنعته مضر، فجعلوا يقولون له: اسكت.

فيقول: لا والله، لا يفلح هؤلاء أبداً. أتاهم ما يوعدون، لقد حل بهم ما يجدون، انتهت والله أعمالهم، وذهبت ريحهم، فوالله ما أمسوا حتى عرف الذل فيهم.

وأحب أهل المدينة أن يعلموا رأي علي في معاوية وقتاله أهل القبلة أيجسر عليه أم ينكل عنه؟! وقد بلغهم: أن ابنه الحسن دعاه إلى القعود، وترك الناس. فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمي ـ وكان منقطعاً إلى علي ـ فدخل عليه فجلس إليه ساعة، فقال له علي: يا زياد تيسر.

فقال: لأي شيء؟!

فقال: لغزو الشام.

فقال زياد: الأناة والرفق أمثل، وقال:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل علي وكأنه لا يريده:

متي تجمع القلب الزكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد والناس ينتظرونه، وقالوا: ما وراءك؟!

فقال: السيف يا قوم، فعرفوا ما هو فاعل. واستأذنه طلحة والزبير في العمرة، فأذن لهما، فلحقا بمكة.

ودعا علي محمد بن الحنفية، فدفع إليه اللواء، وولى عبد الله بن عباس ميمنته، وعمرو بن أبي سلمة أو عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ولاه ميسرته، ودعا أبا ليلي بن عمر بن الجراح، ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح، فجعله علي مقدمته، واستخلف على المدينة قثم بن العباس، ولم يول ممن خرج على عثمان أحداً، وكتب إلى قيس بن سعد، وإلى عثمان بن حنيف، وإلي أبي موسى: أن يندبوا الناس إلى أهل الشام. ودعا أهل المدينة إلى قتالهم، وقال لهم: إن في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها.

والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأزر الأمر إليها.

انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم. (خرنبا بفتح الخاء المعجمة، وسكون الراء، وفتح النون والباء الموحدة وآخره ألف).

ذكر ابتداء وقعة الجمل:

فبينما هم كذلك على التجهز لأهل الشام، أتاهم الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بنحو آخر، وأنهم على الخلاف.

فأعلم علي الناس ذلك، وأن عائشة وطلحة والزبير قد سخطوا على إمارته، ودعوا الناس إلى الإصلاح، وقال لهم: سأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغني[1].

تستوقفنا في هذا النص أمور عديدة، نذكر منها ما يلي:

الناس قتلوا عثمان:

إنه «عليه السلام» ينسب قتل عثمان إلى الناس. ولم ينسبه لرجل بعينه، مما يعني أن المطالبة بقاتله تصبح غير ذات جدوى، وغير عملية. بل ظاهر كلامه «عليه السلام» أن عامة الناس قد شاركوا في قتل عثمان، ثم إن عامتهم قد اجتمعوا على بيعته..

قتلة عثمان لم يشاوروا علياً عليه السلام:

ذكر «عليه السلام»: أنه لم يشارك في قتل عثمان، لا بالفعل، ولا

(١) الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٠٣ ـ ٢٠٥ وتجارب الأمم ج١ ص٢٩٩ ـ ٣٠٢ وتاريخ الأمم والملوك ٤٤٣ ـ ٤٤٥ و (ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٤٦٤ ـ ٤٦٥ والفتنة ووقعة الجمل ص١٠٢ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٤٧ والفصول المهمة لابن الصباغ ج١ ص٣٦٢.

بالرأي، فلا معنى لاتهامه بشيء من ذلك..

ويلاحظ هنا: أنه «عليه السلام» قال: «عن غير مشورة مني»، ليدل على أن الذي يستوجب المطالبة بدم المقتول هو إما المشاركة العملية، أو المشاركة بالرأي، وإعطاء الموافقة..

ولم يقل على غير رضا مني، فإن الرضا وعدمه مما لا يسأل عنه ولا يطالب به أحد من الناحية العملية، لأن مناشئ السخط، والمحبة والكراهة غير خاضعة للسلطان، بل قد يفرح الإنسان بقتل من يخالفه في الدين، لأنه يراه خطراً على دينه، أو بقتل ظالم له أو لغيره، أو بقتل المنافس له على مقام، أو من يحسده على نعمة.

ولكن ذلك كله لا يعني أن هذا الراضي صار شريكاً في دم ذلك المقتول، لكي تصح مطالبته به، علماً بأنه قد يكون ممدوحاً ومثاباً على رضاه بقتل ذلك الشخص، إذا كان ذلك المقتول ظالماً أو قاتلاً لنبي أو وصي مثلاً.. مع العلم بأنه ليس لأحد غير الله حق الاقتصاص من أحد، أو تنفيذ وإنزال العقوبة به لمجرد رضاه بفعل غيره.

كما أنه قد يذم على رضاه هذا لو كان ذلك المقتول عبداً صالحاً، أو مظلوماً، فالحساب على النوايا هو لله وحده، وقد ذم الله قوماً رضوا بما فعل أسلافهم، وصوبوهم فيما صدر عنهم[1]. ولكن ذمه ليس على قبح فعله ـ فإنه لم يفعل شيئاً بحسب الظاهر ـ بل على سوء سريرته، وخبث باطنه،

(١) الإحتجاج للطبرسي ج٢ ص٤١ وبحار الأنوار ج٤٥ ص٢٩٦.

وتركه واجب التخلص منه. وأما من يشرب من قدح يظن أن فيه الخمر فظهر أن ما شربه كان ماءً.. أو أراد أن يقتل مؤمناً فقتل كافراً ظالماً مستحقاً للقتل.

فهو إن كان يعبر عنه بالقبح الفاعلي، أي قبح نية الفاعل، وليس فيه قبح فعلي، لأن نفس الفعل ليس قبيحاً. ولكنا لا نسلم بأن القبح الفاعلي لا يستتبع عقوبة، فقد أنزل الله تعالى عذابه على ثمود، ولأنهم قتلوا ناقة صالح، مع أن قاتلها فرد أو أفراد، ولكن رضا الباقين بذلك جعلهم يستحقون نزول العذاب عليهم، وقد نزل بالفعل.

ومن جهة أخرى فإن من يقتل رجلاً لأنه مؤمن فظهر أنه طاغوت كافر يستحق الطرد والذم، والتضييق عليه، ولا يكون له عند الحاكم العادل نفس المقام الذي يعطيه لسائر المؤمنين، الذين لم يقدموا على ما أقدم عليه.

ويكون نفس سقوط محله عنده عقوبة له، فضلاً عما سوى ذلك. وهذا يجري في الدنيا وفي الآخرة، فإن بعده عن ساحة رحمة الله سبحانه يكون من أهم العقوبات له، لأن العقوبة حينئذ تكون على أمرين:

أحدهما: على نفس القتل.

والآخر: على تجرِّيه وسوء سريرته، وتركه واجب التزكية لنفسه، حيث يجب. وعلى عقد قلبه على حب الشر وبغض الخير، وهذا من الأفعال الجوارحية، التي يعاقب الله عليها، ويوجب استبدالها بضدها. كما يوجب عليه أن يتخلص من مساوئ الأخلاق، ومن الصفات الذميمة، كالحسد، والرياء وما إلى ذلك.

إما أن يبايع أو يكون باغياً:

ثم إنه «عليه السلام» ذكر لمعاوية أن الناس قد بايعوه، وذكر له أمرين لا يدعان لمعاوية فرصة للتعلل والمراوغة، إلا على سبيل البغي الظاهر، والعصيان لله تعالى.

وهذان الأمران هما:

الأول: إن بيعة الناس له «عليه السلام» كانت عن تأمل وتدبر، من خيار الأمة، وكبارها، ولم تكن بصورة انفعالية ولا عشوائية، كما أنها لم تكن فلتة استغفل بها بعض الناس أهل البصيرة والرأي، حتى فاز بها من فاز.

الثاني: إن البيعة له «عليه السلام» كانت عن اتفاق كامل، واجتماع شامل، فلم تكن كالبيعة التي جرت في السقيفة ابتزها أشخاص لا يصل عددهم إلى عدد أصابع اليد الواحدة، وقيل: عقدها اثنان، بل قيل: انعقدت ببيعة رجل واحد.

كما أنها لم تنعقد بوصية سابق للاحق، كما في وصية أبي بكر لعمر.

كما لم تنعقد بشورى يفرض فيها رأي رجل واحد كالشورى العمرية، حيث أنيط القرار بعبد الرحمان بن عوف، فمنح الخلافة لعثمان..

البيعة لعلي عليه السلام من التوفيق:

فإذا كانت خلافته «عليه السلام» انعقدت بهذا النحو الصحيح والصريح، حسب منطق جميع الفئات، فالمفروض هو أن ينصاع إليها كل مسلم..

بل ينبغي أن تعد البيعة لعلي «عليه السلام» في هذه الحال من

التوفيقات الإلهية، ومن السعادة والإقبال.. ولذلك قال له «عليه السلام»، وهو يسوق الكلام وكأنه نتيجة طبيعية «فبايع ـ رحمك الله ـ موفقاً»..

وفادة الشاميين.. ووفادة معاوية:

وكان من الطبيعي: أن يطلب «عليه السلام» قدوم أشراف أهل الشام عليه فإن كبار القوم وأعيانهم إذا وفدوا إليه، وتعرفوا عليه، وعاشوا معه برهة طالت أو قصرت، وإذا رأوا سمته وهديه، وعرفوا صدقه، وعاينوا زهده، وورعه وعبادته، وسمعوا كلامه وتوجيهاته، فسيصبح من الصعب تسويق الشائعات الباطلة التي يطلقها أعداؤه ضده، وسيبطل ذلك الكثير من الكيد الذي يستهدف تشويه صورته، وإظهاره على حقيقته.

ولن يجد معاوية بعد من يصدق الكثير مما يفتريه عليه، من قبيل أن علياً «عليه السلام» هو قاتل عثمان، أو أنه لا يصلي، أو نحو ذلك..

وبذلك يفقد معاوية أمضى أسلحته، ويجعلها كليلة وحطيمة، وبذلك يتمكن الإمام «عليه السلام» من أن يصون الأمة من الوقوع في أحابيله، ومن تصديق أباطيله وأضاليله..

وعلى كل حال، فإن هذا الإجراء كان ضرورياً، لأن معاوية إن استجاب للدعوة وقدم عليه بأهل الشام كان ذلك لمصلحة علي «عليه السلام»، كما بيناه. وإن لم يستجب لهذا الطلب، ورفض القدوم، ومنع أهل الشام من ذلك، فإنه يكون قد فضح نفسه، وأعلن بنواياه الفاسدة، وطموحاته الباطلة، لأن الكل يعلم: أن طلب علي «عليه السلام» قدومه عليه تصرف طبيعي، ومألوف ومتوقع، ولم يظهر منه «عليه السلام» بعد ما

يبرر أي تصرف سلبي مهما كان نوعه.

اقبض على أسفل الطومار:

وذكرت الرواية المنقولة عن ابن حبان، والطبري، التي تصف فعل رسول معاوية، ما يلي:

١ ـ أن معاوية أمر رسوله أن يقبض على أسفل الطومار، لكي يقرأ الناس عنوانه، ويعرفوا: أنه مرسل من معاوية إلى أمير المؤمنين «عليه السلام»، ليدفعهم فضولهم إلى محاولة معرفة محتواه، حتى إذا وجدوا أنه لم يكتب فيه شيئاً سيقعون في الحيرة، وتثور البلابل في الصدور، ويصير ذلك حديثهم في سرهم وجهرهم.

٢ ـ وقد بدأ بالكتاب بنفسه، وثنى بعلي «عليه السلام»، ليدل على أنه لا يعترف بخلافة أمير المؤمنين «عليه السلام»، وإلا لبدأ بعلي «صلوات الله وسلامه عليه» تشريفاً وتكريماً له.

٣ ـ أعاد معاوية رسول علي «عليه السلام»، وهو سبرة الجهمي مع قبيصة العبسي، ولم يرسل رسالته مع سبرة، إما ليظهر المزيد الاستهانة من حيث أنه هو المبادر، الذي لم يحفل برسالة علي «عليه السلام»، ولا برسوله، وإما لأنه يريد من رسوله أن ينفذ سلسلة من الأمور التي أوصاه بها مما لا يمكن أن يرضى سبرة بالقيام به. أو أراد كلا الأمرين معاً.

وبعدما تقدم نقول:

إن لنا على هذه الرواية شكوكاً من جهات عديدة كمايلي:

ممن القود؟!:

ذكرت الرواية: أن قبيصة قال لعلي «عليه السلام»: إن أهل الشام لا يرضون إلا بالقود. فسأله علي «عليه السلام»: ممن؟!

غير أننا نقول:

لم يكن قبيصة يتوقع هذا السؤال منه «عليه السلام»، فإن المفروض هو: أنه عالم بما يحاوله معاوية، وأهل الشام من التذرع بقتل عثمان لشن الحرب عليه.

ومع غض النظر عن ذلك، فإنه «عليه السلام» يعلم: أن القود إنما يكون من القاتل، فإن كان يعلم باتهامهم إياه بقتله، فهو يعلم أن قتله «عليه السلام» هو المطلوب، وإن كان لا يعلم بذلك، لأنهم لم يكونوا قد جهروا به، فهو يعلم أن القود يكون بقتل القاتل الحقيقي، فلا معنى لسؤاله هذا في الحالتين معاً.

ولكنه «عليه السلام» قد فاجأ قبيصة بهذا السؤال، لأنه أراد أن يصرح قبيصة بهذا الأمر، ليسمعه الناس حوله، فإنهم قد حضروا وعاينوا ما جرى، ولا بد أن يستفزهم هذا التجني الفاضح على أمير المؤمنين «عليه السلام»، الذي لمسوا عملياً حرصه على دفع القتل عن عثمان، ولكن عثمان لم يف له بوعوده، وأعان قاتليه على نفسه، وزادهم إصراراً على سفك دمه.

وهذا يزيده بصيرة بمظلومية علي «عليه السلام»، وبغي مناوئيه عليه، وليطلعوا مباشرة على ما كان يدبره معاوية من مكر وحيل.

ستون ألف شيخ حول قميص عثمان:

ولست أدري إن كانت الشام قادرة على أن تفرز ستين ألف شيخ ليبكوا حول قميص عثمان، وإذا كان في الشام شيوخ بهذا المقدار، فلا بد أن يكون شبابها أضعاف هذا العدد، فكيف لم يستطع معاوية أن يجمع من بلاد الشام كلها سوى مئة وعشرين ألفاً لحرب صفين.

والحال: أنه كان يعلم أنه بحاجة إلى ضعف هذا العدد ليضمن النصر في حربه لأمير المؤمنين «عليه السلام».

ولست أدري لماذا لم يسأل علي «عليه السلام» سبرة عن مدى صحة هذه المزعمة التي جاء بها رسول معاوية. إلا إن كان يعلم أن سبرة لا يستطيع أن يأتيه بالخبر اليقين في هذا الأمر، فإن معاوية لا يسمح لسبرة بالتجول، والاتصال بالناس.

فلعل معاوية هو الذي أوصى رسوله بأن يقول: هذا بين الناس، تهويلاً منه عليهم، وتخويفاً لهم، ليخذِّل الناس عن نصرته.

وقاحة رسول معاوية:

ولست أدري كيف يمكن تفسير وقاحة رسول معاوية، وجرأته على أمير المؤمنين «عليه السلام»، حيث أجاب علياً على سؤاله: ممن؟! بقوله: من خيط رقبتك.

فإنها كلمة فظة ونابية، لا يقولها إلا جبار متغطرس، لا يرى أن أحداً يستطيع مع إحساسهم بالأمن أن يؤذيه بشيء.

ولعل الهدف هو كسر هيبة أمير المؤمنين «عليه السلام» مع إحساسهم بالأمر، لأنهم عرفوا سجاحة خلق أمير المؤمنين «عليه السلام»، فتمادوا في جرائمهم، وأظهروا أنفسهم على حقيقتها، وعلى ما هي عليه من سوء الأدب، الذي أخذوه من أهل الطغيان، والوقاحة والفجور، وقد تجرأ أسلافهم، والمتخلقون بأخلاق أهل الباطل على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأسمعوه من قواذع القول ما لا يخفى على أحد، ولا نريد أن نقول أكثر من ذلك.

فإن كان هذا الرجل قد اعتمد على الأمان الذي حصل عليه من أمير المؤمنين «عليه السلام»، فإن الأمان لا يشمل صورة التعدي وتجاوز الحدود، إلى حد إساءة الأدب، وإهانة خليفة المسلمين وإمامهم.

ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً: زعمهم: أن هذا الرجل احتاج إلى الأمان مرة أخرى بعد أن قال هذا الكلام لأمير المؤمنين «عليه السلام»، وقد منحه إياه أمير المؤمنين «عليه السلام».

السبأية ورسول معاوية:

وحين خرج بالأمان الممنوح له من علي «عليه السلام»، وصاحت السبأية آمرة بقتله، لماذا لم يرجع إلى علي «عليه السلام»، ليطالبه بأمانه؟!

ولماذا التجأ إلى آل مضر، وإلى آل قيس، لا إلى علي «عليه السلام»؟!

ومن تحميه قيس ومضر، ويستطيع أن يستحضر الخيل والنبل، وعنده أربعة آلاف خصي ما عدا الفحوال والركاب، فإنه بلا ريب لا يحتاج إلى أمان علي «عليه السلام»، لا عند دخوله ولا عند خروجه!!

وعن أي سبأية يتحدث هؤلاء؟! وقد عرفنا أن هذا من الباطل، ومن مساعيهم لتزييف الحقائق، فإن ابن سبأ لم يكن قد ظهر بعد، ولا ظهر له اتباع، وحين ظهر واشتهر قتله علي «عليه السلام» وقتل أصحابه!

وعن أي خيل ونبل يتحدث قبيصة؟!

ولماذا لم تستعمل في هذه المناسبة؟! ولماذا لم يدع بالسيوف والرماح أيضاً، واقتصر على الخيل والنبل؟!

وهل سمع علي «عليه السلام» بالجلبة والضوضاء؟!

وهل وصل إليه الخبر فأمر السبأية بقتل رجل أعطاه هو الأمان؟! أم لم يصل إليه؟!

وهل أبلغه أحد بما يجري، أم بقي الأمر في حدود الخفاء والكتمان؟!

وإذا كانت أمثال هذه الحوادث تخفى عليه، فكيف يحفظ أمور الأمة، ويدفع عنها الشرور؟!

وإذا كان قد سمع وعرف فماذا كان موقفه؟!

ولماذا لم يبادر إلى الدفع عن هذا الرجل الذي يتعرض لخطر جسيم؟!

وأي شجاعة كانت لدى هذا الرجل حتى إنه لم يسكت عن أقواله الجارحة تجاه الذين احتوشوه وتعاونوا عليه من السبأية؟!

وماذا كان موقف مضر منه، حين لم يستجب لأمرها له بالسكوت؟! هل واصلت حمايتها له؟! أم أنها تخلت عنه؟!

وأي معنى لقول هذا الرجل عن السبأية: أتاهم ما يوعدون، وقد حل

بهم ما يحذرون؟!

فبماذا كانوا يوعدون؟!

وأين ومتى أتاهم؟!

وما الذي حدث لهم أو حل بهم؟!

وأي أعمال صدرت منهم وانتهت؟! ومتى ذهبت قوتهم؟!

وأي ذل عرف فيهم قبل حلول المساء؟!

وما هي أسباب حلول هذا الذل بهم؟!

إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التي نصرف النظر عنها، لعلمنا: أن ما ذكرناه منها يكفي لإعطاء الانطباع عن مدى الإسفاف في التزوير للحقائق..

علي عليه السلام وقتال أهل القبلة:

وقد ذكرت الرواية المتقدمة عن محاولة أهل المدينة معرفة رأي علي «عليه السلام» عن معاوية وقتاله أهل القبلة. وهذا كلام ظاهر الوهن والسقوط.

فأولاً: هل كان أهل المدينة لا يقرأون القرآن ولا يعرفون حكم الله في حق البغاة، والخارجين على إمام زمانهم؟! وهل كانوا يظنون في علي «عليه السلام» أنه يداهن في دين الله، ويتهاون في أحكامه؟!

ثانياً: هل نسي أهل المدينة أن أبا بكر قد حارب أهل القبلة بمجرد أنهم رفضوا الاعتراف بشرعية خلافته، وأصروا على الوفاء لعلي «عليه السلام»،

الذي بايعه المسلمون في يوم الغدير قبل استشهاد رسول الله «صلى الله عليه وآله» بسبعين يوماً.

ثالثاً: أليس غض النظر عن معاوية، سوف يفسح المجال لمعاوية ولغيره العبث بأمن الناس، وإثارة الفتن، وتمزيقهم، وزرع الشقاق بينهم، ونشوء دويلات متناحرة، وموهونة، لا تستطيع أن تصمد أمام أعداء الدين وأهله.. كما أن من الطبيعي أن يجرئهم غض النظر هذا على مهاجمة أمير المؤمنين «عليه السلام» في عقر داره، وإسقاط نظام حكمه، وربما قتله.

فهل من الحكمة ـ والحال هذه ـ ومن الوفاء إعطاء الفرصة لهؤلاء، لتحقيق مآربهم وإسقاط الأمة ونظامها في هذا المأزق البالغ الخطورة؟!

رابعاً: أليس معاوية وأضرابه يفسدون في الأرض، بإثارتهم القلاقل والفتن، حتى أصبحوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾(١)

خامساً: لا يحتاج أهل المدينة إلى دس أحد إلى علي «عليه السلام» ليعرف لهم رأيه، فقد كان يكفي أن يسأله أحدهم عن ذلك، فيسمع منه الجواب الصحيح والصريح.. فإن هذا الأمر لا يتستر عليه أمير المؤمنين «عليه السلام»، ولا يخجل من إظهاره، بل هو مما يجب الجهر به ليعرف

(١) الآية ٣٣ من سورة المائدة.

الناس ما ينتظرهم، وليستعدوا له، ويهتموا به كما يستحقه.

وإن صح هذا، فهو يكشف عن مشكلة عند أهل المدينة في إيمانهم وعقيدتهم في الدين والإسلام، والنبي، وكل ما جاء به «صلى الله عليه وآله».

الإمام الحسن عليه السلام يدعو أباه إلى القعود:

إن ما تقدم يؤكد:

أولاً: أن الإمام الحسن «عليه السلام» لا يمكن أن يدعو إلى القعود، لأنه يعلم أن المصيبة بالقعود ستكون أعظم، والكارثة ستكون أكبر على هؤلاء، والعدو سيكون أشد بطشاً وتنكيلاً، هذا في الدنيا، وفي الآخرة سيواجه القاعد العذاب الأليم، وغضب الإله العظيم.

ثانياً: إن الإمام الحسن «عليه السلام» كان يعلم: أن أباه باب مدينة علم النبي «صلى الله عليه وآله»، وأنه إمام معصوم، منصوب من قبل الله تعالى، وهو أخو رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويعلم أيضاً: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى قد قال: «علي مع الحق، والحق مع علي، يدور معه حيثما دار». أو «علي مع القرآن، والقرآن معه» ونحوذلك[1]. فمن يعلم ذلك كيف يعترض على

---

(١) راجع: دلائل الصدق ج٢ ص٣٠٣ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٨ ص٧٢ وعبقات الأنوار ج٢ ص٣٢٤ عن السندي في دراسات اللبيب ص٢٣٣ وكشف الغمة ج٢ ص٣٥ وج١ ص١٤١ ـ ١٤٦ والجمل لابن شدقم ص١١

أبيه، ويراه مخطئاً في قراراته، ويأمر بتصحيح الخطأ؟!

والحال أنه «عليه السلام» هو الآخر إمام معصوم لا يخطئ رأيه، وهو مطهر بنص القرآن، لا يقرب إليه أي نوع من أنواع الرجس والخطأ والخطل في قول ولا في فعل.

كتب علي عليه السلام إلى قيس بن سعد:

وقد أوهمت الرواية: أن قيس بن سعد كان على مصر آنئذ من قبل علي «عليه السلام»، وأنه «عليه السلام» قد كتب إليه أن يندب الناس إلى قتال أهل الشام.

ولكننا قد ذكرنا في موضع آخر: أن الظاهر: أن قيساً كان لا يزال في المدينة عند علي «عليه السلام»، وأنه إنما تولى مصر بعد حرب الجمل، فما ذكر هنا حول قيس يكون من موجبات وهن هذه الرواية أيضاً.

قميص عثمان:

وذكرت الرواية المتقدمة: أن ستين الف شخص كانوا يطيفون بقميص عثمان.

والجمل للمفيد ص٣٦ و ٢٣١ وتاريخ بغداد ج١٤ ص٣٢١ والمستدرك ج٣ ص١١٩ و ١٢٤ وربيع الأبرار ج١ ص٨٢٨ و ٨٢٩ ومجمع الزوائد ج٧ ص٢٣٤ ونزل الأبرار ص٥٦ وفي هامشه عنه وعن: كنوز الحقائق ص٦٥ وعن كنز العمال ج٦ ص١٥٧ وملحقات إحقاق الحق ج٥ ص٧٧ و ٢٨ و ٤٣ و ٦٢٣ و ٦٣٨ وج ١٦ ص٣٨٤ و ٣٩٧ وج٤ ص٢٧ عن مصادر كثيرة جداً.

وقالوا: أن «النعمان بن بشير، أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التي قطعت، وقميص عثمان الذي قتل فيه، وهرب به، فلحق بالشام.

فكان معاوية يعلق قميص عثمان، وفيه الأصابع، فإذا رأوا ذلك أهل الشام ازدادوا غيظاً، وجدوا في أمرهم»(١).

ونقول:

١ ـ لقد أصبح قميص عثمان مضرب المثل للتشنيع بأمر لا ينبغي التشنيع به، أو للجوء لذرائع واهية لا يصح اللجوء إليها..

٢ ـ إن معاوية حين كان يعلق قميص عثمان، وأصابع نائلة زوجته، إنما كان يسعى لتجييش النفوس، وشحنها، وإثارة الحنق الأرعن، والغضب الخاوي من المضمون بهذه الطريقة. مع أنها طريقة لا تجدي في إثبات مظلومية عثمان، إلا إن كان الناس يعتقدون عصمته وطهارته من كل رجس ودنس، أو خطأ أو خطل، في فكر، وقول، وعمل..

فإن المقتول، قد يكون محقاً، وقد لا يكون.. كما أن مجرد كون إنسان حاكماً لا يجعله محقاً في كل شيء.. فلماذا يريد معاوية تهييج الناس بهذه الأساليب؟! ألم يكن يملك حجةً تكفي لإثبات مظلومية الخليفة القتيل؟!

أم أنه استخف قومه فأطاعوه؟!

---

(١) بحار الأنوار ج٣٢ ص٨ والكامل في التاريخ ج٣ ص١٩٢ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق١ ص١٥١ ومستدركات علم رجال الحديث ج٨ ص٧٩ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٤٤ .

أم أن المقصود: هو أن لا يدخل الناس في نقاشٍ حول أسباب قتل عثمان؟! لأن ذلك يضر بمصلحة معاوية، ويحبط مسعاه. حيث ستظهر للناس صحة وصوابية مطالب الناس منه، وسيطلع أهل الشام على جانب كبير من تصرفات عمال عثمان، وسيفتضح بنو أمية، وربما تصل النوبة إلى معاوية نفسه، حيث سيطالبه الناس بمبررات حجبه المساعدة عن عثمان.

أهل الشام لا يعرفون علياً عليه السلام:

وحين استعصى معاوية عن البيعة، فإنه ارتكب خطأً ظاهراً لا لبس فيه، ولا شبهة تعتريه.

كما أن كل من كان معه ـ لو كان منصفاً وطالباً للحق لعرف أن ما يحاوله معاوية هو الباطل.. خصوصاً مع ما أوضحته رسالة علي «عليه السلام» هذه الصغيرة في مبناها، العظيمة في دلالاتها ومعناها..

ولكن زعماء أهل الشام آنئذٍ لم يذوقوا حلاوة الإسلام الأصيل، بل كان معاوية قد روضهم على قبول مراداته، وجعلهم يعيشون أجواءه، وأهواءه، ويطمحون إلى ما يطمح إليه، ويضحون بكل شيءٍ في سبيل الحصول عليه. والناس على دين ملوكهم.

وهم إنما عرفوا الإسلام كما عرفهم إياه معاوية.. وهل يعرفهم معاوية إلا إسلام الأطماع والأهواء، والمفاهيم الجاهلية باسم الدين؟! أما عامة الناس فهم تبع لرؤسائهم وقادتهم، فماذا يمكن أن يرتجى منهم..

تحريف في وفادة معاوية:

إن ثمة نصاً آخر قد أورده كتاب علي «عليه السلام» إلى معاوية، وفيه قوله: «وفد إلي في أشراف أهل الشام قبلك»، ولم يذكر له ولاية(١).

ولكن العبارة الأخرى هي كما رأينا: «وأوفد إلي أشراف أهل الشام قبلك».

ويبدو: أن الصحيح هو العبارة الأولى، المنقولة عن البلاذري: فإن معاوية إن أطاع هذا الأمر، فسيرى الناس معاوية يأتي بنفسه، ويرضى بالبيعة له «عليه السلام»، وهذا يقطع على معاوية دابر التعلل، والتضليل، والإدعاءات الباطلة.

كما أن وفوده إليه في أشراف أهل الشام، الذين سيرون منه هذه الطاعة سوف يُصَعِّب على معاوية إقناعهم بعد ذلك بأن من حقه أن يظهر الطغيان على علي «عليه السلام»، وأن يعصي أوامره.

وسينتقل هذا التأثير من الرؤساء إلى اتباعهم، فإن الناس كانوا ينقادون لرؤسائهم وأشرافهم، وفق المنطق الذي كان مهيمناً على الواقع الإجتماعي القائم آنذاك.

وإن لم يطع معاوية هذا الأمر، ولم يأت مع أشراف أهل الشام، فإن الناس، والأجيال كلها سيرون أنه هو السبب في شق عصا المسلمين، وفي إثارة الفتن بينهم بلا مبرر.

---

(١) أنساب الأشراف (بتحقيق المحمودي) ج٢ ص٢١١.

وقد أكد معاوية أنه ينحو نحو إثارة الفتن، وشق عصا المسلمين، حين أرسل إلى الزبير بأنه بايع له أهل الشام.

طومار معاوية من جديد:

عن صالح بن كيسان قال: قتل عثمان، وبويع علي، وعائشة في الحج؛ فأقامت بمكة، وخرج إليها طلحة والزبير، وقد ندما على الذي كان من شأنهما في أمر عثمان.

وكتب علي إلى معاوية:

إن كان عثمان ابن عمك فأنا ابن عمك، وإن كان يوصلك فإني أصلك. وقد أمَّرتك على ما أنت عليه، فاعمل فيه بالذي يحق عليك.

فلما ورد الكتاب على معاوية دعا بطومار لا كتاب فيه، ثم كتب:

بسم الله الرحمن الرحيم فقط.

ثم طواه وختم عليه، وكتب عنوانه: من معاوية إلى علي بن أبي طالب.

وبعث به مع رجل من عبس يقال له: يزيد بن الحر، فقدم به على علي، فقال لعلي: أجرني.

قال: قد أجرتك إلا من دم. فدفع الكتاب إليه، فلما نظر فيه عرف أن معاوية مباعده.

ثم إن يزيد بن الحر قال: يا معشر قريش، الخيل، الخيل، والذي نفسي

بيده ليدخلنها اليوم عليكم أربعة آلاف فارس » أو قال: فرس[١].

ونقول:

في هذا النص موارد يحسن إيضاحها..

فأولاً: هو لا يخلو من تهافت، فإن علياً «عليه السلام» إن كان قد ولاه الشام، فلماذا رفض مشورة المغيرة بتوليته؟!

ثانياً: إذا كان «عليه السلام» قد كتب له بتأميره على ما هو عليه، فلماذا لم يقبل منه؟! وهل كان معاوية يريد من علي «عليه السلام» غير إبقائه على عمله؟!

ثالثاً: لماذا يطلب ذلك العبسي الأمان من علي «عليه السلام»؟! أليس هو رسول، ولا يعاقب الرسول، ولا يروع؟!

رابعاً: إذا كان معاوية قد طوى الكتاب وختمه، فمن أين علم ذلك العبسي بمضمونه؟!

وحتى لو علم بمضمونه، فلماذا يخاف من بطش علي «عليه السلام»؟!

خامساً: إن رواية أبي مخنف وغيره تتناقض مع هذه الرواية لتصريحها: بأن علياً «عليه السلام» كتب إلى معاوية يأمره بالوفود إليه في أشراف أهل الشام، ولم يذكر له ولاية[٢].

سادساً: إن هذه الرواية تتناقض مع الرواية التي تقول: «إن معاوية

---

(١) أنساب الأشراف (بتحقيق المحمودي) ج٢ ص١٢٢.

(٢) أنساب الأشراف (بتحقيق المحمودي) ج٢ ص١٢١.

أرسل إلى علي «عليه السلام» صحيفة بيضاء لا كتاب فيها، ولا عليها خاتم»[١].

وفي نص آخر: أمر حامل كتابه: أن ينشره ويطوف به في المدينة ليقرأه الناس قبل أن يصلوا إلى علي «عليه السلام»[٢].

سابعاً: لماذا خاطب يزيد بن الحر قريشاً بذلك الخطاب التحذيري من خيل سوف تهاجمهم؟! ولماذا لم يخاطب به سائر أهل المدينة أيضاً؟! هل أراد أن يخيف قريشاً من أربعة آلاف؟! ألم تكن قريش تستطيع أن تجمع ضعف بل أضعاف هذا العدد من الفرسان؟! كما كانت تفعله حين كانت تحارب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وحين وفاته حيث أدخلت عدة آلاف إلى المدينة، لابتزاز الخلافة من علي «عليه السلام».

وهل دخل هؤلاء الفرسان على قريش في ذلك اليوم؟!

وهل استطاعت قريش أن تصدهم؟!

ولماذا لم يحدثنا التاريخ عن هذه الحادثة التي يزعمون أنها حصلت في المدينة؟!

---

(١) أنساب الأشراف (بتحقيق المحمودي) ج٢ ص١٢١.

(٢) راجع: الثقات لابن حبان ج٢ ص٢٧٦ والفتنة ووقعة الجمل ص١٠٢ وتاريخ مدينة دمشق ج٤٩ ص٢٦٧ وتاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٣ ص٤٦٤ والكامل في التاريخ ج٣ ص٢٠٣ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق١ ص١٥٢.

وهل يمكن أن يخبرنا أحد عن هؤلاء الأربعة آلاف، من هم؟! ومن أين جاؤوا، ومن أرسلهم؟! وماذا يريدون؟! وإلى ماذا يدعون؟! ولماذا يهاجمون؟! ومن هو قائدهم؟!

وإذا كان لم يحصل شيء في ذلك اليوم، فهل سكت عنه علي «عليه السلام»، وكيف تعامل معه؟! وبأي شيء طالبه؟!

وأي قريش عنى يزيد بن الحر، هل قصد قريشاً المناوئة لعلي، أم قصد قريشاً التي بايعته وأيدته؟!

إن هذه الأسئلة تحتاج إلى أجوبة، كما أن تلك الإشكالات والإبهامات التي ذكرناها. تحتاج إلى إيضاح وحل قبل أن يمكن التفكير بطبيعة التعامل مع هذه الرواية المزعومة..

بيعة معاوية للزبير:

قال المعتزلي: «لما بويع علي «عليه السلام» كتب إلى معاوية:

أما بعد، فإن الناس قتلوا عثمان من غير مشورة مني، وبايعوني عن مشورة منهم وإجماع. فإذا أتاك كتابي فبايع لي، وأوفد إلي أشراف الشام قبلك.

فلما قدم رسوله على معاوية، وقرأ كتابه بعث رجلاً من بني عبس، وكتب معه كتاباً إلى الزبير بن العوام، وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم:

لعبد الله الزبير أمير المؤمنين، من معاوية بن أبي سفيان.

سلام عليك..

أما بعد، فإني قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا، واستوثقوا الحلف. فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقنك لها ابن أبي طالب، فإنه لا شيء بعد هذين المصرين.

وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهرا الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجد والتشمير. أظهركما الله، وخذل مناوئكما.

فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سُرَّ به، وأعلم به طلحة، وأقرأه إياه. فلم يشكا في النصح لهما من قبل معاوية، وأجمعا عند ذلك على خلاف علي».

ثم ذكر المعتزلي: أن طلحة والزبير، جاءا إلى علي «عليه السلام» بعد البيعة بأيام، وطلبا منه أن يوليهما بعض أعماله فرفض طلبهما.

فانصرفا وقد دخلهما اليأس، فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرة تريدان، فحلفا له: ما الخلاف عليه ولا نكث بيعته يريدان.

فطلب منهما إعادة البيعة، فأعاداها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق إلخ..[1].

---

(١) راجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١ ص٢٣٠ و ٢٣١ الخطبة رقم٨، وبحار الأنوار ج٢ ص٥ و ٦ والغدير ج١٠ ص٣١٦ ونهج السعادة ج٤ ص١٧ وراجع: البدء والتاريخ ج٥ ص٢٠٩ ـ ٢١١.

ونقول:

إن لنا مع ما تقدم وقفات، هي التالية:

لماذا بايع للزبير؟!:

وكتاب معاوية إلى الزبير ببيعة أهل الشام له، ولطلحة من بعده. قد تضمن كذباً ظاهراً، حيث إن أحداً لم يبايع للزبير، ولا لطلحة من بعده.

وعلى هذا الأساس نقول:

إن كان طلحة والزبير عارفين بأن معاوية قد كذب عليهما؛ فلماذا لم يظهرا ذلك للناس، ليحذروا من ألاعيب معاوية..

وإن كانت هذه الكذبة قد أفرحتهما وسرتهما، لأنهما وجدا فيه بريق أمل لنيل ما يحاولان الوصول إليه.

وإن كانا قد صدقاه فيما أخبرهما به، فسيكونان في غاية السذاجة والتغفيل..

ومهما يكن من أمر، فقد أراد معاوية بذلك أن يذكي طموحهما، ويزيد من تصميمهما على مناوأة علي «عليه السلام» ومنازعته، ليضعف بذلك أمره، ويثقل خطوه نحو اقتلاعه من حكم بلاد الشام. وليجد الفرصة للتهيؤ للمواجهة إن اقتضى الأمر.. أو لاستمرار التسويف والمماطلة إلى أن يتمكن من حسم الأمر لصالحه..

لماذا اختار الزبير؟!:

ويبقى هناك سؤال يحتاج إلى إجابة، وهو: إذا كان معاوية يعلم أن

طلحة هو الأكثر شراسة في طلب هذا الأمر، وهو مؤيد بأم المؤمنين عائشة.. فلماذا اختار الزبير ليقدمه عليه ويعلن أنه قد بايع له اهل الشام؟!

ونجيب: بأن معاوية لا يريد أن يقوي الرجل القوي بعائشة، وببني تيم الذين اكتسبوا بخلافة أبي بكر التيمي نفوذاً وجاهاً.. بل يريد أن يلجم قوة طلحة، ويحدِّد من قدرته على منافسته، فقدم الزبير عليه، في وقت لا يستطيع طلحة إلا السكوت والرضا على مضض، كما أنه يريد أن تتأجج في صدر طلحة نار الحسد للزبير، ويؤسس بذلك لفصول من الصراع بينهما لو تمكنا من فعل شيء في مقابل علي «عليه السلام»..

وقد ألقى لطلحة بفتاتٍ يضمن معه إبقاءه في دائرة السيطرة حين ذكر: أنه قد بايع له بعد الزبير..

دونك الكوفة والبصرة:

ثم إن معاوية الذي كان على علم بمطامع طلحة والزبير، قد وضع الكوفة والبصرة أمام أعينهما لتكونا هما الهدف الأول الذي ينبغي لهما الوصول إليه. مع إدراكه أن أول ما سيواجههما فيهما هو علي بن أبي طالب. لأنه يريد أن يدق إسفين الفتنة، ولا يتسنى له ذلك إلا بذلك..

ولو أنه دعاهما إلى الشام ليتسلما زمام الأمور فيها لكان قد سعى إلى حتفه بظلفه، ولكانت خطته قد فشلت، وآماله قد خابت.. وسيتمكن هذان الرجلان ومعهما عائشة من الاستئثار بالأمور دونه، ولو في الشام فقط، على رغم أنفه.

وما ذكرناه يظهر: أن معاوية قد كاد علياً «عليه السلام» والزبير،

وطلحة، وحتى عائشة في رسالته هذه.. والغريب أن طلحة، والزبير، وعائشة منهم لم ينتبهوا لمكيدته هذه بالرغم من وضوحها، إذ كان يكفي عائشة، والزبير وطلحة أن يسألا أنفسهما: لماذا خص الزبير بهذا الأمر دون طلحة؟!

ولماذا لم يطلب منهما القدوم إلى الشام، إذا كان قد بايع لهما فيها؟!

ولماذا لم يمدهما بالعساكر الشامية، إن كانت الشام قد أصبحت من رعاياهما.

وقد كان ينبغي أن يعتبرا بموقفه من عثمان حيث منع جند الشام من نجدته، وأبقاهم بعيداً عنه، بالرغم من تكرر استغاثات عثمان به وبغيره. وبقي الأمر على هذه الحال إلى أن قتل عثمان.

كتبه عليه السلام لمعاوية:

١ ـ ولما بويع «عليه السلام» في المدينة كتب إلى معاوية:

«أما بعد.. فإن الناس قد قتلوا عثمان على غير مشورة مني، وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابي فبايع لي، وأوفد إلي أشراف أهل الشام قِبلك»[١].

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي (ط دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه) ج١ ص٢٣٠ وجمهرة رسائل العرب ج١ ص٣٨٥ عنه، وأنساب الأشراف (بتحقيق المحمودي) ج٢ ص٢١١ والجمل لابن شدقم ص٧٤

٢ ـ وكتب «عليه السلام» إلى معاوية، على ما رواه الواقدي في كتاب الجمل:

«من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان.

أما بعد.. فقد علمت إعذاري فيكم، وإعراضي عنكم، حتى كان ما لا بد منه، ولا دفع له، والحديث طويل والكلام كثير، وقد أدبر ما أدبر، وأقبل ما أقبل، فبايع من قبلك، وأقبل إلي في وفدٍ من أصحابك، والسلام»(١).

ونقول:

توضيحان:

المراد من قوله: «حتى كان ما لا بد منه» هو قتل عثمان المسبب عن إفساده، وإفساد بني أبيه، وسكوت عثمان عنهم.

قيل: إن جملة: «أقبل إلي في وفد من أصحابك» كانت تكتب إلى وال يراد عزله.

ولا نرى ذلك دقيقاً، فإنها كلمة عامة تصلح لكلتا الحالتين..

وبحار الأنوار ج٣٢ ص٥ ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٤ ص٢٣٤ والغدير ج١٠ ص٣١٦ ونهج السعادة ج٤ ص١٧.

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٣ ص١٣٥ الباب الثاني، المختار رقم٧٥. وبحار الأنوار ج٣٢ ص٣٦٥ والغدير ج١٠ ص٣١٦ ونهج السعادة ج٤ ص١٨ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٨ ص٦٨.

قتل عثمان لم يكن الخيار المعلن:

قوله «عليه السلام» في الكتاب الأول: «قتلوا عثمان عن غير مشورة مني» يعطي: أنه «عليه السلام» يريد أن يبين: أن الإقدام على قتل عثمان لم يكن مطروحاً للتداول في أيام حصاره، مما يعني: أن قتله قد فاجأ الجميع.. وأن الحصار لم يكن يستبطن التباني على القتل لكي يعتبر الصبر عليه، والأناة في التعامل مع الأحداث المرافقة له، ممالأة على القتل.

وإذا كان بعض قادة الحصار يهددون بقتل عثمان، فلعل هذه التهديدات لم تكن تؤخذ على محمل الجد، لعلم الجميع: بأن الإقدام على هذا الأمر مجازفة عظيمة، لا يتحمل تبعاتها أحد في الظروف العادية..

الناس قتلوا عثمان:

إنه «عليه السلام» قد نسب قتل عثمان إلى الناس، ولم يحدد القاتل بالإسم أو الصفة.. ربما لأنه «عليه السلام» لم يحضر ولم يشاهد بعينه.

وربما لأن جماعة قد تشاركوا في هذا القتل يختلف الناس في أسمائهم وأشخاصهم. أو لأجل أن الأهواء قد لعبت لعبتها في إطلاق التهم، وتضخيم الأدوار أو تصغيرها..

أو لأن الدخول في لعبة الأسماء والأشخاص يدفع باتجاهات تؤدي إلى متاهات، وتنتهي بمظالم ومآثم، لم يكن علي «عليه السلام» ليساعد عليها من قريب أو من بعيد. بل كان يرى أن من واجبه حسم مادتها، والقضاء على تفاعلاتها بكثير من الصلابة والحزم..

عناصر توفرت في البيعة لعلي عليه السلام:

ثم ذكر «عليه السلام»: أن الناس قد بايعوه، وأنه قد توفر في هذه البيعة أمران أساسيان:

أولهما: أنها لم تكن بيعة مرتجلة، ولا في أجواء إنفعالية، أو عاطفية، ولا غوغائية يقودها همج الناس ورعاعهم، وإنما هي بيعة عن بصيرة وروية، شارك في صنعها عقلاء الرجال، وأهل الدين والمعرفة والسلامة.

الثاني: أن بيعته «عليه السلام» لم تكن فلتة، ولم تكن صفقة تمليها مصالح دنيوية، ولا عقدها له هذا القريب، أو ذلك الصديق والصاحب، بل كانت بيعة عامة بالمعنى الدقيق للكلمة، لا استثناء فيها على الإطلاق..

وهذا يميزها على ما سبقها من بيعات وصفقات، فهي كبيعة يوم غدير خم التي تمت بأمر الله، وبإشراف رسوله «صلى الله عليه وآله».

الثالث: إنها كانت بيعة طوعية، إختيارية، لا أثر فيها للتدليس، ولا للمراء، ولا للإكراه، ولا تشوبها أية شائبة.

وفادة أشراف الشام ومعاوية، لماذا؟!:

ثم طلب «عليه السلام» من معاوية: أن يبايع له، وأن يوفد إليه أشراف أهل الشام، وفي النص الثاني: أمره أن يفد معهم أيضاً.. مع أنه كان بإمكانه «عليه السلام» أن يكتفي بطلب بيعتهم، ولا يطلب وفودهم عليه.

ويجاب:

١ ـ لعله «عليه السلام» أراد لأشراف أهل الشام أن يروه ويحاوروه

بصورة مباشرة، ويتلمسوا بأنفسهم علمه، وخصاله، وأخلاقه، وإخلاصه، وقيمه، ومفاهيمه، وزهده، وكل أحواله.

فإذا تم له ذلك، فإن تضليل معاوية لهم سيكون أصعب.. كما أنهم سيقارنون بينه وبين معاوية، ويرون البون الشاسع بينهما، وهم سيشاهدون صدق واستقامة، وعلم وعقل، وطاقات، وميزات، وأخلاق علي «عليه السلام»، وسيرون أضداد هذه الصفات معاوية، وسيسقط ذلك محل معاوية في نفوسهم، وسيشعرون بالأمن والسكينة مع علي «عليه السلام»، وسيرونه في كمالاته وسائر حالاته، منسجماً مع ما تحكم به عقولهم، وتقضي بهم فطرتهم، وترضاه نفوسهم.

٢ ـ إن هذا يعطي: أن على الحاكم أن يتصل بالرعية بصورة مباشرة، ولا يكلهم إلى ولاتهم، ولا يجعل علاقته بالناس من خلال أولئك الولاة، بل لا بد من إبقاء السبل مفتوحة أمامهم للوصول إليه، وطرح قضاياهم عليه. بل إن وصولهم إلى ولاتهم من خلاله سيكون هو الأرجح والأصلح.

الإعذار.. والإعراض!!:

وقوله «عليه السلام» في الكتاب الثاني: «قد علمت إعذاري فيكم وإعراضي عنكم» يشير به إلى خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، ثم ما جرى لعثمان، وموقفه «عليه السلام» منه، فإنه «عليه السلام» قد اتبع سياسة استنفاد القوة، والاستفادة من كل وسيلة لبيان حقه، وبيان أن غيره يضع نفسه في موضع ليس له.

وقد بلغ في ظهور حجته، وسطوع براهينه، ووضوح بيانه ما جعله

معذوراً عند الله تعالى وعند خلقه في موقفه الذي اتخذه منهم.

وقد جعل «عليه السلام» هذا الوضوح في البيان، وسطوع البرهان، وظهور تعمد الاستمرار في غصب موقعه منه، ومواصلة سياسات إقصائه ـ جعل ذلك ـ مبرراً للإعراض عنهم..

وكذلك الحال بالنسبة لمحاولاته إصلاح أمر عثمان، الذي كان يأبى ذلك، وكان بنو أمية يحرضونه على التصلب في موقفه هذا، حتى ظهر عذره «عليه السلام» وأصبح الإعراض عن الدخول في أمره، لا يشك أحد في صوابيته..

لا بكاء على الأطلال!!:

وقوله «عليه السلام»: «وقد أدبر ما أدبر، وأقبل ما أقبل» يعطي: أن سياسة علي «عليه السلام» لا ترتضي الخمول والخمود، والتوقف عند الحدث للبكاء على الأطلال، بل كان يرى: أنه لا بد من استخلاص العبر، مما يحدث، والإنطلاق بها إلى المستقبل، ليداوي بها الداء، ويستفيد منها في تجنب الوقوع في الأدواء، ليبني مستقبلاً صحيحاً وسليماً ومعافىً وقوياً.

الفصل السادس:

علي عليه السلام يريد الشام..

علي عليه السلام يريد زيارة الشام:

قال ابن أعثم: «وأراد علي الشخوص إلى الشام ليزور أهلها، وينظر ما رأي معاوية فأقبل أبو أيوب الأنصاري، فقال: يا أمير المؤمنين، إني لأشير عليك أن تقيم بهذه البلدة، فإنها الدرع الحصينة، ومهاجر رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وبها قبره ومنبره، فأقم بها، فإن استقامت العرب كنت بها كمن كان من قبلك، وإن تشعب عليك قوم رميتهم بأعدائك من الناس.

قال: فقال له «عليه السلام»: صدقت يا أبا أيوب، ولكن الرجال والأموال بالعراق. وأهل الشام لهم وثبة، أحب أن أكون قريباً منهم. ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

قال فأنشأ أبو أيوب أبياتاً مطلعها:

أقول وقد أودى بعثمان يومه ... ولا علم لي ما يصنع الله في غد

وذكر في هامش الكتاب بقية الأبيات كما يلي:

علي أمير المؤمنين إمامنا ... ويحكم بالحكم الوثيق المعقد

فمن قال: لا.

قلنا له: ليس بيننا وبينك إلا حد (سيف مهند)[١] معتد

فقل لعلي، والحوادث جمة فعالة ذي رأي من الناس مرشد

أباحسن لا تبرح البلدة التي بها اليوم قبر للنبي محمد

ومنبره فارم العدى بكتيبته شعارهم الأنصار في كل مشهد

فإن بها آثار أحمد واضح مبينة أعلامها بيد (كذا)

قال: وأخذ علي برأي أبي أيوب الأنصاري في الإقامة بالمدينة إلخ..»[٢].

ونقول:

في هذا النص إشكالات عديدة نذكرها فيما يلي من عناوين:

حوار غير منسجم:

وقد لاحظنا: أن هذا الحوار غير منسجم، وأن علياً «عليه السلام» يعزم على زيارة الشام، فينصحه أبو أيوب بالبقاء في المدينة، فيجيبه علي «عليه السلام» بأن المال والرجال بالعراق، لأنه يتوقع لأهل الشام وثبة، فيجب أن يكون قريباً منهم.

فيدلنا ذلك: على أن أبا أيوب قد نصحه بتلك النصيحة حين أراد «عليه السلام» أن يتوجه إلى العراق.. لا حين أراد «عليه السلام» المسير إلى الشام.

---

(١) هذه الإضافة منا ليستقيم الوزن والمعنى. أو حد سيف معتَّد «بتشديد التاء».

(٢) الفتوح لابن أعثم ج٢ ص٢٦٧ و ٢٦٨ و (ط دار الأضواء) ج٢ ص٤٤٧ و ٤٤٨.

لم يأخذ بنصيحة أبي أيوب:

وذكر النص المتقدم: أن علياً «عليه السلام» أخذ بنصيحة أبي أيوب. ولو كان ذلك صحيحاً لأقام «عليه السلام» بالمدينة، ولم ينتقل إلى العراق..

فإن قيل: بل أخذ «عليه السلام» بها، لأنه كان عازماً على المسير إلى الشام، ولم يفعل ذلك، بل أقام بالمدينة.

ويجاب: بأننا مع غض النظر عن عدم الانسجام في الحوار كما أشرنا إليه آنفاً، نقول:

إن كلام أبي أيوب يعطي: أن المطلوب هو أن لا يغادر «عليه السلام» المدينة إلى أي بلد كان، حتى إلى العراق..

والحال: أنه غادرها إلى العراق، وزاد على ذلك أن اتخذ الكوفة عاصمة له، ولم يعد إلى المدينة أبداً..

يضاف إلى ذلك: أن جوابه «عليه السلام» إنما يحتم عليه الذهاب إلى العراق لأن به الرجال والأموال، ولأن أهل الشام لهم وثبةلا يؤمن جانبهم، ويريد أن يكون قريباً من أهل الشام، فلا يمكن أن يأخذ بنصيحة أبي أيوب بالبقاء في المدينة.

رأي معاوية:

لم نستطع أن نجد معنىً معقولاً، ومقبولاً للتعبير الوارد في النص المتقدم عن أن هدف أمير المؤمنين «عليه السلام» هو زيارة أهل الشام، وأن ينظر رأي معاوية..

فأولاً: ألم يكن بالإمكان معرفة رأي معاوية بطريق آخر غير السفر إلى الشام.. ولو بإرسال من يأتيه برأيه، أو باستدعاء معاوية نفسه إلى المدينة؟!

ثانياً: لماذا يحتاج إلى رأي معاوية؟! ولماذا لم يطلب معرفة رأي غيره من العمال في البلاد؟! ولماذا لم يقرر ما يراه صالحاً ثم يبلغ معاوية قراره هذا، ثم يتصرف معه وفق الجواب الذي يأتيه منه..

ثالثاً: لم يذكر لنا النص المتقدم ما المقصود بالرأي الذي يريده علي «عليه السلام» من معاوية!!

هل يريد رأيه في حكومة علي «عليه السلام»؟! أم رأيه في ولاية الشام؟! أو رأيه في طريقة التعاطي مع قتلة عثمان؟! أو رأيه في كيفية إدارة البلاد؟! أو في التعاطي مع غير المسلمين؟! أم ماذا به؟!

رابعاً: لماذا اختار «عليه السلام» زيارة أهل الشام دون غيرهم من أهل الأمصار؟!

خامساً: هل سيذهب «عليه السلام»، ليزور أهل الشام بجيش قادر على الدخول إليها، ولو عنوة؟! حتى لو اجتمعت عليه كل البلاد التي كانت بيد معاوية؟! أم سيزورها بلا جيش؟!

فإن كان سيزور أهلها بجيش، فذلك يعني أنه يحتاج إلى جمع عشرات الألوف وربما مئة ألف رجل، ولم يكن عنده بالمدينة ما يكون بمقدار واحد أو اثنين بالمئة من هذا الجمع الهائل..

كما أنه لم يكن بالإمكان جمع أمثال هذه الجموع في تلك البرهة الوجيزة، ولم يكن علي «عليه السلام» قد أعلن على المسلمين أمراً كهذا، ولا

كان قد طلب منهم التجمع عنده..

ولو أنه فعل ذلك لعرف به معاوية وتهيأ واستعد له، لأن عيونه، ومحبيه من بني أمية وغيرهم ما كانوا ليخفوا عنه أمراً خطيراً كهذا..

على أن ذلك الإجراء يثير تساؤلات أهل الشام إن لم نقل: إنه سيثير حفيظتهم وحنقهم، وسيجعل الكثيرين يتعاطفون مع معاوية، ويرون أنه قد عومل بطريقةٍ غير متوقعة، وربما تفسر على أنها لدوافع تنتهي إلى عصبيات عشائرية، وتنافسات قبائلية بين بني أمية وبني هاشم.

ولعلها تعطي لمعاوية مادةً إعلامية تساعده على تسويق افتراءاته على علي «عليه السلام» بقتل عثمان.

وأما إن كان سيزور الشام بلا جيش، فهل يرى أن معاوية سيمكنه من دخولها؟! أم أنه سيغتنمها فرصة للتحكم فيه، والتلاعب به، وفرض شروطه عليه، وربما توسل بلطائف الحيل لإلحاق الأذى به، والتخلص منه، بصورة، أو بأخرى، ولو بالأسلوب الخفي الذي تخلص به غيره من سعد بن عبادة، ثم زعموا أن الجن قتلته، أو بالطريقة التي تخلص بها معاوية نفسه من الأشتر، وهو في طريقه إلى مصر..

الدرع الحصينة:

إن أبا أيوب قد استدل على لزوم بقاء علي «عليه السلام» بالمدينة بأنها الدرع الحصينة.

ونقول:

أولاً: إن كان هذا التعبير مقتبساً من كلام الرسول «صلى الله عليه وآله»، فليس بالضرورة أن يكون معناه أنها حصينة من مهاجمة الأعداء وأهل الباطل، إذ هي قد تكون حصينة للأفراد في إيمانهم، بسبب وجود رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأوصيائه فيها.

وقد يشهد لصحة هذا التفسير: أن المدينة قد هوجمت من قبل يزيد في وقعة الحرة، والكل يعلم كيف عاث جيش يزيد فيها فساداً، وأباحها لجيشه ثلاثة أيام، وافتضت بها الأبكار حتى قيل: إنه قد ولد منهم أربعة آلاف لا يعرف لهم أب كما ذكره جماعة من أصحاب التواريخ(١) وذلك في سنة٦٣ للهجرة.

وغير ذلك..

ثانياً: إن حديث أن المدينة هي الدرع الحصينة لم يرو عن أئمة أهل البيت «عليهم السلام» فيما راجعناه من مصادر حديثهم. وقد ورد الوصف بالدرع الحصينة في جهات أخرى، وهو وصف أمير المؤمنين «عليه السلام» الجهاد: بأنه «درع الله الحصينة، وجنته الوثيقة»(٢). وأين هذا من ذاك؟!

---

(١) راجع: بحار الأنوار ج٣٨ ص١٩٣ والطرائف لابن طاوس ص٤١ و ٤٢ و (ط مطبعة الخيام ـ قم) ص١٦٦ وشجرة طوبى ج٢ ص٤١٢ ومستدرك سفينة البحار ج٢ ص٢٥٤.

(٢) بحار الأنوار ج٣٤ ص٦٤ و ١٤٢ وج٩٧ ص٧ ونهج البلاغة (بشرح عبده) ج١ ص٦٧ والكافي ج٥ ص٤ ومعاني الأخبار ص٣٠٩ وروضة الواعظين ص٣٦٣

ولعلهم اقتبسوا هذه الكلمة، مما رواه أهل السنة، من أن النبي «صلى الله عليه وآله» ذكر لهم قبل حرب أحد أنه رأى في منامه كأنه في درع حصينة، فأولها بالمدينة(١).

ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٥ ص١٤ و (الإسلامية) ج١١ ص٨ والغارات للثقفي ج٢ ص٤٧٤ وجامع أحاديث الشيعة ج١٣ ص٩ و ١٠ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٢ ص٧٤ وتفسير نور الثقلين ج٢ ص١٦ وج٥ ص٣٠.

(١) مسند أحمد ج١ ص٢٧١ والمستدرك للحاكم ج٢ ص١٢٩ والسنن الكبرى للبيهقي ج٧ ص٤١ وفتح الباري ج١٣ ص٢٨٤ وتحفة الأحوذي ج٥ ص١٤٨ وتخريج الأحاديث والآثار ج١ ص٢١٧ و ٢١٨ وتغليق التعليق ج٥ ص٣٣١ وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج١٥ ص٣٨٠ وتفسير الميزان ج٤ ص١٤ وجامع البيان للطبري ج٤ ص٩٤ و ٩٥ وتفسير السمرقندي ج١ ص٢٧٥ وتفسير الثعلبي ج٣ ص١٣٨ وتفسير البغوي ج١ ص٣٤٦ وتفسير النسفي ج١ ص١٧٦ وأحكام القرآن لابن العربي ج٣ ص٣٧ والتفسير الكبير للرازي ج٨ ص٢١٨ والجامع لأحكام للقرآن ج٩ ص١٢٦ وتفسير البيضاوي ج٢ ص٨٧ والدر المنثور ج٢ ص٦٧ وتفسير أبي السعود ج٢ ص٧٨ وتفسير الآلوسي ج٤ ص٤٢ وسير أعلام النبلاء ج٦ ص٢١٦ وتاريخ الأمم والملوك ج٦ ص٢٠٧ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٥٠ وج٥ ص٥٤٤ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص١٦٦ وج٩ ص٢٧ والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص١٣ وج٦ ص٦ وإمتاع الأسماع ج٨ ص٩٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣

وعلى تقدير صحة هذا الحديث، فإنما يفيد أن البقاء في المدينة في خصوص تلك الحرب هو الأولى، والأصح في التدبير.. فلا يستقيم اقتباس هذا المعنى، ونسبته إلى أبي أيوب.

قبر ومنبر ومهاجر الرسول صلى الله عليه وآله:

وقد ورد في كلمات أبي أيوب استدلاله على ما ذهب إليه من لزوم البقاء في المدينة بأن المدينة مهاجر رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وبها قبره ومنبره..

وهذا أيضاً.. وإن كان صحيحاً في نفسه لمن أراد أن يتبرك بقبره «صلى الله عليه وآله» وبمنبره، وينال المثوبة بمجاورة قبره وزيارته في كل حين..

ولكن هذا يبقى في دائرة التربية الروحية للأفراد، ولا يكفي ذلك لحفظ بيضة الإسلام من هجوم أعدائه، ولدفع الفتن التي قد تدمر وحدة الأمة، وتهدد كيانها ونظامها، وحتى وجودها بالخطر الجسيم والعظيم. بل لا بد من تجريد الجيوش، والمبادرة إلى الذود عن حياض الدين، وعن بلاد المسلمين ، وعن حكمهم ونظامهم ومجتمعاتهم من كل متربص شراً بهم، سواء أكان من الداخل، أم من الخارج!!..

ص٥٨٣ وعيون الأثر ج١ ص٤٠٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٢١ و ٢٢ وج٤ ص٧٠٧ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص١٨٤ وبحار الأنوار ج٥٨ ص٢٢٩ و ٢٣٠ وج٢٠ ص١٢٣ و ١٢٤ عن المعتزلي وغيره.

ولا نظن أن أبا أيوب يغفل عن هذا الأمر الواضح.

مضمون مشورة أبي أيوب:

ويذكر النص المتقدم: أن النتيجة التي خلص إليها أبو أيوب هي:

«أقم بالمدينة، فإن استقامت العرب كنت كمن كان قبلك. وإن تشعَّب عليك قوم رميتهم بأعدائهم من الناس..».

فقال «عليه السلام»: «صدقت يا أبا أيوب، ولكن الرجال والأموال بالعراق إلخ..»

ولم نستطع أن نغض الطرف عن قوله: «إن تشعَّب عليك قوم رميتهم بأعدائهم من الناس». فإن علياً «عليه السلام» لا يمكن أن يستثمر العداوات بين الناس في أي جهد حربي، لأنه «عليه السلام» يريد أن يزيل الأحقاد، ويشيع المحبة والوئام والرحمة والسلام بين الناس.. ويقلل من خسائر الحروب، ويخمد نيران الفتن بأقل قدر ممكن من الخسائر.

وهذه المشورة تعني ترسيخ الأحقاد، والإمعان في القتل، والحرص على الانتقام.

نعم، وهذه هي مهمة الرجل الرسالي الذي يريد أن يقيم المجتمع الأمثل والأكمل، والأفضل. حتى يكون الكل إخواناً على سرر متقابلين ويزيل كل عوامل التفكك والانقسام والضعف.

ولأجل ذلك كان «عليه السلام» قد أخرج في حرب الجمل مضر

لمضر، وربيعة إلى ربيعة واليمن إلى اليمن(١). وفي صفين كان يخرج إلى كل قبيلة من أهل الشام أختها من أهل العراق، فيخرج تميم لتميم، ولهمدان همدان، ولربيعة ربيعة، وهكذا(٢). من أجل أن تقل القتلى، وليحد من الرغبة في الفتك.

كما أنه يريد أن تزول هذه الجراحات والأحقاد بسرعة إذا كانت الخسائر قد لحقت بأفراد القبيلة الواحدة.

وأما إذا اختلفت القبائل وتفاوتت، فإن الأخذ بالثار الذي كان شائعاً بين العرب سوف يطيل أمد الأحقاد، وسيزيد من التعقيدات في العلاقات بين القبائل، وقد يتسع الخرق على الراقع، إلى آماد طويلة وهذا ما يدعونا لرفض صحة ما نسب إلى علي «عليه السلام» من أنه قال لأبي أيوب: صدقت يا أبا أيوب..

لم يكن معاوية بحاجة إلى التحريض:

ذكر ابن أعثم: أنه بعد قتل عثمان والبيعة لأمير المؤمنين «عليه السلام»

(١) الفتوح لابن أعثم ج٢ ص٢٩٩ و (ط دار الأضواء) ج٢ ص٤٦٤ وراجع: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٤٢ وإمتاع الأسماع ج١٣ ص٢٤٣.

(٢) وقعة صفين للمنقري ص٢٢٩ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٥ ص١٨٦ والأخبار الطوال للدينوري ص١٨١ وتاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٤ ص٩ وراجع: أنساب الأشراف ج٢ ص٣٠٥ والفتوح لابن أعثم ج٣ ص١٤١ وراجع ج٢ ص٢٩٩.

سار الحجاج بن خزيمة بن نبهان من المدينة إلى الشام، ودخل على معاوية، ونعى إليه عثمان، ثم قال:

إن بني عمك عبد المطلب قد قتلوا عثمان حقاً لا كذب

فأنت أولى الناس بالوثب فثب واغضب جهاراً للإله واحتسب

وسر مسير الليث قدماً إن غضب بجمع أهل الشام ترشد وتصب(١)

ثم قال له:

«إنك لتقوى على علي «عليه السلام» ـ إن أردت مخالفته ـ بدون ما تقدِّره نفسك، لأن الذين معك من أهل الشام لا يقولون إذا قلت، ولا يسألون إذا سألت. والذين مع علي يقولون إذا قال، ويسألون إذا أمر. فقليل من معك، خير من كثير من معه.

واعلم يا معاوية، إن غلبه العراق والحجاز، حتى نأخذ الشام دون العراق.

فقال معاوية: والله، لقد صدقت في جميع ما قلت. ولقد ندمت عن قعودي عن عثمان، وقد استغاث بي، فلم أجبه».

ثم ذكر أن المغيرة بن شعبة حين علم بذلك، جاء إلى أمير المؤمنين، ونصحه بإبقاء معاوية على الشام لأنه ابن عم عثمان والشام في يده. ونصحه

---

(١) الفتوح لابن أعثم ج٢ ص٢٦٢ و ٢٦٣ و (ط دار الأضواء) ج٢ ص٤٤٤ و٤٤٥ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٣ ص٩١ ووقعة صفين للمنقري ص٧٧ وراجع: الأخبار الطوال ص١٥٥ مع بعض الاختلاف.

أيضاً بإبقاء عبد الله بن عامر بن كريز، فإنه يسكن عنه الأعداء، ويهدي إليه البلاد.

فلم يتقبل علي «عليه السلام» منه ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[١]، وقال «عليه السلام»: والله لا يراني الله تعالى وأنا أستعمل معاوية على شيء من أموال المسلمين أبداً إلخ..[٢].

ونقول:

تضمن النص المتقدم أموراً عديدة يحسن التذكير بها، وهي التالية:

كذبة الحجاج بن خزيمة:

إن الحجاج بن خزيمة بن نبهان قد كذب بصورة وقحة وفاجرة، حين قال لمعاوية:

إن بني عمك عبد المطلب قد قتلوا عثمان حقاً لا كذب

فأولاً: إن أحداً من بني عبد المطلب لم يشارك في قتل عثمان، ولا حتى في حصاره..

بل قد ذكرنا: إصرار الروايات على أن الحسن والحسين «عليهما السلام» قد حاولا الذب عنه.. وأن عثمان هو الذي طلب منهما

(١) الآية ٥١ من سورة الكهف.

(٢) الفتوح لابن أعثم ج٢ ص٢٦٥ ـ ٢٦٧ و (ط دار الأضواء) ج٢ ص٤٤٦ ـ ٤٤٧.

الإنصراف..

ثانياً: إن علياً «عليه السلام» يقول لمعاوية: «ليس الصريح كاللصيق»[١]، فكيف يزعم الحجاج بن خزيمة أن بني عبد المطلب أبناء عم معاوية.

ثالثاً: إن نفس الحجاج بن نبهان يصرح بعد إنشاده هذا الشعر مباشرة، وفي نفس ذلك المجلس بما ينقض كلامه هذا، حيث قال له معاوية بعد أن أنشده أبياته تلك: ويحك، قد بلغني قتل عثمان، ولكن هل شهدت المدينة يوم قتل؟!

فقال: نعم والله، لقد شهدت ذلك اليوم.

فقال: أخبرني، من تولى قتله؟!

فقال: على الخبير سقطت! حصره [قيس بن] المكشوح المرادي. وحكم في دمه حكيم بن جبلة. وهجم عليه محمد بن أبي بكر، والأشتر النخعي،

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٣ ص١٧ الكتاب رقم ١٧ ومناقب آل أبي طالب ج٢ ص٣٦١ وبحار الأنوار ج٣٣ ص١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٥ ص١١٧ ومستدرك سفينة البحار ج١ ص٢٢٨ وج٦ ص٥٧٣ وتذكرة الخواص ص٩ وإحقاق الحق (الأصل) ص٢٤٩ وفلك النجاة لفتح الدين الحنفي ص٥٠ والغدير ج٣ ص٢٥٤ وج١٠ ص١٥١ عنهم، وعن: ربيع الأبرار للزمخشري باب ٦٦، وعن مروج الذهب ج٢ ص٦٢. وراجع أيضاً: مناقب الخوارزمي الحنفي ص١٨٠.

وعمار بن ياسر، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر، وجماعة لا أقف على أسمائهم.

وكانت ثم أبحاث لا أحب ذكرها من رجلين، دبوا في ذلك ومشوا، وحرضوا على قتله[١].

فلم يذكر الحجاج أحداً من بني عبد المطلب قد شارك في قتل عثمان بقولٍ أو بفعلٍ، أو إشارة، أو تحريض أو غير ذلك، فكيف نفسر قوله: أن بني عمك عبد المطلب، قد قتلوا عثمان؟!

وإن كان من بين من ذكرهم من هو من محبي علي «عليه السلام»، فذلك:

أولاً: لا يعني دقة كلامه أو صحته.

ثانياً: هو لا يعني أنه «عليه السلام» قد شاركهم في فعلهم هذا، فإن النجاشي الشاعر مثلاً كان ينصر علياً «عليه السلام» في شعره. ولكنه قد شرب الخمر، فجلده علي «عليه السلام» حتى فر إلى معاوية.

فهل يصح أن يقال: إن علياً «عليه السلام» قد رضي أو أعان النجاشي على شربه الخمر؟!

ويلاحظ في هذا النص: أن الحجاج قد أشار إلى طلحة والزبير الذين

---

(١) الفتوح لابن أعثم ج٢ ص٢٦٣ و (ط دار الأضواء) ج٢ ص٤٤٥ وأعيان الشيعة ج٦ ص٣٢٧ ووقعة صفين للمنقري ص٦٥ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٣ ص١١١ والغدير ج٩ ص١٤٨.

دبا في قتل عثمان، ومشيا وحرضا على قتله ـ لكنه لم يصرح باسمهما، بل صرح بأنه لا يحب ذكر الأبحاث التي جرت منهما.

ولكنه يصرح باتهام الأبرياء الذين لم يكن لهم أية مشاركة في هذا الأمر على الإطلاق!!

معاوية يعترف بقعوده عن عثمان:

١ ـ وقد سجل معاوية اعترافه بأنه قعد عن نصرة عثمان، وبأنه استغاث به فلم يجبه.. فلا مجال لادعاء معاوية عدم معرفته بما جرى لعثمان إلا بعد فوات الأوان..

كما أن هذا الإقرار يدل على أنه لا يستطيع أن يدعي انه كان يتوهم أن عثمان لم يكن بحاجة إلى معونة وإغاثة.. أو أن يقول: إنه لم يكن يظن أن الأمور تبلغ به إلى هذا الحد..

ويأتي هنا السؤال الوجيه عن سبب تخاذل معاوية عن نصرة عثمان، ألم يكن السبب هو أنه يرى أن من مصلحته قتل عثمان، ليجعله ذريعة إلى الرياسة والخلافة، إذا اختلف أهل المدينة في من يختارونه لها، وإن اختاروا أياً كان من الناس، فإن التهمة بقتل عثمان ستكون جاهزة، سواء أكانت تهمة بحق، كما لو كان طلحة والزبير، وحتى سعد بن أبي وقاص هو الذي بويع، أو كانت بباطل كما لو كان الذي يبايعونه هو علي «عليه السلام».. وقد تحدثنا عن دلائل خذلان معاوية لعثمان في موضع آخر من هذا الكتاب..

٢ ـ غير أننا لا نظن أن معاوية كان صادقاً في دعواه الندم على قعوده عن نصرة عثمان، ولكنه في إظهاره الندم كان يتأسى بطلحة والزبير وعائشة حين أظهروا الندم على ما فعلوه بعثمان، فأراد معاوية بهذا الإظهار تهيئة الأجواء للقيام ضد علي «عليه السلام»، وإظهار الندم على تقصيره في حق ابن عمه المقتول بممالأة أو مشاركة من علي «عليه السلام» على حد زعمه..

وبتعبير آخر: إن معاوية يريد أن يقول للبسطاء والسذج أنه ولي دم عثمان، وأنه حين قتل لم يتمكن من نصرته، لبعد المسافات بينه وبينه..

ويريد أن يقول لمن يعرف بتخاذله عن نصرته أنه قد ندم وتاب، ويريد أن يكفر عن هذا التقصير الذي صدر منه بالسعي للانتقام من قاتله. تماماً كما فعل طلحة والزبير حين نكثا وحاربا علياً «عليه السلام».

فانظر كيف تشابهت قلوبهم، وكيف تلاقت أفكارهم، وعند الله مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال.

يقولون إذا قلت، ويسألون إذا سألت:

وقد حرض الحجاج بن خزيمة معاوية على حرب علي «عليه السلام» مطمئناً له بأنه سينتصر عليه، لأن أهل الشام يطيعون معاوية بلا سؤال أو جواب.

أما الذين مع علي «عليه السلام»، فهم يقولون إذا قال، ويسألون إذا أمر..

ونود توضيح ذلك ضمن الفقرات التالية:

١ ـ لا شك في أن معاوية لم يكن يعطي الناس حرية إبداء الرأي لأي كان من الناس، وما كان ليجيز لأحدٍ أن يسأله عن مبررات قراراته، كما أنه

لم يكن ليسمح لأحد بأن يعارضه فيما يقول.. وهذه هي سمة الملوك والحكام الطغاة الظلمة في ذلك العصر، وما سبقه ولحقه. فإن الناس كانوا يعرفون بأن عليهم البخوع، والخضوع، والتسليم لقراراتهم، وأحكامهم.. وإلا فإن عليهم أن ينتظروا منهم العقاب الأليم، والبلاء العظيم..

٢ ـ وكان الناس يعلمون أيضاً: أن بطش الحكام بمن يعارضهم، وصبرهم على من يناقشهم، ويتصدى لهم.. ليس له حقيقة ولا واقع، فإن الحاكم إذا أغضى عن شيء من ذلك، فإنما هو لظروف فرضت عليه ذلك، فهو بالنتيجة إغضاء ماكر لا يفوته المراد، وكاسر لا يخاف رب العباد..

٣ ـ إن الكوفة والبصرة كانتا بمثابة معسكرين تجتمع فيهما الجيوش التي كانت تغزو بلاد فارس، وهما خليط من قبائل شتى، تكون بينهم مناكفات، ومنافسات، وعداوات، وربما ثارات.

وقد تركت تلك الحروب التي خاضوها أيضاً الآثار المختلفة عليهم: في مطامعهم وطموحاتهم، وفي أوضاعهم الاقتصادية، والأسرية، والنفسية، وفي علاقاتهم الاجتماعية، وما إلى ذلك.

أما قادة تلك الحروب فهم أناس آخرون، تؤيدهم وتدعمهم السلطة المركزية، وتعتمد عليهم، وتركن إليهم، والصحابة من أولئك القادة كانوا يستطيلون على الناس بصحبتهم لرسول الله، أو بكونهم من قريش، أو بقرابتهم من هذا الخليفة أو ذاك.

وكان كل همِّهم هو الحصول على الدنيا، باسم الدين، ويلبسون لباس الإسلام، ويمارسون سنن الجاهلية، وقد وجد الناس أن ممارسات هؤلاء

تضر بمصالحهم وتزيد من معاناتهم، فكانت أصواتهم تعلوا بالاعتراض، فيواجهون بالقمع والأذى..

فكان ما كان مما جرى لعثمان، لأسباب عديدة، منها سياسات عماله. كما ذكرناه أكثر من مرة.

أما الشام، فقد كانت في حكم بني أمية طيلة حوالي أربعة قرون، وقد طبعها معاوية بطابعه، وهيمن عليها بأساليبه، ولم يوقفه عن تحقيق مطامحه وأهوائه حق يضيع، ولا أحجم عن باطل، بل أراد له أن يترسخ ويشيع.

فوافق حكمه هوى أهل الباطل في تلك البلاد، وما أكثر هؤلاء بين رؤساء القبائل، والأوباش والأراذل، وأحاطه المنتفعون به ومنه بالرعاية والتأييد، ودافعوا عنه بالنار وبالحديد.

٤ ـ من أجل هذا وذاك كان أهل الشام لا يقولون إذا قال له معاوية، ولا يسألون إذا أمر.

أما أهل العراق. فقد عرفنا حالهم وما انتهى إليه أمرهم مع السابقين على علي «عليه السلام»..

وحين جاءتهم خلافة أمير المؤمنين «صلوات الله وسلامه عليه»، وجدوا أن سياسته تقوم على الحق والعدل.. وظهر لهم أنه «عليه السلام» يفسح لهم المجال ليسألوا عن مبررات كل أمر يصدره، وأن يعلنوا رأيهم، ويقولوا ما يدور بخلدهم، حتى حينما يقول «عليه السلام».. فكان أن أسرف بعضهم في الاستفادة من هذه السياسة العلوية.. إلى حد الإخلال بوظائفهم، وتناول ما ليس لهم..

٥ ـ والسبب في ذلك: أنهم ظنوا أو زينت لهم أنفسهم: أن هذا الحق ثابت لهم على كل حال، وقد غاب عن بالهم: أن هذا الحق ثابت لهم مع الحكام والمتسلطين من أهل الدنيا.. أما الأنبياء، وأوصياؤهم، فلا يحق لهم الاعتراض عليهم، لأنهم إنما يجرون فيهم حكم الله تعالى، وينفذون السياسات الربانية في العباد والبلاد. فقد قال تعالى ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾(١). وأولوا الأمر هم الأئمة الطاهرون «عليهم السلام»(٢) لا مطلق من تسلط وقهر، وتسلط وتجبر..

وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ**

---

(١) الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٢) راجع: الإمامة والتبصرة ص١٣٣ و ١٣٤ والكافي ج١ ص١٨٩ و ٢٧٦ ودعائم الإسلام ج١ ص٢٤ و ٢٥ وعيون أخبار الرضا ج١ ص١٣٩ وكمال الدين وتمام النعمة ص٢٢٢ ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٤ ص٦٣ وشرح الأخبار ج٣ ص٢٩٩ ودلائل الامامة ص٤٣٦ والإفصاح للشيخ المفيد ص٢٨ ومناقب آل أبي طالب ج٣ ص٣٧٣ وبحار الأنوار ج٢٣ ص٢٨٤ وج٢٣ ص٢٨٦ و ٢٨٨ و ٢٩٣ وج٤٧ ص٢٩ ومسند الإمام الرضا ج١ ص١٠٨ ونهج السعادة ج٤ ص١٤٩ وتفسير العياشي ج١ ص٣٢٨ و ٣٢٩ وتفسير نور الثقلين ج١ ص٤٩٩ و ٥٠٠ و ٥٠٥ و ٥٠٧ وج٢ ص٤٩٢ وتفسير كنز الدقائق ج٢ ص٤٩٤ و ٤٩٥ و ٥٠٠ و ٥٠٦ وتفسير الميزان ج٤ ص٤١٠.

يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(١).

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾(٢).

وقال سبحانه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(٣).

وقد علم الكثيرون من الناس، وشاع وذاع، وطرق الكثير من الأسماع نبأ بيعة الغدير لأمير المؤمنين «عليه السلام». وأنه وصي النبي «صلى الله عليه وآله» والإمام من بعده. وأن طاعته طاعة للنبي «صلى الله عليه وآله» والأحاديث في ذلك كثيرة متواترة، بل فوق حد التواتر.

وعرف الناس وسمعوا أو رأوا كيف أخذ الناس الخلافة منهم بالقوة والقهر، ولم يخف على أحد ما جرى عليه وعلى الزهراء «عليهما السلام»، وإسقاط جنينها، وضربها، ومحاولة إحراق بيتهم عليهم، وعرف الكثيرون منهم أيضاً بعض ما جرى لرسول الله «صلى الله عليه وآله» في مرض موته، مثل امتناعهم عن تقديم الكتف والدواة له ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده، وقول بعضهم: إن النبي ليهجر، أو غلبه الوجع.

بالإضافة إلى امتناعهم عن تجهيز جيش أسامة، وقضية الصلاة بالناس، حيث بادر «صلى الله عليه وآله» إلى عزل من تصدى للصلاة.. وغير ذلك من أمور.. فإن ذلك كله يشير إلى أن الإمامة قد أخذت بالقوة

(١) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية الأولى من سورة الحجرات.

(٣) الآية ٧ من سورة الحشر.

من أهلها. وأزيحت عن محلها..

ومن المعلوم: أن طاعة الإمام المنصوب من الله ورسوله واجبة، سواء أخذ منه حقه أو أعطي له، ويكون الاعتراض عليه اعتراض على الله ورسوله، وتخطئة له، ولله ورسوله أيضاً..

وهذا يؤكد حقيقة: أنه كان يجب على الناس أن يعاملوا علياً «عليه السلام» كما يعاملون رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لا كسائر الحكام الزمنيين من أهل الدنيا..

قليل من مع معاوية خير من كثير مع علي عليه السلام:

أما بالنسبة لقول الحجاج بن خزيمة: قليل من معك خير من كثير من مع علي «عليه السلام».. فهو صحيح من جهة، وباطل من جهة أخرى..

هو صحيح إذا لم يكن هناك دين وقيم ومبادئ وآخرة، بل كان الأساس هو المصالح الدنيوية والشهوات والأغراض الشخصية، وإذا كان المعيار هو الوصول إلى الأغراض الشخصية بأية وسيلة كانت، حتى لو كان ثمن ذلك هو ارتكاب أعظم الفواحش، والموبقات. بما في ذلك سفك دماء الأبرياء، وتضييع مستقبل الأمة، وهدم أركان الدين..

وهو باطل إذا كان المعيار هو الاستقامة على طريق الحق، وإزهاق الباطل. فالذين مع علي «عليه السلام» وإن كان يخطئون في أسلوب تعاملهم مع أمير المؤمنين «عليه السلام» لعدم معرفتهم أو لقلة مبالاتهم بمراعاة شؤون إمامته.. ولكنهم مصيبون في وقوفهم إلى جانب الحق،

ونصرتهم له، وسعيهم في إزهاق الباطل.

وخطؤهم وتقصيرهم في تلك الجهة لا يذهب بفضيلتهم الكبرى هذه، وإن كان المطلوب هو تصحيح ذلك الخطأ، وإزالة ذلك النقص.

وهو صحيح إذا كان مراده مقايسة العصاة كالخوارج في جيش الإمام بالمطيعين طاعة عمياء من جيش معاوية، خصوصاً وأنهم لا يعترضون ولا يسألون، وهو ما عبر عنه الإمام علي «عليه السلام» في إحدى خطبه: «صاحبكم (إمامكم) يطيع الله وأنتم تعصونه. وصاحب (وإمام) أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه، لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم»[1].

وقوله «عليه السلام»: «أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم»[2].

وقوله «عليه السلام»: «والله لوددت أن لي بكل عشرة منكم رجلاً من

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج١ ص١٨٨ والإرشاد للمفيد ج١ ص٢٨٠ والاحتجاج للطبرسي ج١ ص٢٥٥ وبحار الأنوار ج٣٤ ص٨١ و ١٣٧ والإمام علي بن أبي طالب للهمداني ص٧٣٢ ونهج السعادة ج٢ ص٥٧٠ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٧ ص٧٠.

(٢) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج١ ص٦٥ وبحار الأنوار ج٣٤ ص١٦٠ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١ ص٣٣٣.

بني فراس بن غنم صرف الدينار بالدرهم»[١].

(١) الإرشاد للمفيد ج١ ص٢٧٤ وبحار الأنوار ج٣٤ ص٧١ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٧ ص٧٥ وأنساب الأشراف للبلاذري ج٢ ص٤٣٨ وحياة الإمام الحسين «عليه السلام» للقرشي ج٢ ص٩٢.

الفهارس:

١ ـ الفهرس الإجمالي

٢ ـ الفهرس التفصيلي

١- الفهرس الإجمالي

الباب الرابع:
تاريخ علي (عليه السلام) بلسان علي

الفصل الأول: المرحلة السابقة بنظر علي (عليه السلام) ٧
الفصل الثاني: تاريخ علي (عليه السلام) في حوار مع رأس اليهود ٢١
الفصل الثالث: وقفات مع نصوص الفصل السابق............................ ٥١
الفصل الرابع: مع نصوص الفصل السابق ٨٣

الباب الخامس:
علي (عليه السلام) والعمال

الفصل الأول: علي (عليه السلام) ونصب العمال.................................١٢٣
الفصل الثاني: رسائل مفتوحة إلى أهل البلاد ١٥٧
الفصل الثالث: من أوامر علي (عليه السلام) لعماله ١٩٣
الفصل الرابع: ولائم الناس للعمال...٢١٧
الفصل الخامس: معاوية يماطل ويتآمر...٢٤٧
الفصل السادس: علي (عليه السلام) يريد الشام..................................٢٩١
الفهارس ٣٢١

٢ ـ الفهرس التفصيلي

الباب الرابع:
تاريخ علي عليه السلام بلسان علي

الفصل الأول:
المرحلة السابقة بنظر علي عليه السلام

الخطبة الشقشقية: ٩
هذه هي مسائل الأعرابي: ١٣
هل الأعرابي غبي أم منافق؟!: ١٦
مضامين الشقشقية: ١٧
توضيح للمسألة العاشرة: ١٧
هل بقي شيء لم يقله؟!: ١٧

الفصل الثاني:
تاريخ علي عليه السلام في حوار مع رأس اليهود

بداية توضيحية: ٢٣
نص الحوار لرواية الصدوق: ٢٣

الفصل الثالث:

وقفات مع نصوص الفصل السابق ما كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله

بداية:.. ٥٣
من هو رأس اليهود؟!:.. ٥٣
الهداية الإلهية، ضوابط ومعايير: ٥٤
هل قلب اليهودي أكثر احتمالاً؟!:.. ٥٩
ثلاث سنوات لم يُسْلِم إلا علي وخديجة عليهما السلام:.. ٦٠
إبليس على صورة المغيرة بن شعبة:.. ٦٣
لا يبارز ولا يهاجم إلا بأمر الرسول:.. ٦٥
علي عليه السلام لا ينسب قتل الأقران إلى نفسه: ٦٧
قريش تريد قتل النبي صلى الله عليه وآله، وبني عبد المطلب:.. ٦٨
أين كان نساء أهل المدينة؟!:.. ٦٩
الطاعة والصبر:.. ٧٠
الرسول صلى الله عليه وآله عال النفس والأهل والولد: ٧١
توازن الإنسان الكامل: ٧٢
علي عليه السلام كان يعلم:.. ٧٣

التخلف عن جيش أسامة: ٧٨
أهل البيت والرفاهية في عهد الرسول؟!: ٨٠

الفصل الرابع:

مع نصوص الفصل السابق ما كان بعد الرسول صلى الله عليه وآله

بداية: ٨٥
من سياسات عمر تجاه علي عليه السلام: ٨٥
دور ابن عمر في الشورى: ٨٨
بعدما جرى في الشورى: ٨٩
سبب كراهة علي عليه السلام لولايتهم: ٩١
الاستغلال البشع: ٩٣
ولي عائشة، والوصي عليها: ٩٣
ظهور علامات الندم: ٩٤
النكث المتكرر: ٩٥
حال أهل البصرة: ٩٥
ناظرت بعضهم فرجع: ٩٧
حرب الجمل دفاعية: ٩٧

الاستئصال، بعد نفاد كل احتمال: ٩٩
هل أعطى عليه السلام كل ما التمسوه؟!........ ١٠٠
الجبر في كلام علي عليه السلام: ١٠١
البيعة لعلي عليه السلام أربع مرات: ١٠٢
أبو سفيان يجدد بيعته لعلي عليه السلام: ١٠٤
حلم علي عليه السلام، وتحكمات معاوية: ١٠٥
معاوية يستعلي بحمير: ١٠٦
متى أشار المغيرة بإبقاء معاوية: ١٠٨
راية الرسول صلى الله عليه وآله مقابل راية حزب الشيطان: ١٠٩
رفع المصاحف بعد فناء خيار أصحابه عليه السلام: ١١٠
ماذا لو مضى على بصيرته؟!: ١١١
يمرقون بخلافهم على علي عليه السلام: ١١٢
زهد وعبادة الخوارج: ١١٤

الباب الخامس:

علـــي عليه السلام والـعمـال

الفصل الأول:

علـــي عليه السلام ونصب العمال

الولاةُ الذين أبقاهم عليٌّ عليه السلام: ١٢٥

علي عليه السلام يرسل عماله إلى البلاد: ١٢٧
متى أرسل عليه السلام عماله إلى البلاد؟!: ١٣٠
متى تولى قيس على مصر؟!: ١٣١
سؤال.. وجوابه: ١٣٢
أدلة توليته قيس حين البيعة لعلي عليه السلام: ١٣٦
دليل ابن الأثير: ١٤١
أحداث لا أساس لها: ١٤٢
من خرافاتهم: ١٤٣
سهل بن حنيف: أميراً!!: ١٤٦
قيس بن سعد: من فالة عثمان: ١٤٧
عمارة بن شهاب وطليحة: ١٤٩
علي عليه السلام وطلحة والزبير: ١٥٠
هل هذا هو السبب؟!: ١٥٢
زيادة غير مرضية: ١٥٣

الفصل الثاني:
رسائل مفتوحة إلى أهل البلاد

كتابه عليه السلام إلى أهل المدائن: ١٥٩

لماذا يخاطب الناس؟!: ١٦١
كتابه إلى عامله.. وكتابه إلى الناس: ١٦٣
من عبد الله علي: ١٦٤
الإسلام ليس مجرد قانون: ١٦٤
مهمات ووظائف الرسول: ١٦٥
المسلمون أقاموا الخلفاء: ١٦٨
سيرة الخلفاء قبله عليه السلام: ١٦٩
جاؤوني فبايعوني: ١٧٠
ما تعهد به عليه السلام للرعية: ١٧١
حذيفة عاملهم: ١٧٢
أوامره عليه السلام لحذيفة: ١٧٣
كتاب تولية قيس على مصر ١٧٤
العزة والقوة: ١٧٩
علي عليه السلام يوافق قيساً: ١٨٠
كتاب علي عليه السلام إلى المصريين: ١٨١
هل عمل الخلفاء بالسنة؟!: ١٨١

أعينوه على الحق: ١٨٢

المحسن والمريب: ١٨٣

قيس في مصر: ١٨٣

مسلمة بن مخلد: ١٨٥

البيعة مشروطة: ١٨٧

بايعنا خير من نعلم: ١٨٩

البيعة على الكتاب والسنة: ١٩٠

سياسات قيس: ١٩١

الفصل الثالث:

من أوامر علي عليه السلام لعماله

كتب إلى عماله بعد قتل عثمان ١٩٥

كتب إلى عماله كافة: أدقوا أقلامكم: ١٩٧

لا تسخروا المسلمين: ١٩٩

كتابه عليه السلام إلى حذيفة: ٢٠١

١ ـ المعيار في العمَّال: الدين والأمانة: ٢٠٣

٢ ـ لا تجاوز ولا تبتدع: ٢٠٥

ابن المنتجب عامل علي عليه السلام: ٢٠٦

العدل.. والإحسان: ٢٠٧
بيعةٌ كبيعة الرضوان: ٢١٠
لماذا الوفد، ولماذا هذه المواصفات؟!: ٢١١
تخيل.. وجوابه: ٢١٦

الفصل الرابع:

ولائم الناس للعمال

كتابه عليه السلام في الولائم للعمال: ٢١٩
توضيحات: ٢٢٣
ضابطة قبول دعوات الولائم: ٢٢٤
الإمامة: القدوة والمعرفة: ٢٢٦
أعينوني بورع واجتهاد: ٢٢٦
أيأمرهم بالإقتداء به، وهم عاجزون عنه؟!: ٢٢٨
صلاحهم إعانة لإمامهم: ٢٢٩
قوت الأتان الدبرة: ٢٣١
بلى كانت في أيدينا فدك: ٢٣٢
التذكير بفدك: ٢٣٢
اليد دليل أم أمارة على الملكية: ٢٣٣

قبح الشح: ٢٣٥
حقيقة الزهد بنظر علي عليها السلام: ٢٣٥
من مسؤوليات الحاكم: ٢٣٧
لماذا خلقنا؟!: ٢٣٩
تأثير القوت في القوة: ٢٤٠
لو تظاهرت العرب على قتالي: ٢٤٤
معاوية هو الأخطر: ٢٤٥

الفصل الخامس:

معاوية يماطل ويتآمر

عليٌ عليه السلام يُؤمر معاوية على الشام!!: ٢٤٩
نصوص أخرى ومؤاخذات: ٢٥٥
علي عليه السلام يدعو معاوية للبيعة: ٢٥٥
ذكر ابتداء وقعة الجمل: ٢٦٠
الناس قتلوا عثمان: ٢٦٠
قتلة عثمان لم يشاوروا علياً عليه السلام: ٢٦٠
إما أن يبايع أو يكون باغياً: ٢٦٣
البيعة لعلي عليه السلام من التوفيق: ٢٦٣

وفادة الشاميين.. ووفادة معاوية: ٢٦٤
اقبض على أسفل الطومار: ٢٦٥
ممن القود؟!: ٢٦٦
ستون ألف شيخ حول قميص عثمان: ٢٦٧
وقاحة رسول معاوية: ٢٦٧
السبأية ورسول معاوية: ٢٦٨
علي عليه السلام وقتال أهل القبلة: ٢٧٠
الإمام الحسن عليه السلام يدعو أباه إلى القعود: ٢٧٢
كتب علي عليه السلام إلى قيس بن سعد: ٢٧٣
قميص عثمان: ٢٧٣
أهل الشام لا يعرفون علياً عليه السلام: ٢٧٥
تحريف في وفادة معاوية: ٢٧٦
طومار معاوية من جديد: ٢٧٧
بيعة معاوية للزبير: ٢٨٠
لماذا بايع للزبير؟!: ٢٨٢
لماذا اختار الزبير؟!: ٢٨٢

دونك الكوفة والبصرة: ٢٨٣
كتبه عليه السلام لمعاوية: ٢٨٤
توضيحان: ٢٨٥
قتل عثمان لم يكن الخيار المعلن: ٢٨٦
الناس قتلوا عثمان: ٢٨٦
عناصر توفرت في البيعة لعلي عليه السلام: ٢٨٧
وفادة أشراف الشام ومعاوية، لماذا؟!: ٢٨٧
الإعذار.. والإعراض!!: ٢٨٨
لا بكاء على الأطلال!!: ٢٨٩

الفصل السادس:

علي عليه السلام يريد الشام

علي عليه السلام يريد زيارة الشام: ٢٩٣
حوار غير منسجم: ٢٩٤
لم يأخذ بنصيحة أبي أيوب: ٢٩٥
رأي معاوية: ٢٩٥
الدرع الحصينة: ٢٩٧
قبر ومنبر ومهاجر الرسول صلى الله عليه وآله: ٣٠٠

مضمون مشورة أبي أيوب: ٣٠١
لم يكن معاوية بحاجة إلى التحريض: ٣٠٢
كذبة الحجاج بن خزيمة: ٣٠٤
معاوية يعترف بقعوده عن عثمان: ٣٠٧
يقولون إذا قلت، ويسألون إذا سألت: ٣٠٨
قليل من مع معاوية خير من كثير مع علي عليه السلام: ٣١٣

الفهارس:

١ ـ الفهرس الإجمالي ٣١٩
٢ ـ الفهرس التفصيلي ٣٢١